

# الأدب القبطي

قديمًا وحديثًا

تأليف

محمد سيّد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الكتاب: الأدب القبطي.. قديماً وحديثاً

الكاتب: محمد سيّد كيلاني

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٦٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ - ٣٥٨٦٧٥٧٦ - ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



E-mail: news@apatop.com http://www.apatop.com

**All rights reserved.** No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كيلاني، محمد سيّد

الأدب القبطي.. قديماً وحديثاً / محمد سيّد كيلاني

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

٢٧٤ ص، ٢١\*١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٥ - ٨٦ - ٦٧٧٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

أ - العنوان رقم الإيداع: ٥١٧٥ / ٢٠٢٠

# الأدب القبطي

قديمًا وحديثًا

وكالة الصحافة العربية  
«ناشرون»





## المقدمة

هذا أول كتاب عن الأدب القبطي يحتوي على دراسة مركزية للأدب المتعلق بالشئون القبطية، والذي يصور حالة الأقباط النفسية، وحركاتهم الاجتماعية، ويمولهم السياسية، وأتجاهاتهم الفكرية، وخصوماتهم الطائفية، ونزعاتهم العاطفية، وأمانيتهم الوطنية، ومشاعرهم القومية، وفخرهم بالأجداد الفرعونية.

ولم أغفل دراسة آدابهم الدينية التي تزخر بأرائهم المسيحية، وعقائدهم اللاهوتية دراسة أدبية خالصة بعيدة عن المناقشة والجدل. فليس هذا كتاب دين، وإنما هو كتاب أدب.

ومن الغريب أن الأقباط المعاصرين يجهلون أدب أجدادهم جهلاً تاماً. ولا يكاد المتعلمون منهم يحفظون شيئاً من شعر شعرائهم. وكان لهذا الجحود الذي لاقاه أديباء الأقباط من أبناء طائفتهم أثره في نفوسهم، فأهملوا نتاجهم الأدبي حتى عبثت به يد النسيان أو كادت، فلم يهتموا بجمع شعرهم ونثرهم. وقد ترتب على هذه صعوبة كبرى تعترض سبيل الباحث في الأدب القبطي. وصعوبة أكبر من الوقوف على تراجم شعرائهم وكتابتهم، وتواريخ ميلادهم ووفاتهم.

وحيثما درسنا الأدب المصري العام أهملنا دراسة الأدب القبطي إهمالاً تاماً. ولذلك جاءت دراستنا ناقصة فضلاً عما وقع فيها من خطأ في الحكم، وسوء في الفهم، وفساد في الإستنتاج، وبعد عن الصواب في دراستنا لبعض الظواهر.

فنجد الكتاب حينما يعرضون لشعر أحمد شوقي؛ ويلاحظون ورود كلمات مسيحية فيه مثل: الكنيسة، والدير، والصومعة، والبيعة، والرهبنة، والإنجيل، والتوراة، والمسيح، والعذراء، والبتول وغير ذلك؛ يحكمون حكم الواثق المظتمن لما يقول؛ بأن ورود هذه الكلمات في شعر أحمد شوقي إنما هو أثر من آثار أصله اليوناني المسيحي. وهذا خطأ لا شك فيه. فأحمد شوقي كغيره من شعراء عصره أتخذ شهره وسيلة للدعوة إلى الأتحد بين عنصري الأمة، ونبد الخلاف الديني. ولم ينفرد أحمد شوقي بهذه الظاهرة، بل إننا نجدها عند عبدالرحمن شكري، وأحمد محرم، وأحمد نسيم، وغيرهم من شعراء المسلمين.

أما النقص في دراسة أدبنا السياسي فواضح كل الوضوح، لأن أدب الأكرية الإسلامية كان يختلف اختلافاً تاماً قبل سنة ١٩١٩ عن أدب الأقلية القبطية، كما يتبين ذلك مما جاء في البابين الثالث والسادس من هذا الكتاب.

ولما فكرت في الكتابة عن موضوع الأدب القبطي وضعت نصب عيني أستهداف الحقائق التاريخية لذاتها، وتسجيل المعارك الأدبية

تسجيلاً راعيت فيه الأمانة والدقة. ولم أدخر في ذلك وسعاً، بل بذلت ما في أستطاعتي لإعطاء القاريء صورة واضحة حقيقية للأدب القبطي.

وقد كان تناول هذا الموضوع من بعض نواحيه شائكاً فيما مضى. وأما اليوم فقد تغيرت الأفكار، وتثقت العقول، وتهذبت النفوس، وأستقرت العدالة الاجتماعية ومدت لواءها على جميع أبناء الأمة دون استثناء، وأصبح الناس يعيشون في ظل الإخاء والمساواة؛ لا فرق بين مسلم وقبطي، فالوطن للمجميع. لذلك لم أجد بأساً في تسجيل هذه الصور والخصومات الأدبية قياماً بواجبنا نحو التاريخ، وللتاريخ علينا حقوق ينبغي ألا نتهاون فيها أو نتجاهلها. فعسى أن ينتفع القراء بهذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

محمد سيد كيلاني

القاهرة في أول يناير سنة ١٩٦٢



## الأدب القبطي

من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني

في سنة ٨٥هـ - ٧٠٥ م صدر قرار بنقل الدواوين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية. وبذلك أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في المعاملات الحكومية. فأخذ الأقباط يهملون بالتدريج دراسة اللغتين اليونانية والقبطية، ويقبلون على تعلم اللغة العربية، ودراسة آدابها.

وقد بدأ الأقباط يؤلفون الكتب باللغة العربية في القرن الثالث الهجري. وفي هذا الوقت لم تكن حركة التأليف في مصر الإسلامية قد بدأت على نطاق واسع. بل إن الكتب التي وضعت في القرن الثالث لا تكاد تذكر.

وأول من ألف من الأقباط: سعيد بن بطريق المتطبب (٢٦١-٣٢٨هـ) فوضع كتاباً اسمه «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ويعرف بسير الآباء البطارة، وتاريخ ابن بطريق. ولا شك في أن إقبال الأقباط على التأليف باللغة العربية في هذا الوقت يدل على أن اللغة القبطية قد بدأت في الإضمحلال.

وتدل مقدمة (١) هذا الكتاب على تمكن ابن بطريق من اللغة العربية، وإلمامه بالكتابة الفنية. قال:

«ألهمك الله يا أخي من الأمور البهيّة أحسنها وأوفقها. وصرف عنك من المحزّنات الرديئة أعظمها وأوبقها (٢). وجلك من السّتر أعمّه، وأدام لك من العز أعظمه. وأفاد في الدارين سهمك، وفي الحالين قسّمك. وفهمك جميع ما يُرضيه، ولا أفرزك (٣) من حوله بما تستقصيه».

«فهمتُ ما أمرت برسمه لك؛ أسعدك الله بلبوس الفضيلة، وطهرك من التّرديّ بأطمار (٤) الرذيلة؛ في معرفة التواريخ الكلية من عهد آدم إلى سِنِي الهجرة الإسلامية وبرهنتُ ذلك على مَمَرِّ الشهور والدهور والأعوام، لتستعنى بمعرفته عن سؤالك الخاصّ والعامّ. ورسمت لك أنهج الله أفسح السبيل إلى السعادة وعرفك في كل حين أبلغ العلم والإفادة؛ رسماً وأنموذجاً وكيداً، وجعلته مختصراً مفيداً. ويقدر ما رأيتُه مشاكلاً لعلو نفسك الشريفة، ومطابقاً لذكاء فطنتك العالية المنيفة من الإيجاز والتقريب مما جمعته من التوراة والإنجيل، وباقي الكتب القديمة والمحدثة، وضمنته كتابي هذا، وجعلته أخيراً مطلباً، وأصدق مذهباً».

(١) طبع الآباء اليسوعيين—بيروت سنة ١٩٠٦.

(٢) وبق، كوعد ووجل وورث، وبقا وموبقا: ملك.

(٣) الصواب: فرزك وهي بعى عزلك وأبعدك وقطعك.

(٤) أطمار: جمع طمر، وهو الثوب البالي.

«قال سعيد بن بطريق المتطبب: أول ما نبتديء به حمدُ الله ربِّنا وبارينا، وخالقنا ومحيينا، جل ثناؤه؛ إذ كان حمدُه - تقديس اسمه - مفتاحاً لجميع الكتب والرسائل ونسأله - عز وجل - العونَ لنا على ذلك بجميل عاداته والمجد لله أهل المجدِ ووليِّه، والرَّاجي به شكراً من عباده. مَقَدِّرِ الأشياء من قبل كونها، ومدبِّرها من بعد حدوثها، الذي جعل الرحمة والعدل من سُننِ الحق، وأمر بهما، وجعل الفسق والجور من سبيل الباطل ونهى عنهما، الذي لم يجبر عباده على فعل يتجاوز وُسْعَهُم، ولم يقدِّر على خلقه عملاً تضعف عنه طاقتهم. بل جعلهم لأفعالهم مختارين ولأعمالهم مدبِّرين».

«فالحمد لله المنفرد بالوحدانية، فهو - عز وجل - بجوهره الأبدى، وحكمته القديمة، وحياته الأزلية؛ مستحقُّ الحمد والثناء، ومستوجب المجد والثناء. وإياه أسأل، وإليه أرغب في خلوص نِّيَّاتنا لقبول ما يرضيه، وصرف طويَّاتنا إلى ما يعود إلى العمل بطاعته، ويكسبنا التقرب منه برأفته».

«أما بعد، فإن كل من لم يكن له معرفة بأصل علم من العلوم التي يريد أن يتكلم فيها لينتج منه نتيجة ما يريد، وكانت معرفته أيضاً إنما هي فرع لذلك العلم، لا عن أصل يرجع إليه؛ كان كلامه وإنتاجه هذراً وهديانا، وصار تبعه وعناؤه في ذلك هزلاً ولعباً».

«وقد ضرب سيدنا ومخلصنا في إنجيله المقدس مثلاً فقال: من بنى داره على الرمل؛ فأحقر ريح تمرُّ بها تسقطها، ولا سيلان الماء يهلكها».

فأول ما نلاحظ في هذه المقدمة إطاله التحميد والدعاء على نحو ما جاء في أساليب المسلمين. والحرص على السجع إلا فيما ندر. وأستخدام الجنس، والأستشهاد بأقوال الإنجيل. وأستخدام مصطلحات إسلامية مثل: عز وجل، والمنفرد بالوحدانية.

كما أنه سجل مصطلحات مسيحية ما زالت تجري على ألسنة المسيحيين حتى اليوم مثل: تقدس اسمه، وأفرزك، والمجد لله أهل المجد، سيدنا ومخلصنا، وإنجيله المقدس، وغير ذلك.

كما أن هذه المقدمة تضمنت إشارات فلسفية واعتقادات دينية، مثل قوله: «مقدر الأشياء من قبل كونها، ومدبرها من بعد حدوثها. الذي لم يجبر عباده على فعل يتجاوز وسعهم، ولم يقدر على خلقه عملاً تضعف عنه طاقتهم بل جعلهم لأفعاله مختارين، ولأعمالهم مدبرين» فهنا ترى مبدأ الأختيار وحرية الإرادة. وأن الله لا يكلف عباده فوق ملا يطيقون، ولعل تأثر بآية ٢٨٥ من سورة البقرة وهي «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» فإن عبارته تكاد تكون اقتباساً لهذه الآية.

اشتمل كتاب ابن بطريق على تاريخ مفصل لظهور الديانة المسيحية، والمجامع الكنسية، والاختلافات المذهبية. وتكن بالتفصيل

عن تاريخ بطاركة الإسكندرية والخمس مدن الغربية، وتاريخ أقباط مصر منذ الفتح العربي إلى سنة ٣٢١ هـ وهي السنة التي عين فيها بطيركا على مدينة الإسكندرية.

وأسلوبه في كتابه هذا التاريخ لا أثر للتكيف فيه، فهو فيما عدا المقدمة التي مرت بنا لم يستخدم إلا أسلوباً يسهل على كل أحد، وذلك ليكون في متناول الجميع. ومن العجيب أننا نجد كثيراً من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية. ولا ندري كيف صدر هذا من ابن بطريق مع أن أسلوبه في المقدمة يدل على تمكنه من اللغة ونحوها. فلا يبعد أن تكون هذه الأخطاء نتيجة لجهل النساخ. وعلى كل حال فهذا الكتاب وثيقة لا غنى عنها في دراسة اللهجة المصرية في ذلك العصر.

وقد أعتمد عليه بعض مؤرخي المسلمين فيما كتبه عن الدولة الرومانية الشرقية، كما أعتمد عليه بعض كتاب المسلمين وبخاصة ابن تيمية فيما كتبه في الرد على النصارى.

كان ابن بطريق معاصراً لمحمد بن طفج الأخشيد. وفي أيام توليه بطيركا حدث بين المسيحيين انشقاق كبير بسبب الأوقاف وطمع بعضهم فيها. ومات سنة ٣٢٨ هـ بعد أن ظل في منصب البطيركية ما يقرب من ثمانية أعوام.

وله كتاب اسمه «الجدال بين المخالف والنصراني» أشار<sup>(١)</sup> إليه في تاريخه، وقال إنه صحح فيه مذهب الملكية ورد على من خالفه.

ثم جاء بعده يحيى بن سعيد الأنطاكي الذي أقام بالقاهرة مدة طويلة. فوضع لياً على كتاب ابن بطريق أنتهى فيه إلى سنة ٤٢٥ هـ أي في عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي. وكان يحيى معاصراً للفترة التي أرخ لها. ثم غادر مصر سنة ٥٠٤ إلى أنطاكية وهناك عكف على إعادة تحرير الذيل واستيفاء ما به من أوجه النقص.

وقد أمتاز الأصل والذيل باحتوائهما على أخبار كثيرة عن الدولة الرومانية الشرقية، وما وقع بينهما وبين المسلمين من حروب.

\*\*\*

وفي عصر الدولة الفاطمية ظهر أدياء مسيحيون كثيرون ولكنهم كانوا يسارعون إلى اعتناق الدين الإسلامي ليظفروا بالوظائف الكبرى في ديوان الإنشاء وغيره من دواوين الحكومة. ويؤلفون الكتب الإسلامية تقرباً من الحكام وتأكيذاً لإسلامهم.

وقد حدث في أواخر أيام الدولة الفاطمية؛ حينما احتل أسد الدين شيركوه مصر أن ضيق على النصارى وألزمهم بشد الزنانيير على أوساطهم ومنعهم من إرخاء عذبات العمائم وكانوا يرخونها تشبهاً بالمسلمين. وقد

---

(١) ص ١٧٦.

أستاء النصارى من هذه الأوامر، وعبر عن استيائهم الشاعر النصراني  
زكريا بن أبي المليح مماتي، فتب رقعة رفعها إلى أسد الدين وصدرها  
بالبيتين الآتين:

يَا أَسَدَ الدِّينِ وَمَنْ عَدْلُهُ      يَحْفَظُ فِينَا سُنَّةَ الْمُصْطَفَى  
كَفَى عِيَاراً شَدُّ أَوْسَاطِنَا      فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ كَشْفَ الْقَفَا؟

فلم يلتفت أسد الدين إلى هذه الشكوى، فأضطر الشاعر إلى  
اعتناق الدين الإسلامي. ولما تم له ذلك عين ناظراً على الدواوين.

\*\*\*

وفي عصر الدولة الأيوبية اتسعت الحركة الأدبية بين المسيحيين.  
فظهر أبناء العسال وأصلهم من بلدة «سدمنت» في صعيد مصر، من  
عائلة رجل نصراني اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصري.

وكان لأبناء العسال قصور فخمة بحارة زويلة فيها عيشة طيبة. وقد  
شغل بعضهم مناصب كبيرة في الحكومة، وألفوا كتباً في الديانة المسيحية  
باللغة العربية. وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة  
العربية. وألفوا بعض كتب في الغرض المتقدم على نمط ما عرفوه من  
كتب الدين الإسلامي. ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا بحظ وافر ممن  
الثقافة الإسلامية، وآداب اللغة العربية.

وممن أشتهروا من أولاد العسال: الصفي بن العسال، وله مجموع  
يسمى المجموع الصفوي، وهو كتاب ضخم في فقه المذهب

الأرثوذكسي؛ هذا في تأليفه حذو كتب الفقه الإسلامي فجعله في قسمين:

١- قسم العبادات ويقع في أبواب وفصول. تكلم عن وظيفة البطارقة، والشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يتولى هذه الوظيفة. وهذا الباب يشبه باب الإمامه أو الخلافة عند المسلمين مع اختلاف وهو أن الإمام أو الخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية. أما البطيركية فهي كما عرفها الصفي خلافة مسيحية في الدنيا على حراسة الدين، وسياسة أبناء الطائفة سياسة شرعية روحانية. وتقليدها لمن يقوم بها فرض على المؤمنين واجب بالإجماع، ويدل عليه العقل والشرع.

ويشمل هذا القسم أبواب التعميد، والصلاة، والصيام.

٢- القسم الثاني: في المعاملات كالبيع، والقرض والضمان، والرهن، والكفالة، والعارية، والوصية، والميراث، والهبة، والوديعة، والشركة، وأحكام الزواج والطلاق، وغير ذلك.

وعناوين هذه الأبواب كلها وردت في كتب الفقه الإسلامي. وقد جاء في باب «المبايعة وما يتبعها» في الفصل الأول ما نصه<sup>(١)</sup>.

«١- لا يتم البيع والشراء إلا بإيجاب البائع وقبول المشتري من غير أعتصاب. وأيهما رضى فالآخر بالخيار، إن شاء تمم، وإن شاء

(١) المجموع الصفوي ص ٣٠٦ ط التوفيق بالقاهرة.

فسخ. وإن أفتقرا قبل عقد المبايعة بطلت، أو قبل قبض الثمن وتسليم المبيع فهما بالأختيار ما لم تكن قد تمت بشهادة».

وفي كتاب البيوع في الفقه الإسلامي ما نصه:

«البيع ينعقد بالإيجاب والقبول إذا كان بلفظ الماضي. فإذا أوجب أحد المتعاقدين البيع فالآخر بالخيار؛ إن شاء قبل في المجلس، وإن شاء رده. وأيهما قام من المجلس قبل القبول بطل الإيجاب. وإذا حصل الإيجاب والقبول لزم البيع ولا خيار لواحد منهما إلا من عيب أو عدم رؤية».

وليس هناك فرق كبير بين النصين.

\*\*\*

وللأسعد بن العسال أرجوزة في المواريث نذكر منها:

الشُّكْرُ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْذَاتِ	سُبْحَانَهُ مُتَّكِلِ الْصِفَاتِ
أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَمَا هُوَ أَهْلُهُ	إِذْ فَاضَ بِحَرِّ جُودِهِ وَفَضْلِهِ
أَزِيدَ فِي التَّمْجِيدِ وَالتَّسْبِيحِ	لَا بُنَّ الْإِلَهَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ
أَنْقَذَنَا مِنْ ظُلْمَةِ الْجَهَالَةِ	وَمَنْ جَحِيمِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ

فالأسعد سلك في هذه الأرجوزة نفس الطريقة التي يسلكها المسلمون في نظم الأراجيز، مع اختلاف المعتقدات، وهذا أمر طبيعي.

ومنها:

يا أيها الطالبُ علمُ الشرعِ      في الإرثِ خذ مختصراً من فرع

ومنها في الوراثة:

أولُها البنون والبناتُ      لا فرق، بل هن مُساوياتُ

فالابن يتساوى مع البنت في الميراث عند المسيحيين. وعند  
المسلمين للبنت نصف ما يرث الولد.

والأمُّ مثلُ أحدِ الأولادِ      والأبُّ مثلُ في القياسِ الهادي

وإن مات مَتَّ وله فردٌ وُلدُ      لزوجه الرُبُعُ فعنه لا تحُدُ

\*\*\*

واجتهد أولاد العسال في ضبط ترجمات أسفار العهد الجديد  
مقابلين إياها على اللغات القبطية واليونانية والسريانية والعربية الدارجة،  
وحرروها باللغتين القبطية والعربية. وفي مكتبة البطريكخانة نسخة من  
الإنجيل الذي ترجموه، جاء فيها:

«نسخة للأربع بشائر الإنجيلية محررة بخط العالم الفقيه النبيه  
القس جرجس أبي الفضائل بن لطف الله في سنة ١٦٥٢ للإسكندر،  
الموافقة سنة ١٠٥٧ للشهداء، وسنة ٧٤١ للهجرة، عن نسخة الأصل  
التي حرزها بخطه وضبطها بنفسه الشيخ الرئيس الأسعد أبو الفرج هبة  
الله، وذكر في ختامها أنها مقابلة على القبطي واليوناني والسرياني».

وأشتهر أولاد العسال بجودة الخط العربي، وإليهم ينسب الخط  
الأسعدي الذي أبتكره الأسعد بن العسال.

ومن مؤلفات الصفي: مجموعة خطب دينية أستخدم فيها السجع  
على نظام الخطب الإسلامية، فمنها:

«المجد<sup>(١)</sup> لله المتجلل بأنوار لاهوته التي تفلح حد الصفاح.  
اللابس المجد وعظيم البهاء، المطلق من الأسر السراح، الماشي على  
السحب، المستوي على أجنحة الرياح، الدافع الليل بالنهار والمساء  
بالصباح».

«نحمده حمداً يهدينا إلى شدة في الغدو والرواح. ونشكره  
بالأسنة الفصائح، والعقائد الصحاح. ونتوسل إليه بكرمه فهو معدن  
الجود والسماح، ونرغب إليه بفضله فهو أهل الفضل الأثيل المباح».

«وستشفع إليه بكرامة رسله مفاتيح أقفال صناديق الغيوب، مصابيح  
ظلماء ليالي العيوب، ينابيع الحق التي أجزاها لتطهير القلوب، سهام الله  
التي براها لحياة النفوس لا لقتلها في الحروب».

«أيها المؤمنون بالتجسد والتألم والقيامة والصعود، ونفائس الوجود.  
هذا العيد الذي سرى فيه نجم الخلاص الذي لا يغيب. هذا العيد الذي

---

(١) مجموعة خطب ابن العسال ص ٨ ط رعمسيس سنة ١٩٣٠.

جرى فيه وأدى الكرم الخصب. هذا العيد الذي يحتفل به ذوو الشباب  
والمشيب».».

\*\*\*

وأسلوب الصفى كما نرى يمتاز بالحرص على السجع والجناس،  
وإطالة الفقرات. وقد بدأ خطبته بتمجيد الله وشكره في عدة جمل،  
وأطال في التحميد. ثم توسل إلى الله بكرامة رسله الذين أرسلهم لهداية  
خلقه. وكل هذه السطور الكثيرة مقدمة للدخول في الموضوع، وهو  
التحدث عن عيد القيامة. وقد أسهب في التحدث عن هذا العيد مخاطباً  
الوجدان، محاولاً إثارة المشاعر الدينية، والعواطف المسيحية.

ومن مؤلفات أبناء العسال:

- ١- نهج السبيل في الرد على من قدح في الإنجيل.
  - ٢- الذهب المصفى والسلم المقفى، وهو قاموس في اللغة القبطية.  
ومنه اصطلاح الأقباط على تسمية اللغة القبطية بالسلمي.
  - ٣- كتاب في النحو القبطي.
- ومؤلفات دينية أخرى.

\*\*\*

وقد كانت لهذه المؤلفات المسيحية التي ظهرت في اللغة العربية على أيدي أبناء العسال وغيرهم، والتي أنتشرت وكثر تداولها صدى في بعض الأوساط الإسلامية. قال شرف الدين البوصيري (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ) «<sup>(١)</sup> لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها القول بخلاف ما يدّعونه من ألوهية المسيح ومن صلبه، وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود وما لا يخفي؛ تعرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك، وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت إليه من النصوص التي لا يستطيع النظم ذكرها بلفظها ولا بترتيبها .

ومن أدباء الأقباط الذين ظهوروا في هذا العصر: جرجس بن العميد، ويعرف بابن المكين؛ كاتب الجيوش المنصورة في حكومة الأيوبيين. وله كتاب ضخيم في التاريخ اسمه «تاريخ المسلمين» أو «المجموع المبارك» يقع في قسمين:

١- القسم الأول من بدء الخليقة إلى آخر حكم هرقل أمبراطور الروم.

وقد تكلم فيه بالتفصيل عن ظهور المسيحية وتاريخها، وما حصل بين المسيحيين من اختلافات.

٢- والقسم الثاني يشمل تاريخ المسلمين من بدء الإسلام إلى

(١) ديوان البوصيري ص ١٢٨ و ١٢٩ ط. مصطفى الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٥٥.

أول حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ.

وقد جاء في مقدمته<sup>(١)</sup>:

«الحمد لله الأزليّ، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. الإله الواحد الذي لا يعلم له كيفية، ولا تدركه العقول البشرية. إله الآلهة، ورب الأرباب. منشيء أجناس الحركات وأنواع الأسباب. خالق كل الموجودات، وموجد كل الكائنات. المعظم من جميع الخلوقات، المقدس من سائر اللغات. المتعالى عن وصف الحدوث والابتداء، المنزه عن قبول العدم والفناء، والغاية والانتهاء.»

«أحمده على ما أنعم وأولى، وأسأله العفو والعافية في الآخرة والأولى» هذا هو أسلوب ابن العميد في المقدمة فقط. أما أسلوبه في سائر كتابه فيمتاز بالإهمال الشديد.

ولهذا التاريخ ذل وضعه المفضل بن أبي الفضائل وسماه «المنهج السديد، والجر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد» أنهى فيه إلى سنة ٦٩٦ هـ.

ولأبن العميد كتاب اسمه «الحاوي» يتضمن دفع اعتراضات على الدين المسيحي وما أشكل من آيات كثيرة في الإنجيل.

(١) صورة شمسية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٠١ تاريخ.

ومن مؤلفي الأقباط في ذلك العصر: بطرس أبو شاكر، ويعرف بابن الراهب وله كتاب في التاريخ اسمه «تاريخ ابن الراهب» وهو سجل بأسماء بطاركة القبط المصريين من بدء ظهور المسيحية في مصر إلى سنة ٦٥٧ هـ وفيه ملخص لما جرى في أيام كل منهم من الحوادث. ولهذا الكتاب ذيل ينتهي إلى سنة ٧٠٦ هـ.

\*\*\*

وابن كبر، وهو شمس الرياسة أبو البركات المتوفي سنة ٧٢٥ هـ كان كاتب الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري؛ أحد مماليك المنصور قلاوون. ثم ترك الكتابة حوالي سنة ٧٠٠ هـ وأشتغل بخدمة الدين، وسكن بمصر العتيقة في درب يحمل اسمه.

كان ابن كبر واسع الاطلاع على التاريخ والأدب العربي وعلوم اللغة العربية. وله مجموعة خطب دينية جاء في إحداها:

«الحمد لله الذي رَصَعَ كُتَّافِ الخواطرِ الهُولانيةِ بلطائفِ الجواهر العقليةِ. وادخر لؤلؤَ أنوارهِ في أصدافِ البشريةِ، ونورِ أولى أسراره بأوصافه القدسيةِ. وأجرى أنبائه على ألسنِ أنبيائه، وأماط حجاب الخفاء عما أجراه بواسطة أوليائه. وحلّى الكتب الشرعية بياقوت حكمه الشريفة، وجلّى الحجب الطبيعية عن مظاهر نعمه اللطيفة».

«نحمده حمداً ينقذنا من سبيل الضلال الجارف، ويرشدنا إلى منهاج الإقبال والمعارف».

«معاشر الناس: هُبُّوا من رقدكم التي طال عليها الزمان حتى تسلكوا بتوفيق الله جادة الأمان. وانهضوا من وُغُور الظلمة الهَيُولانية، وخوضوا بحور الحكمة الربانية بأقدام الأفهام، واهتمام المرام؛ لتقفوا على سائر رموزها السَّنيَّة، وتغترفوا من ذخائر كنوزها السماوية التي سكبت نيل مكارمها على خلقتها المحسوسه، وسحبت ذيل مَراحمها على جِبَلِّتها المدروسة».

\*\*\*

وله من خطبة في عيد العذراء:

«الحمد لله الذي أثار بأنوار الحكم مصابيح العقول، وكشفَ عنها أستار الظُّلم فعضرفتْ سرَّ العقل والعافل والمعقول. الذي تنزّه بالعزة القدسية من الأجناس والأنواع والفصول. وتقدس بسُلطان الأحدية عن شابهة الموضوع والمحمول. الذي أطلعَ شمس البرّارة من مشرق سيدة النساء الطاهرة البتول. ودَرَّع اللمة الإلهية هيكلًا إنسيًّا أظهره العالم الكَوْنِيَّ على هيئة الرسول».

«نحمده حمداً يقوده رائد التوفيق إلى أبواب القبول، ونشكره سرمداً على إيلاء الآلاء الصافية الأهداب والذُّيول» ألخ...

وهذه الخطب تشبه في أساليبها الخطب الإسلامية كما مر بنا عند الصفي بن العسال. تفتتح بحمد الله في عبارات كثيرة يظهر فيها الحرص

على السجع والجناس. وتمتاز خطب ابن كبر باحتوائها على مصطلحات فلسفية ومنطقية مثل الموضوع والمحمول، والهيولانية، والجواهر العقلية.

وإذا كان المسلمون في خطبهم يحرصون على توحيد الله في ذاته وصفاته، متمسكين بهذا التوحيد، متشددين فيه؛ فإن هذه الخطب المسيحية حرصت كل الحرص على تسجيل عقائد أصحابها في حلول اللاهوت في الناسوت، وموضوع التجسد، والصلب، وقيام المسيح وسموده إلى السماء، وغير ذلك من آرائهم ومعتقداتهم.

وكان بطريك الأقباط لا يستطيع أن يزاوِل عمله بصفة رسمية إلا بعد أن يحصل على تقليد من السلطان باعتماده في منصبه. وهذه صورة تقليد صدر من أحد سلاطين المماليك سنة ٧٦٤ هـ لبطريك الأقباط الأرثوذكس.

«...»<sup>(١)</sup> ولما كان الحضرة السامية؛ القديس المبجل الجليل المكرّم، الموقر الكبير الدّيّان، الرئيس الروحاني الفاضل المؤتمن جرجس ابنُ القس مفضل اليعقوبي؛ عمادَ بني المعمودية، وكنز الأمة المسيحية؛ مُنتخب المِلّة الصليبية، ركن الطائفة النصرانية، اختيار الملوك والسلاطين؛ أطال الله بهجته، وأعلى على طائفته درجته؛ قد حاز من فضائل مِلّته أسماها، وصعد من درجات الترقّي على أبناء جنسه أعلاها. فنزّه نفسه عن مشاركة الناس، وتكشف بين أهله في المأكّل والملبس.

(١) صبح الأعشى ٢ سنة ١٧٥. ط دار الكتب المصرية سنة ١٩١١.

وترك الزواج والنكاح. وأشتغل بعبادته التي لازم عليها في المساء والصباح. وألقى نفسه إلى الغاية في الأطراح. وساح بخاطره في الفكرة وإن لم يكن بجسده قد ساح. وارتاض بترك الشهوات مدة زمانه، وأطرح الملاذ لتعلو درجته بين أهله برفعة مكانه. وأشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر، وعرف من أوامره ونواهيهم ما يَقَرُّ به منهم العين والناظر.

وطلب من الرب الرءوف الرحيم القوة على أعماله، وسأل الإله أن يزين لأهل مَلْتِه ما يأتي به من أقواله وأفعاله. فوقع اختيارهم عليه، وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه.»

«فرسم بالأمر الشريف لا زال إحسانه إلى سائر العالم واصلاً، وجوده لكل طائفة بارتياح أكفائها شاملاً.»

«إن يُقَدِّم حضرة القديس المؤمن جرجس المشار إبيع على الطائفة البيعقوية من الملة النصرانية بالديار المحروسة، والجهات الجاري بها العادة. ويكون بطيركا عليهم على عادة من تقدمه في ذلك، ومستقرّ قاعدته إلى آخر وقت، قائماً بما يجب عليه من أمور هذه الملة، اذلاً جهده في سلوك ما ينبغي مما ينظم عليه أمره كله، فاصلاً بينهم بما يعتقدون من الأحكام، متصرفاً على كل أسقف وقسيس ومطران، في كل نقض وإبرام.»

«وَلِيَجْعَلْ أُمُورَ أَهْلِ طَائِفَتِهِ مِنَ الْمَهْمَاتِ لَدَيْهِ، وَلِيَشْفِقَ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَلِيَتَنَزَّهُ عَنِ قَلِيلِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَالكَثِيرِ. وَلِيَزْهَدَ فِي الْجَلِيلِ قَبْلَ الْحَقِيرِ. وَفِي إِطْلَاعِهِ عَلَى أَحْكَامِ دِينِهِ مَا يَكْفِيهِ فِي الْوَصِيَّةِ، وَمَا يَرْفَعُهُ بَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ».

وهذه التقاليد وإن كانت صادرة من جهات من جهات إسلامية إلا أنها تدخل في دائرة الأدب القبطي، لأنها تناولت بعض الشئون القبطية.

\*\*\*

وكان البطريرك يتخذ لنفسه خاتماً ينقش عليه عبارة دينية مثل «يا الله، الخلاص» ويصدر التقاليد بتعيين المطارنة والأساقفة والقساوسة. وهذه صورة تقليد صدر من الأنبا بطرس السابع المتوفي سنة ١٨٥٢ م لأنبا إبرام أسقف كرسي منفلوط. ولم نعر على تقليد قبل هذا التاريخ.

«بِسْمِ (١) اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ. يَا اللَّهُ الْخَالِصَ.»

«سَلَامُ اللَّهِ الْقُدُّوسِ الَّذِي يُتَوَجَّعُ الرَّؤُوسِ، وَيَغْذِي صَغِيرِي النُّفُوسِ، وَيُسَبِّغُ حُلْلَ الْمَجْدِ عَلَى قَابِلِيهِ، وَيَتَزَعُ عَنْهُمْ لِبَاسَ الْبُوسِ.»

«السَّلَامُ الَّذِي خَصَّ بِهِ الرِّسَالَ الْقَدِيسِينَ، وَالتَّلَامِيذَ الْمَبْشُرِينَ، وَهُمْ بِعِلِّيَّةٍ صَهْيُونَ مَجْتَمِعِينَ، يَحُلُّ عَلَى جَمَاعَةِ الْأَوْلَادِ الْمَبَارِكِينَ، الْأَحْيَاءِ الطَّائِعِينَ، الدِّينِيِّينَ الْأَرْثُوذَكْسِيِّينَ، الْقِمَامَصَةَ الْمَدْبُرِينَ، وَالْكَهَنَةَ

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية لتوفيق اسكاروس ١٤٥/١ ط المحيط بالقاهرة سنة ١٩١٢.

المؤمنين، والممامسة المكرمين، والأراخنة المبجلين، والخولا والفلاحين،  
وأصحاب الصنائع أجمعين وكافة الشعب المسيحي بكرسي منفلوط،  
وكامل ما يليها من القرى والبلاد.»

«نعلمهم- جدد الله البركات الروحانية عليهم- وهو أن الواصل  
إلى عندكم أخونا الحبيب، الفاضل اللبيب، وهو أسقف عليكم وصار له  
السلطان من قبل النعمة التي نالها من الروح القدس إليه، أن يحل ويربط،  
ويكرز الكنائس الجدد والهياكل، ويقسم الكهنة والقسوس والشمامسة  
مجاناً كما أخذ مجاناً. ويعمل جميع ما عمله الأساقفة أمثاله.»

«وهو أبوكم وراعيكم، ورئيسكم ومدبركم في ناموس الله كما يرضى  
الله. وله السلطان؛ يتصرف في كرسية كما يريد بخوف الله تعالى؛ بعلمه  
ودينه وفضله. ولينظر في تدبير المصالح الروحانية اللائقة من المطلوب  
منه بحسب القوانين الرسولية القائلة للأساقفة: ارعوا رعية الله بالمخافة  
والرهبة، كما تسلم من روح القدس المعطاة لكم.»

فعند حضوره إلى عندكم مصحوباً بمسك السلامة؛ تبادرون أنتم  
الجميع في استقباله وخدمته وطاعته. وتبدلون له الطاعة الكلية، والمودة  
الحقانية. وتعاملونه كالأب بالمحبة الروحانية. ولا تخرجوا عن كل ما  
يشير به من القوانين الشرعية.»

«وتحافظون على الأصوام المفروضة، والصلوات المنصوصة،  
والقداسات المرفوعة، والسهرانات بالتراتيل المسموعة، والصدقات على

محاويجكم بقدر طاقتكم. ورفع القرابين من بكوركم وثمار غلاتكم. وتحافظون على طهارة النفس والجسد والقلب؛ فإنه بغير الطهارة لا يعاين أحد مجد الله».

«وتعتمدوا على الصوم والصلاة في أوقاتها المفروضة؛ فإنها سراج الأستارة. ولا تخرجوا عن كل عمل صالح، مسعى روحاني عن رأي أبيكم الأخ المشار إليه ولتكونوا له في المعاونة مستمرين بالدعاء مبتهلين، وعلى خدمته بالنصح مشتملين، وعلى سماع وعظه غير متبرمين. ولتجنبوا الأفعال الشعنية، والأعمال التي لا تجيزها الشريعة، والزيجات المحرمة الممنوعة».

«وليكن اجتماعكم في البيعة بروح طاهر، وقلب واحد، لكي لا يوجد فيكم مؤاخذ لأخيه ولا واجد. ولا يتأخر واحد منكم عن ملازمتها، لأن البيعة عامود الحق وأساسه، وفيها تهزم جيوش العدو وتكسر أتراسه. فمن تأخر عنهما عمداً يصير لسهام المحارب هدفاً، لأنه لم ينضم لبيت الله ولم يتخذة كنفاً».

«ولا يجب على أحد من النصارى أن يجذب رفيقه إلى دار الولاية، ويقصد إضراره بحيف أو سعاية. ولا يتعدى أحد في أرض المزارعة ولا يستحس الرنا والمخاصمات والمنازعة».

«وقد توخينا الاختصار خشية من الملل والإضجار، وعوناً على أبيكم القادم عليكم إن شاء الرب واختار أن يروي عطشكم من ينابيع

تعاليمه الروحانية، وهو يشكر الله بذلك، وقادر بمعونة الله سبحانه أن يرفعكم من الانحطاط إلى المراتب الطوبانية».

\*\*\*

فلاحظ أن هذا التقليد أو المنشور قد بدأ بالدعاء لأفراد الطائفة القبطية على اختلاف مراتبهم. وأخبرهم أنه عين لهم مطرانا لرعاية مصالحهم، والسهر على ما فيه خيرهم ووصاهم بطاعته واحترامه.

ثم أخذ يعظهم ويرشدهم، ويحضهم على الاستقامة والتمسك بأهداب الدين من المواظبة على القيام بفرائضه من صلاة وصيام، وإحسان إلى الفقراء. وحثهم على مداومة الاجتماع بالكنائس وأداء الصلوات في أوقاتها. وطلب منهم أن يتآخوا فيما بينهم، وأن يحب بعضهم بعضاً، ويتركوا الكذب والوشاية والنميمة، والأمور الذميمة.

ويميل أسلوب التقليد إلى السجع أحياناً، ولكنه على العوم حرص على سهولة العبارة ليفهمها عامة الناس إذا ما تلى عليهم في الكنيسة.

\*\*\*

ولم يصلنا شيء من الأدب القبطي في خلال العصر العثماني، مع أن هذا العصر كان بالنسبة للأقباط خيراً من عصر المماليك. فلذلك ترانا مضطرين إلى الانتقال إلى العصر الحديث.

### الأدب القبطي في العصر الحديث

كان الأقباط يتلقون مبادئ العلوم في كتاتيب خاصة بهم يديرها عرفاء. وكانت هذه الكتاتيب التي لبثت حتى العصر الحديث تتخذ بجوار الكنائس، أو في منزل العريف. ولم تكن تختلف عن كتاتيب المسلمين. وكان الصبيان يتلقون فيها مبادئ الدين، ويحفظون جانباً من الإنجيل، ويتلقون مبادئ الحساب.

وأما الذين يريدون مواصلة التعليم فكانوا يدرسون الأدب العربي، والنحو والمنطق، والعروض على أساتذة من المسلمين. وليس هناك ما يثبت أنهم كانوا يحضرون حلقات الدروس في المساجد مع المسلمين. قالت صحيفة الوطن (٣-٥-١٩١٦) «ويذكر متبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديماً رواق بالأزهر المعمور؛ يتلقى فيه أبناءهم العلوم المنطقية والشريعة، إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة».

«وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديماً، وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن، ووهبي بك تادرس، وغير هؤلاء كثيرون».

وذكرت الصحيفة المتقدمة في ١٤ - ٢ - ١٩١٤ تحت عنوان «الأقباط في الأزهر» ما نصه: «يتردد كثيراً على حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول في الأزهر جماعة من إخواننا الأقباط. وقد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق المنطق، والنحو، والصرف، والبيان، والبديع، والهيئة، والجبر».

وإذا مان من الثابت حقاً أن بعض الأقباط قد درسوا في الأزهر في العصر الحديث، إلا أن ذلك لم يثبت بالنسبة إليهم فيما قبل هذا العصر. نعم، إن المذهب الحنفي لا يمنع من ذلك، ولكن كتب التاريخ لم تذكر شيئاً عن دراسة الأقباط في المعاهد الدينية الإسلامية، ولم ينقل إلينا أحد خبراً عن وجود رواق للأقباط بالأزهر. حقا إن ثقافة أبناء العسال ثقافة عربية إسلامية، ولكن لم يذكر أحد منهم أنه درس في معهد إسلامي، لا في الأزهر ولا في غيره. فلعلهم أخذوا هذه الثقافة في منازلهم.

\*\*\*

ومن الذين درسوا في الأزهر في العصر الحديث: ميخائيل عبد السيد. ألتحق بالأزهر، ولما أنشئت مدرسة دار العلوم أنتقل إليها ودرس مع طلبتها جنباً إلى جنب. ودرس من علوم الدين الإسلامي: فقه المذهب الحنفي.

وكذلك درس في الأزهر: جندي إبراهيم الصحفي المشهور الذي انتقلت إليه ملكية صحيفة الوطن بعد أن تخلى عنها ميخائيل عبدالسيد. وقد التحق بالأزهر تحت اسم «الشيخ إبراهيم الجندي» فأمضى سنة تلقى فيها النحو، والصرف، وآداب اللغة.

وممن درسوا بالأزهر: تادرس وهي الشاعر المشهور، ولم يعرف بين أدباء القبط من تأثر بالثقافة الإسلامية مثل تادرس وهي. لقد حفظ القرآن وفهمه فهماً جيداً، وكان يكثر من الاقتباس من الآيات القرآنية، والإشارة إلى الأحاديث النبوية.

وفرنسيس العتر الذي كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده مساء كل يوم. وقد رحب به الشيخ وأذني مجلسه، وكان ذلك سنة ١٩٠٢ م.

\*\*\*

ولما أنشئت المدارس الحكومية ومدارس الإرساليات الأجنبية أقبل الأقباط على الالتحاق بها. وأفتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة قبطية في مدينة القاهرة سنة ١٨٥٣ م. وقد حاول العرفاء أن يقاوموا حركة افتتاح المدارس القبطية لأنها ستقطع عنهم مورد رزقهم؛ فطافوا بالمنازل وأخذوا يحرضون الآباء على عدم إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس. وذكروا أن الحكومة ستأخذ أبناءهم من المدارس وتجندهم في الجيش وترسلهم إلى ميادين القتال. ولما شعر الأنبا كيرلس بحركتهم هذه استرضاهم بأن عينهم في وظائف التدريس بالمدرسة القبطية. فكانوا

يُدرسون الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، ويُدرسون الدين لجميع التلاميذ.

ثم أخذت المدارس القبطية تنتشر في جميع جهات القطر. وظهرت مدارس التوفيق القبطية، ومدارس ثمرة التوفيق، ومدارس الإيمان، والإخلاص، والمحبة وغيرها. وأمتد هذا النشاط العلمي إلى ربوع السودان.

وكانت هذه المدارس تقيم الاحتفالات في مناسبات شتى. فتارة تحتفل بعيد الميلاد، ومرة تحتفل بعيد القيامة، وآونة تحتفل بآنتهاء العالم الدراسي. وفي هذه الاحتفالات تلقي الخطب، وتنشد القصائد، وتمثل الروايات، وتردد الأغاني والأناشيد. فكانت من عوامل نهضة الأدب القبطي.

مثال ذلك قول عياد بشاى في حفلة مدرسة الأقباط بفاقوس «الوطن ٢ - ١٢ - ١٩١٣».

يا عِلْمُ شَرَّفْتَ الدِيَارَ وَأَهْلَهَا	لَكَ أَلْفِ أَلْفِ مُؤَارِرٍ وَمُنَادِي
يا عِلْمَ هَدَّبْ نَشْأَةَ عَصْرِيَّة	تُحْيِي لِمَصْرَ حَضَارَةَ الْأَجْدَادِ
كنا نساقي إليك رغم أنوفنا	فإذا بنا من أشوق الرُّؤَادِ
إننا لفي زمن تقدم طفله	أشياخه في العلم والإرشادِ
إن ارتقاء الشعب في مجموعته	وسعادة المجموع في الأفرادِ

وقال نصر لوزا الأسيوطي بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً  
على إنشاء كلية الأمريكان بأسيوط سنة ١٩١٥ من قصيدة طويلة:

أحييتِ يا دار علم مَيّتَ سؤددنا      فأنتِ في مصر مثلُ الرُّوحِ في الجسدِ  
وأنتِ في كل أدوار الحياة لنا      أحنى على القطر من أمّ على ولدِ  
أبليتِ خمسين عاماً غيرَ وانيةٍ      ولا تزالين في أعوامك الجُددِ  
أبلياتِ خمسين عاماً كلهنَّ هُدًى      وسوف تُبْلينَ أعواماً إلى الأبدِ  
أبليتِ خمسين عاماً كنتِ قاهرةً      فيها الصعابَ بجيش العزم والجَلدِ  
الخ....

\*\*\*

وكانت بعض الجمعيات الخيرية القبطية تقيم أسواقاً للإحسان تباع  
فيها ما تنتجه المشاغل والملاجيء من صناعات يديوة، ومن رسوم لبعض  
المناظر الطبيعية والمشاهد الدينية وغير ذلك. وكان شعراء الأقباط  
وكتابهم يبذلون جهدهم في الدعاية لهذه الأسواق، وترغب الأغنياء في  
الإقبال عليها، والتبرع لها حتى تستطيع أن تؤدي رسالتها الإنسانية  
السامية. مثال ذلك قول نصر لوزا الأسيوطي في سوق من هذه الأسواق.

أهلاً بسوقِ البرِّ والإحسانِ      لكِ بيننا يومٌ عظيمُ الشَّانِ<sup>(١)</sup>  
سوقُ تُباعِ الصالحاتِ ويُشترى      فيها الثوابُ بأبخسِ الأثمانِ

(١) الوطن في ١٩١٤/٣/٧.

غُرِضَتْ بِسَاحَتِهَا الْمَرْوَةُ وَالتَّدَى  
ومحبةُ الإنسان للإنسانِ  
سوق بها الشاري يثوب وريحه  
فعل الجميل وراحةُ الوجدانِ  
سوق على رأس الهدى ذلاً لها  
داعي الصلاح وصادق الإيمانِ  
لله دَر القائمين بها إذا  
وقفَ الأنامُ بحضرةِ الدِّيَانِ

إلخ....

وهذا كاتب يدعو إلى تشجيع هذه السوق فيكتب تحت عنوان  
(<sup>١</sup>): «لله أنت يا سوق» فيقول:

«لله هذه الأيادي البيضاء التي تمتد في كل يوم لإنعاش نفس  
الفقير. لله تلكم النفوس العالية لا تبيت إلا على تخفيف الشقاء عن  
عواهل البؤساء».

«لله سوق تفتح أبوابها في هذا النهار ليدخل إليها أنصار الإنسانية  
ورجال الخير، ترفع الغطاء عن محتوياتها لتجذب إليها نفوس الأجواد،  
وتستندي أكفهم السخيفة».

«لله سوق قامت لخير البائسين، وشيدت من أيدي الكرماء. هذا  
يوم تفتح فيه أبواب السماء لتسمع صوت الفقير يرفع أكف الضراعة  
إلى العزة الإلهية لثيب الخيرين على خيراتهم، وتستنزل البركة والرحمة  
على قوم قد دفعتهم أريحياتهم، وهزهم كرمهم لزيارة سوق الإحسان».

(١) الوطن في ١٢/٣/١٩١٤.

وكان من أثر ظهور الدعوة إلى تحرير المرأة أن وجه الأقباط عناية كبرى على تعليم البنات، وأصبح هذا الموضوع الشغل الشاغل لشرائهم وكتابهم. فتظموا القصائد الطويلة، وحرروا المقالات لحث الهمم، وإنهاض العزائم لفتح المدارس المجانية لتعليم أمهات المستقبل.

وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت كلية البنات الأمريكية الكائنة بشارع رمسيس بالقاهرة؛ فظهرت بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية فكرة إنشاء كلية قبطية للبنات. وكانت هذه الطائفة تخشى على بناتها أن يعتنقن مذاهب المدارس الأجنبية التي يتعلمن بها، ويتركن مذهب آبائهن. وفي هذا خطر عظيم يهدد تلك الطائفة لذلك شمر أدباؤهم عن سواعدهم للدعاية لهذا المشروع، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ويلقون فيها الخطب والقصائد حاثين على التبرع للمشروع الذي أنتهى بإنشاء كلية البنات القبطية بالعباسية. وقد أفتتحت سنة ١٩١٦، أي بعد ثمانية أعوام من ظهور هذه الفكرة. ولما كانت الدعوة إلى إنشاء الكلية المذكورة جاءت في نفس الوقت الذي قامت فيه الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية؛ فإن الأقباط لم يهتموا بهذه الجامعة، وشرعوا في تأليف لجان تطوف بالأقاليم لجمع التبرعات لكليتهم. قال نصر لوزا في الدعوة <sup>(١)</sup> لهذا المشروع من قصيدة طويلة:

قد صار فرضاً على شبانا النَّحْبِ  
أبناؤها مثلما يحتاج خيرُ أبِ

العلمُ فرضٌ على الجنسِ اللطيفِ كما  
الأُمُّ تحتاجِ علماً يَسْتَضِيءُ به

(١) الوطن في ٢٣/٥/١٩١٢.

تعلم الطفل ما يحلو من الكتبِ  
يجشو لها كل مخلوق غلى الركبِ  
إلا بكليسة فزاجة الكُربِ  
أقصى المرام وما نرجو من الرُتبِ  
بالنظم والنشر، والأشعار والخطبِ

رئُوا الفتاة ترؤوا أمأ مهذبة  
البت إن هُذبت صارت لنا ملكا  
لا يستقيم مدى الأيام حالكم  
كلية لبنات العصر تُبلغنا  
دعا لتأسيسها قوم غطارفة

وقال من قصيدة (١) أخرى:

لهنَّ بناء للعلوم مُشيداً  
أتموا لنا بالمال هذا المهدداً  
وقد صاح دوماً أن يشيد معهداً  
غداً تتركون الكنز والمال للصدأ  
بخلتك على جرحي الجهالة زقداً

دعا بكمُ الدُعون حتى تؤسسوا  
هُم مهذوا المشروع بالرأي والحجا  
فياويحنا إن قيل ما أسطاع جمعهم  
فلا تبخلوا يا قبط بالمال إنكم  
نجدتم مجاريح الحروب فمالكم

وقال فخر سليم بحار (٢) من قصيدة:

قومي فأنت منارة الظلماتِ  
ويئن محروناً من الحسراتِ  
ويواصل العبرات بالعبراتِ  
في مصر أضحي عللة العلاتِ  
فيها وخالط غالب الطبقاتِ  
يقضي على الأقباط بالنكاتِ

يا بنت خفرع والعالا يرنو لها  
قومي أنظري فالنيل يذرف دمعه  
بيكي على الجنس اللطيب وما به  
بيكي على أم البنين وحالها  
هيا أنشطى فالجهل داء قد فشا  
والجهل داء كالبلاء مروّع

(١) الوطن في ١٩١٣/٥/٢٨.

(٢) الوطن في ١٩١٣/٣/١٩.

إلخ...

وقال بسطا بشاى<sup>(١)</sup>:

أروي حديثاً به درسٌ لمغتم

لأمة القبط ذاتِ الفهم والشمم

ومنها:

عنها حوادثٌ كانت برّحت بهم  
فإنهم قارنون اجودَ بالخدم  
تريّن أسيوط قد قامت على قدم  
يُرى التّضار به ينهال كالديم  
ومن سخاء ومن فض ومن شم  
تسيل أنهار جود من أكفهم  
بالفضل منتدب للبدل معتزم  
بالجهد مما حياه الله من نعم  
فدونكم حلية الإحسان والكرم

إنني لأعلم أن القوم أشغلهم  
أما وقد زالت الأسباب وانتهوا  
وبعد بضعة أيام تمر بنا  
هناك تغدقُ سحبُ الجود في أفق  
فكم بأسيوط من وجود ومن كرم  
ومثلها مصر كم فيها بحورٌ ندى  
وفي الأقاليم كم من محسن كلف  
وهكذا كل قبطي يجود لها  
معاشر القبط إن تبغوا حياةً علماً

وكانت هذه الدعوى تتضمن حملات عنيفة على الأغنياء، وتنسب  
تأخر تنفيذ مشروع الكلية إلى بخلهم وشحهم، أو إلى إيثارهم الإنفاق في  
سبيل ملذاتهم الخاصة على موائد الخمر والميسر، أو على النساء. وقد  
انتقد بعضهم هذه الحملات فكتب يقول<sup>(٢)</sup>:

(١) الوطن في ١/٢٧/١٩١٣.

(٢) الوطن في ٣/١٧/١٩١٦.

«تقريع أغنياء الطائفة وسبهم وتحقيرهم والتشهير بهم عند كل مناسبة، ونسبة تأخر كل مشروع إلى بخلهم، وقد نالهم شيء من ذلك لمناسبة مشروع كلية البنات».

«وأستطيع أن أقول إن بعض هؤلاء الشتامين قد يكونون مخلصين، ولكنهم ليسوا أبداً منصفين. فإنهم حسبوا الشتائم دواء ناجعاً لداء البخل الذي يصفون به أغنياءهم، ولكن ساء فعلهم لأنهم بالرغم من تجربتهم هذا الدواء عدة أعوام»

وتأكدهم من عدم نفعه، لم يقلعوا عنه ولم يجربوا دواء خلافه. بل تبادوا ونطوحوا إلى أن قال بعضهم على رءوس الأشهاد: تعالوا نضع على باب الكلية لوحة نكتب عليها: «لتخجيل الأغنياء والكبراء». فمن تقريع الأغنياء قول نصر لوزا<sup>(١)</sup>:

هذا البناء ولم تصفوا إلى الطلب  
للصرف في الخير لا في اللهو واللعب  
مدى الدهور سوى الإحسان للعقب  
على الخلاعة بين الكاس والحب  
من شدة الحرص في ألف من الحجب  
أفعالهم في العطايا همّة العرب  
لا أبصر اليوم أعمالاً سوى الصخب  
ترفع نباتكم من وهدة العطب

بُحَّتْ من الحث أصوات الألى طلبوا  
أعطى لكم ربكم مالا لينفعكم  
المال فإن ولا يبقى لصاحبه  
لا أسألن الذي ضاعت دراهمته  
ولا البخيل الذي أمواله وضعت  
وإنما أسأل الأخيار من بلغت  
كلية العمل نادت وهي صامتة  
يا قبط إن ترفعوا فيها دعائمها

(١) الوطن في ٢٣/٥/١٩١٣.

لا تنظروا نحوها إلا بعاطفة مألوي من الصدق، لا بالشك والريب

لما فكر الأقباط في هذا المشروع سنة ١٩٠٨، قدر المال اللازم له بعشرين ألف جنيه. وقد بلغ جملة ما حصلوه حتى سنة ١٩١٢ مبلغ ٤٥٠٠ جنيهاً مع أنهم كانوا يملكون<sup>(١)</sup> في ذلك الوقت خمس ثروة مصر من الأراضي الزراعية والمباني. كانوا يملكون نحو مليون ونصف مليون فدان تقريباً، ونحو ٣٠٠ ألف بيت. هذا غير ما كان لهم من مئات ألوف الجنيهات في المصارف.

قال رمزي<sup>(٢)</sup> تادرس مؤلف كتاب «الأقباط في القرن العشرين»:

«على أن هذا الغني العظيم الذي تتخذه الأمم دليلاً على النجاح والإصلاح والرقي؛ أصبح من عوامل التأخر والأنحطاط بيننا، لأن السواد الأعظم من أغنائنا أو قل كلهم لا يهتمهم ارتفت الأمة، أو تأخرت، عاشت أو ماتت ما داموا في رخاء وعيش رغيد. زد على ذلك أن بعضهم يبذل الدنانير الصفراء على مائدة الخمر، أو على بنات الهوى، أو على طاولة الميسر، ولا يمد يده بدرهم واحد لصالح أمته. ولا يغرنك ما نسمعه عن الذين يتبرعون منهم بالمال لتشديد صروح العلم وإقامة المستشفيات، ومساعدة الجمعيات الخيرية؛ فإنهم - سامحهم الله - يتبرعون قولاً حياً في إحراز الشهرة الذاتية، ويضنون فعلاً بما يجودون

(١) (٢) الأقباط في القرن العشرين ج ١ ص ١٧٤-١٧٦ ط جريدة مصر سنة ١٩١٠.

قولاً».

وقال «اللهم حنانيك بنا ورفقنا، أماتت العاطفة الكريمة التي أودعتها في صدورنا للعطف على الفقير، والرفق بالضعيف، والأخذ بيد الصانع والعامل والنابع؟ أماتت تلك العاطفة التي كان يتبارى فيها أجدادنا مباراة خلدت لهم ذكراً، وأبقت لهم عملاً حسناً؟ نعم! ماتت وذهبت، ولم يبق لنا بعدها إلا التأسى والذكرى».

«ولا يشك واحد بينكم في موت تلك العاطفة، وأروني غنياً من أغنيائنا الذين يتفاوت ريعهم السنوي بين خمسة آلاف وأربعين ألفاً من الجنيهات بسطيده كل البسط في مشروع خيري. بل أروني رجلاً واحداً صرف من ريعه ألف جنية في أي مشروع مع أنه لو صرف هذا المبلغ لما تغير نظام معيشته، ولما تحول هناؤه وغناه إلى فقر. إنكم لن تجدوا هذا الرجل».

«وضعوا أنفسهم موضع القادة للأمة، فأروني أي عمل أنجزوه غير تراحمهم على الرئاسة؟ وغير تقاتلهم على تضحية الأمة في سبيل أمانهم وإثرائهم؟ فقوموا وقولوا لهم: إن لنا نصيباً وافراً مما تملكون. إن لنا عليكم حقوقاً يجب أن ننالها عفواً أو قسراً. بل قوموا واصرخوا في آذانهم بأصواتكم العالية لعلهم يسمعون. بل قوموا لتعلموهم - إن كانوا لا يعلمون - بأن بقاء سبعة أعشار الأمة في الفقر والجهالة وعدم القدرة على تدبير شئونها مما يؤخر الثلاثة الأعشار مهما كانت مرتقية ومتحضرة».

«قوموا وقولوا لهم: إن من الحرام في شريعة الله وشريعة الإنسانية أن تقفوا أيها الأغنياء سداً منيعاً في وجوهنا. فلا أنتم تعلمون لصالحنا، ولا أنتم تتركونا نعمل بأنفسنا وقوة نوابغنا وعقلاننا للمحافظة على كاتنا ومستقبلنا. قوموا وأطلبوا من الصحف أن لا تكبر وتمجد فيهم إلى درجة الألوهية ليعلموا أن الغنى هو من ضحى حياته وماله لخير أمته، سلماً يصعد عليه إلى جبل الذهب وهيكل الفضة».

«علموهم أن أغنياء الأمم الأخرى يهبون أموالهم لأمتهم ووطنهم وهو ثمرة جهادهم الطويل. علموهم أن يتركوا أموالهم لأمتكم، والعلم والتربية الصالحة لأولادهم، فهي أحسن تراث لهم. علموهم أن المال من الوطن ومن الأمة، ويجب أن يعود إلى الوطن وإلى الأمة».

«أما أنتم أيها الأغنياء فتذكروا أن عليكم واجبات مقدسة. تذكروا ذلك، وأعلموني أنني ما كتبت بالقلم الصارم لأجرح عواطفكم، بل لأمس أوتار قلوبكم، وأحرك نخوتكم وشهامتكم وقوميتكم. وحسبي من هذا الحض رفع شأن أمتي، وحسبكم من النخوة بقاء الذكر، ومن القومية بُعد الصيت».

وفي هذا المقال تحريض سافر للفقراء من الأقباط على الفتك بالأغنياء من أبناء دينهم، لأن استخدام القسر في أخذ الحقوق لا يكون إلا بقتل الأغنياء والأستيلاء على ثروتهم. أو بالنهب والسلب، وهذه أمور لا يسمح بها أي دين من الأديان، ولا يقرها قانون من القوانين.

وعلى كل حال فقد كثر في الأدب القبطي التحدث عن الفقراء والأيتام، وتصوير ما يلاقونه في الحياة من البؤس والشقاء، والذل والهوان في صورة تستدر العطف وتستدعي الشفقة، وترقق القلوب. مثال ذلك قول نصر لوزا الأسيوطي من قصيدة<sup>(١)</sup>:

طفلان: هذا رافل في عزّه	فرح، وذاك مُرَوِّعٌ ومُضَامٌ
ياربّ في الأحكام إنك عادل	حاشا تجور لعدلك الأحكام
يارب أنت أبو اليتيم وعمّة	إن فاتت اللآباء والأعمام
لله أقوام ترقُّ قلوبهم	وتعالج المقدور وهو جسام
شغفوا بإسداد الجميل ففعلهم	بين الورى الإحسان والإنعام
لو أبصروا مُتَيْمًا متألما	يتألمون كأنهم أيتام
بهم تُكفِّف لليتيم دموعه	وتُخفف الأوجاع والآلام
فاضت أكَفهم بِشَوْبِ النَّدى	ومن الأكف سحائب وغمام

وله من قصيدة أخرى<sup>(٢)</sup>:

تُعَيِّد اليومَ بين الأهل في جدلٍ	والجار في فقره أني له الجدُّ
ماذا يُفِيدُكَ مالٌ أنت عابدهُ	لا المالُ ينفع في الأخرى ولا الخُلُ
إن كنت تبغي إدخارا فأدخِرْ عملاً	يبقى دواماً إذا ما ينقضي الأجلُ
تبددُ المالَ في لهو وإن أهدَّ	رجا نوالا يفاجيء كَفَّكَ الشَّلَلُ
من أين تهرب من يوم الحساب وما	يحميك سهل من العُقبى ولا جبل؟!!

(١)، الوطن في ٥-٤-١٩١٦، ٣-١-١٩١٢، ٢٧-١٢-١٩١٢.

إن كان في الدين تفضيل نُقِرُّ بِهِ فالجود أفضل ما حثت به الملل

إلخ...

وقال رياض غبريال<sup>(١)</sup>:

وابنة الكوخ من يصغي لصرختها  
أندب الجوع أم تشكو التَّعْرِيَّ أم  
تُغالب الدهرَ والأيام تغلبها  
ولو كنتُ صخراً وجاءتني بدمعتها  
ولوعة الفقر قد أدمت ما قيها  
تبكي التجردُ من إلفِ يواسيها  
فالبؤس ينشرها والبؤس تَلْبِيها  
لدوب الدمع صخري في تَلْيِيها

كثر هذا النوع من الشعر عند الأقباط كثرة هائلة، وكانت القصائد التي تنظم في المناسبات الدينية تتضمن الدعوة إلى البذل والإنفاق في سبيل الخير، والحض على التبرع للمشروعات الخيرية التي يراد بها مساعدة الفقراء والتخفيف عن آلامهم، وتبشر النفقين أموالهم في هذا السبيل برضا الله ورضوانه. وتندر البخيل بسوء العاقبة، لأنه أمسك أمواله وتركها للصدأ. فهو لم يعمل شيئاً ينتفع به في الدنيا أو في الآخرة. وتندر الذين ينفقون أموالهم في ملذاتهم مع إمسакهم عن مساعدة الفقراء بغضب الله وعقابه.

\*\*\*

ونرى من الشعر الذي أوردنا بعضه في مشروع كلية البنات أن هذا المشروع كان محور الدائرة عند الأقباط، وأنهم نظروا إليه على أنه مسألة

(١) الوطن في ٥-٤-٢٩١٦، ٣-١-١٩١٢، ٢٢-٤-١٩١٢.

حياة أو موت بالنسبة لهم. وأن مستقبلهم مرتبط بتنفيذه؛ إن نجحوا في ذلك فقد ضمنوا لأنفسهم حياة المجد والرفعة، والغلبة والنصر، والتقدم والرقي. واستحقوا أن ينسبوا للفراعة، وازدادت آمالهم في استعادة مجد الآباء والأجداد. وإن أخفقوا فالويل لهم، والعار يلحق بهم، والموت الزؤام ينتظرهم.

وليس من السهل علينا إلا على الأقباط أنفسهم، أن يدركوا كيف نبتت هذه الفكرة في الأوساط القبطية؛ أي فكرة ارتباط مستقبلهم بنجاح هذا المشروع وإخفاقه. قد يكون الخوف من سلطان المدارس الأجنبية وتأثيرها في عقيدة أبنائهم وبناتهم خلق عندهم هذه الفكرة. ولكن هل إنشاء كلية للبنات في مدينة القاهرة يكفي لحماية العقيدة الأرثوذكسية بين أقباط مصر من أسوان إلى الإسكندرية؟ لعل هؤلاء الأدباء في شعرهم ونثرهم ما كان يقوله كتاب المسلمين وشعراؤهم في مشروع الجامعة المصرية. مثال ذلك قول حافظ إبراهيم:

ولا حياة لكم إلا بجامعة      تكون أمّا لطلّاب العلاء وأباً

\*\*\*

ولما أفتتحت كلية البنات <sup>(١)</sup> في ١٧-٣-١٩١٦ أشتد فرح الأقباط، وعظم سرورهم. قال جندي إبراهيم:

يَرَاغُ العلاء سَطْرَ فِإِنِّي مُعْرَمٌ      بتساطر آيات بها القبط تُكْرَمُ

(١) الوطن في ١٨/٣/١٩١٦.

فإنك إن لم تنظم تادرَ تُحْطَمُ  
يُنَادِي أَجِيُوا صَوْتَنَا وَتَعَلَّمُوا  
مُنَاجَاةَ مُوسَى يَوْمَ نَاجَاهُ مُنْعَمُ  
تُغَالِبُ شَمْسَ الْكُونِ قَهْرًا أَوْ تَهْزِمُ  
لَدِينَا وَشَمْسُ الْعِلْمِ أَزْهَى وَأَعْظَمُ  
وَبَيْنَا يَدَايَا كَوَاكِبُ خُصْمٌ

وَبَيِّنْ لِهَذَا الدَّهْرِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ  
سَمِعْتُ نِدَاءَ مَنْ سَمَائِكَ عَالِيًا  
فَلَذَكَّرْنِي صَوْتُ كَرِيمٍ سَمِعْتُهُ  
وَأَبْصَرْتُ إِثْرَ الصَّوْتِ شَمْسًا جَدِيدَةً  
وَأَنْتِي لَهَا تَبَدُّو وَيَشْرُقُ نَوْرُهَا  
تَجَلَّتْ عُرُوسُ الْقَبْطِ فِي مَهْرَجَانِهَا

وكان شعراء الأقباط ينظمون القصائد الطوال في المناسبات القبطية  
كعيد الميلاد، وعيد القيامة، وعيد النيروز وغيرها. قال نصر لوزا (١)  
الأسيوطي من قصيدة طويلة في عيد الميلاد:

وَأَنْتَ تَاجُ لِهَامِ الدَّهْرِ مَعْقُودُ  
إِذْ جَاءَ مِنْ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ مَوْلُودُ  
وَبَانَ نَجْمٌ لَهُ فِي الشَّرْقِ مَسْعُودُ  
لَهُ الرُّعَاةُ وَحَيَّتِهِ الْأَنَاشِيدُ؟  
وَكَانَ ذَيْدَنَهُ الْإِحْسَانُ وَالْجُودُ؟  
ضَمَّتْهُمْ فِي الشَّرَى ثُرْبٌ وَجِلْمُودُ؟  
هَذَا الْمَسِيحُ الَّذِي لِلخَلْقِ مَعْبُودُ  
مَنْ بَابُهُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَقْصُودُ  
تَنَسَّوْا فِي ذِكْرِهِ اللَّهُ تَمَجِيدُ  
ذُكِّرَى الْمَسِيحِ لَكُمْ طَهْرٌ وَتَجْدِيدُ

لَأَنْتَ أَفْضَلُ يَوْمِ بَثُّ أَرْقَبِهِ  
فِيكَ لَاحُ الْهَدْيِ لِلخَلْقِ أَجْمَعِهِ  
وَجَاءَ مَرْيَمَ جَبْرِيلَ يَبْشُرُهَا  
مَنْ ذَا الْوَالِدُ الَّذِي خَرَّتْ لَهَيْتِهِ  
مَنْ ذَا الَّذِي عَاشَ فِي الدُّنْيَا بِلَا خَطَلٍ  
مَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يُحْيِي الْمَيِّتِينَ وَلَوْ  
اللَّهُ أَكْبَرَ فَلْتُخَشَعْ قِبُولُكُمْ  
ابْنِ الْمَهْيَمِينَ فَادِينَا وَخَالِقِنَا  
تَذَكَّرُوا يَوْمَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ وَلَا  
تَذَكَّرُوا يَوْمَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ فِي

إِلخ ....

(١) الوطن في ١٩١٢/١/٩.

وفي هذه القصائد تظهر بوضوح معتقدات المسيحيين في عيسى  
ابن مريم.

وقد نوء الشاعر بميلاده والمعجزات التي جرت على يديه. وصاغ  
ذلك في أسلوب الأستفهام المراد به التقرير. ثم أنتهى من ها الأستفهام  
إلى الإشادة بعظمة عيسى وسمو مقامه وعلو محله. فقال إنه الخالق  
والفادي الحبيب، والمخلص والمنقذ من الضلال. ثم دعا أبناء طائفته  
إلى تعظيم يوم الميلاد وتمجيده، والأحتفال به أحتفالاً يليق بهذه  
المناسبة. وقال إن ذكرى الميلاد تطهر الأجسام والأرواح. وتبعث  
الإنسان بعثاً جديداً، وأن الأحتفال بهذه الذكرى يقرب الإنسان من الله.

وقال رفائيل <sup>(١)</sup> نخلة اليسوعي في عيد الفصح:

من فيض أنوار الربيع الباهرة	في يوم عيد الفصح ترهو القاهرة
وبدت بشارات السرور النادرة	بقيامة الفادي تكامل سعدها
من دُكنة السحب العبوس الماطرة	فسمأؤها زرقاء صافية خلت
ألقته فيه ذنوبنا التكاثره	قام المسيح إلهنأ من مدفن
إن الصليب ينيل مجد الآجره	فأرى النصرأ كلهم في شخصه
دربُ لأفراح السماء الطاهرة	غني أياً أجرأس إن شقاءنا

إلخ....

(١) ديوانه ص ١٩٨ ط الإحسان بحلب سنة ١٩٥٣.

مزج الشاعر بين وصف مدينة القاهرو في أيام الربيع، وما بدت عليه من بهجة وسرور بمناسبة عيد الفصح. ووصف سماءها الصافية، وجوها اللطيف، وأشجارها المورقة. والأجراس التي تدق في الكنائس لتعلن عن عيد القيامة المجيد.

وقال: إن المسيح صلب ليخلص الناس من أوزار خطاياهم، وأنه قام من قبره، وصعد إلى السماء. والنصارى كلهم يتمثلون في شخص المسيح لأنه أبوهم وفاديتهم ومخلصهم. وكل مسيحي يحمل صليبه ويتمسك بتعاليم دينه يظفر بالحياة الأبدية. وما يتحملة من البلاء والمصائب إن هو إلا أمتحان من الله له، فإذا نجح في هذا الأمتحان دخل الجنة.

\*\*\*

وقال نصر لوزا<sup>(١)</sup> في عيد القيامة من قصيدة طويلة:

رفعت لنا عيسى ابن مريم	إلى موطن فيه الإله يرحب
تظلمة وقت الصعود سحابة	يحف بها من عسكر الله موكب
على عرش مجد الله يجلس أمراً	ومن حوله أملاكه تتأهب
صحائف كل العالمين بكفه	مزيل خطايا الناس أيان تطلب
من البدء موجود ولليوم كائن	وفي الغد مثل البدء واليوم يقرب
هو النور ما بين السموات والهدى	على الأرض وهو الروح والإبن والأب
إلى مريم العذراء جبريل قد أتى	وزف لها بشرى لها الأرض تطرب

(١) الوطن في ١/٥/١٩١٢.

غلاماً إلى الله المهيمن ينسبُ

وحلت بها روح الإله فأنجبت

ومنها وفيه إشارة إلى ما فعله اليهود معه:

وحقداً وقالوا إن ذلك يصلبُ  
من الناس مخلوقاً إلى الصلب يُسجَبُ  
وسلمه عمداً يهوذا المذبذبُ

أحاطوا به كي يقتلوه تعمداً  
تلاميذه ولؤوه جميعاً فما رأى  
فأنكره في الضيق بطرس جاهداً

ومنها:

إذ الشعب يلهو كالصغار ويلعبُ  
بها يستقيلي الكليم ويشربُ  
كأن الذي في الكأس سم مُدَوَّبُ  
ونام بطن الترب لا يتهيَّبُ  
وقام كما قام المسيح المغلب  
لكل أمرىء في مذهب الشر مذهب

فبيننا مسيح الرب يجرى دماؤه  
يناديهم هاتوا من الماء جُرعة  
فأعطوا له كأحاً من الخل علقماً  
فلم روحاً للإله وديعة  
ثلاثة أيام قضاها بحفرة  
شعوبك ضلّت يا يسوع وقد بدا

إلخ....

تحدث الشاعر في هذه القصيدة عن موضوع صلب المسيح كما  
يعتقد. فذكر ما فعله اليهود به قبل صلبه، وكيف هرب تلاميذه وأختفوا  
حرصاً على أنفسهم وخوفاً من بطش اليهود. وكيف أنكره بطرس وتبرأ  
منه. وكيف خانته يهوذا الأسخريوطي حين أرشد اليهود إلى مكانه نظير  
مبلغ من المال. وتحدث عما جرى على المسيح وهو على الصليب،  
وكيف أن اليهود قدموا له الخل ليشر به حين طلب قليلاً من الماء.

وذكر موته ودفنه، ثم قيامه من القبر وصعوده إلى السماء تظلمه سحابة بيضاء، وتحيط به الملائكة إلى أن وصل إلى العرش الإلهي وجلس عليه يأمر وينهي، والحرس حوله على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامره. وقال إنه مطلع على خطايا البشر، وأنه يزيل هذه الخطايا متى ألتمس أصحابها ذلك وأظهروا التوبة.

وهذا الشعر الديني يمتاز بصدق العاطفة، وتدفق الأحاسيس، وتوقد المشاعر. وهذه كلها من عناصر الإجابة في الشعر.

وظهر في العصر الحديث عدد كبير من الصحف والمجلات القبطية. فمن الصحف: صحيفتا مصر والوطن. والأولى ما زالت تصدر إلى اليوم وإن كانت محصورة في عدد من المشتركين. ومن المجلات التي كانت تصدر: مجلة فرعون، ورعمسيس، والمنارة المرقسية، والأسد المرقسي، والشبيبة القبطية، ومجلة التوفيق التي رجعت إلى الوجود مرة أخرى بعد أن أختفت مدة طويلة. ومجلات: الإخلاص، والصخرة، والهدى، ورسالة المحبة وهي من المجلات التي تصدر اليوم وهي واسعة الانتشار بين الأقباط.

وكان لهذه الصحف والمجلات أكبر الأثر في خلق الحركة الأدبية بين الأقباط. فغدت منابر لشعرائهم وكتابهم ينشرون فيها ما تجود به خواطرهم في مختلف الأغراض. وتعتبر الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى - ١٩١٤ - العصر الذهبي لأدب الأقباط وصحافتهم.

### القومية الفرعونية وآثرها في الأدب القبطي

يعتقد الأقباط أنهم من نسل الفراعنة، ولم تختلط دماؤهم بدماء أجنبية عربية أو تركية أو غيرها. قال رمزي تادرس<sup>(١)</sup> تحت عنوان «الشعب القبطي» ما نصه:

«الشعب القبطي بقية أمة عرقة في المجد، تليدة في الشرف، كبيرة في السلطان وضخامة الملك» ولذلك أخذوا يرجون للقومية الفرعونية ويفضلونها على سائر القوميات، ويدعون إلى التمسك بها. وكانت تعجبهم قالات أحمد لطفي السيد في الوطنية المصرية، والقومية المحلية. ومما جاء في إحدى هذه المقالات:

«إن<sup>(٢)</sup> منا من لا ينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين أنما انتسابه إلى الجنس المصري نقص وعيب. ولا يزال بعضنا ممن دست فيه العروق التركية يميل إلى تضحية العصبية المصرية للعصبي التركية، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على الروابط الجنسية والوطنية. فإن لم نذهب عنا- بعزيمة- هذا التحلل نمت أسبابه، وفشت نتائجه، وتعذر علينا أن نوسع بيننا دائرة المشابهات ونضيق دائرة الفروق. وبقينا كما كنا

(١) مقدمة تاريخ الأقباط في القرن العشرين.

(٢) الجريدة في ٥-٢-١٩٠٨.

في الماضي نقضي حياتنا القومية تابعين للصدفة، بعيدين عن أشرف الأغراض القومية؛ وهو الاستقلال».

ويعلق كاتب قبتي على هذا الرأي فيقول<sup>(١)</sup>:

«... فالقبطي له ان يفخر لإجيائه عيداً مصرياً- عيد النيروز- وروحا مصرياً. القبطي مصري قبل كل شيء. فإذا ما هو عيد وحده العيد المصري؛ فهذا موطن فخر له، لأنه حافظ على جنسيته ولم يعتنق جنسية أخرى. ولو كان المصريون أحلوا الاعتبار الجنسي محل الأعتبارات الأخرى، وحافظوا على الجنسية المصرية قبل كل شيء آخر؛ أقول لو كانوا فعلوا ذلك لكان شأنهم غيره الآن».

«نحتفل نحن الأقباط بعيد النيروز، عيد رأس السنة المصرية، لا كما يعيد غيرنا غربياً أو شرقياً عيداً دينياً بحتاً».

«نحتفل بذلك العيد فنبقى على كل شيء من من ممثلات مصريتنا الممزقة، ونحفظ أثراً لازم الحفظ، دالاً على وجود حي، دالاً على مصر، ولا شخصية غير الشخصية المصرية البحتة، ولا نسبة غير النسبة المصرية».

«هل نغاب إذا أحيينا شيئاً يدل على مصر ووجود مصر، ويبعث فينا روحاً مصرياً نحيا له ونموت لأجله؟».

(١) الوطن في ٧-٢-١٩٠٨.

«ما الذي أضعفنا سوى إمانة الروح المصرية، والقضاء على كل صبغة مصرية، وشخصية مصرية؟ حتى كدنا نكون ولا شخصية معينة لنا، ولا يحفظ الأمم سوى الاحتفاظ بمشخصاتها».

«ما لنا نهرب من مصريتنا كأنها داء الجرب؟ وما لنا ننكرها كأنها عار؟».

\*\*\*

وفي هذا المقال تعريض بالمسلمين لأنهم يحتفلون بأعيادهم الإسلامية، والإسلام دين غريب عن مصر كما يقول، فلا ينبغي أن يحتفل بأعياده، بل يجب أن نحتفل بالأعياد المصرية فقط. وهو يعيب على الغربيين كذلك أحتفالهم بالأعياد المسيحية لأنها أعياد أجنبية عنهم. فكأنه والحالة هذه يدعو إلى ترك الأديان المسيحية والأحتفالات الدينية كلها الإسلامية والمسيحية. إن الدين السماوي لا ينزل لأمة معينة في وطن معين، وإنما ينزل للناس كافة. فأى عيب إذا أشترك الناس من أبناء الدين الواحد في مشارق الأرض ومغاربها في الأحتفالات الدينية؟ ولم يقل أحد من المفكرين إن القومية تستلزم التخلي عن الدين والأحتفالات الدينية.

وعلى كل حال فإن فكرة القومية الفرعونية ظهرت لمعارضة فكرة الجامعة الإسلامية التي كان يروج لها الحزب الوطني بنوع خاص، وحزب الإصلاح الذي كان يرأسه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد»

وحدث أن أنهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى، وظهر مصطفى كامل الذي أخذ بفكرة القومية التركية، وتخلّى عن كل فكرة إسلامية، وتبرأ من السمات الشرقية، وصبغ بلاده بالصبغة الأوربية؛ حينئذ أختفت فكرة الجامعة الإسلامية من مصر، بل من جميع البلاد التي تدين بالإسلام. وأقبل المصريون جميعهم على أتخاذ الشعارات الفرعونية.

\*\*\*

وكان الأقباط قد أتخذوا من اسم «رمسيس» شعاراً لهم، ولقبوا أنفسهم بأحفاد رمسيس، وأنشأوا نادياً خاصاً بهم بحمل هذا الأسم، وظهرت مجلة «رمسيس». ولما وسع اللورد كتشنر ميدان باب الحديد وجعله بالصفة التي هو عليها الآن وكان ذلك سنة ١٩١٣م أترحوا عليه أن يحلي الميدان بتمثال من تماثيل هذا الملك. فوافق على الأقتراح على أن ينقل التمثال الذي كان بالبدرشين. قالت صحيفة الوطن (١٩١٤/٧/٩) «قال المسيو ماسبيرو في حديث له مع إحدى الجرائد الإفرنجية إنه يعلم عن ثقة أن لورد كتشنر ينوي أن يفتح أكتساباً في أنجلترا لجمع المال اللازم لنقل تمثال رمسيس ونصبه في ميدان باب الحديد، وذلك حتى لا يكلف الخزينة المصرية هذه النفقة» وقد تم نقله سنة ١٩٥٥ وهو المقام حالياً في ميدان رمسيس «باب الحديد».

وكان بعض الأقباط يطلق على أبنائه أسماء فرعونية.

\*\*\*

وفي سنة ١٩١٣ سافر وفد من أدباء الأقباط إلى مدينة الأقصر، وذهبوا إلى معبد الكرنك. ولما صاروا أمام أحد تماثيل رمسيس الأكبر أنبطحوا على الأرض، وتمرغوا في التراب، وتقبلوا في العفار والهَبَاب، ورفعوا أصواتهم بالبكاء والعيول، وسالت كل مسيل. وأشدت الصياح، وعظم النواح. وكان نصر لوزا الأسيوطي يقول (١):

رمسيسُ قم وأنظر الأحفادَ كيف هُم      ذُلُّوا وكيف على بلواهم صبروا  
رُحماكَ رحماك قم وأنظر بعينك ما      قد خبَّأته ليالي الغدرِ والقَهْرُ  
وأخذوا يرددون هذين البيتين، وهما من قصيدة طويلة بكى فيها الشاعر على زوال دولة الفراعنة، وتغنى بأمجادهم، ومطلعها:

قف عند طيبةَ يا مَنْ فاتَه الأثرُ      عسى يجيبك إن ناديتَه الحجرُ  
وسائل الصخر عن قوم مَضَوْا وَبَقَتْ      أفعالهم، فهمناك الخَبْرُ وَالخَبْرُ  
هناك تلقى ملوك القطر باقية      فيها وكم من ملوك العالم اندثروا  
هناك تلقى بها الأموات رافدة      كأنهم نُومٌ أضناهم السهرُ  
هناك تلقى من الأحجار أبنية      نظيرها ما بنى بدوٌ ولا حضرُ  
هناك تلقى صروح المجد قائمة      تكاد تنطق فيها الآي والسُّورُ  
هنا قف واعتبر كيف أنقضت دولٌ      في العالمين عساها تنفع العبرُ  
وأنظر تجد في توابعِ فراعنة      لكل جيل بهم وعظ ومُرْدَجَرُ  
هم حاربوا كل شيء غير أنهم      على محاربة المقدور ما قَدَرُوا  
تضمنتهم بطونُ الأرض مظلمة      وكم زهت بهمُ التيجان والسُّرُ  
ضاقَت بهم كل أرض ينزلون بها

(١) الوطن في ١٦/٨/١٩١٣.

قد صبروا أمم الدنيا مُسَيَّرَةً  
يا ويح معهم المنايا كيف جار على

\*\*\*

فالنهي إن هم نَهَوْا والأمر إن أَمَرُوا  
فراعنِ الدهرِ مَنْ شادوا وَمَنْ ظفروا

يَمَّمْتُ طيبةً ملتاغاً لرؤيتها  
أسعى إليها وقبلي ما سعى أحد  
سارت إليها شعوب الأرض قاطبة  
في كل عام له حَجٌّ وَمُنْتَجِعٌ  
كأنها جنة رَأْدُ الربيع بها  
يأتون كي ينظروا فعل الفراعنِ مَنْ

\*\*\*

ونار قلبي من الأشواق تستعز  
إلا تَوَلَّاه في وصف لها الحُرُ  
كأنها عند بيت الله تَعْتَمِرُ  
وإن تمادى التَّوَي أو أتعب السفرُ  
بين الملا زُمَرٌ يتلوهم زُمَرُ  
سادوا على كل من في الأرض وأنصروا

لهم على الأرض بنيان له عُمد  
هل مثل كرنك في الآفاق أبنية  
يا ناظر الكرنك أخشع إن دخلت به  
كم فيه صلَّتْ ملوك وأبتغت أمم  
فيه البخورُ إلى ذا اليوم مرتسماً  
فيه التماثيل كالأقوام شامخة  
تعنو الجباهُ إليها وهي خاشعة  
كذاك بربه رمسيس بها نُصِبَتْ  
بها تماثيل رمسيس وزوجته  
أسرى الفراعن في حيطانها رُسمت  
من بين أسرارهم في صخر بربتهم  
رمسيس قم وأنظر الأحفاد كيف هم  
رُحماك رحماك قم وأنظر بعينك ما

\*\*\*

تحار في صنعه الأبواب والفكر  
أو مثل برية ما بين الورى أثر؟!  
فأنت في معبد تاريخه عِبَرُ  
صفح الإله لكي يُقضي لها وَطَرُ  
في سقف هيكله لم تمحه الغيرُ  
كأن في أنفها مما بهم كبرُ  
منها ويقصر عن إدراكها النظرُ  
تكاد تنطق لولا أنها حجرُ  
قد بات يطربهما التاريخ والسسيئرُ  
رهنً القيود وهذا بعض من أسروا  
الفرس والروم والأجاش والشر  
ذُلُوا وكيف على بلواهم صبروا  
قد خبَّأته ليالي الغدر والقَهْرُ

أصبحت إن أنظر الآثار دراسة  
تركها بعد فرط الحزن ملتصماً  
ثم أنهينا لأبواب الملوك بها  
رأيت في الصخر أنفاقاً ذُهلت بها  
وقد يحار الفتى فيها هناك إذا  
قبور موتى ولكن كالقصور إلى  
من أبصر النقش فيها ظن ناقشها  
لا يوجد تحت الشمس مُخْتَرَعٌ  
هناك في طيبة المعروف أنطقى  
وشيخها الشهم أطراني وأكرمني  
قد حرم السحر موسى غير أن له  
نسيت في حَيِّهم أهلي ولا عجبٌ  
واليوم يطربهم قولي ويمدحهم  
ولست ما عشت أنسى مدة قُضيت

ترى الدموع على عَينَيَّ تنهمرُ  
دار الحبيب لينأى عني الكدُرُ  
حيث الفراغ في أجوافها قُبِرُوا  
فقلت هذى بناها الجن لا البشرُ  
رأى النقوش التي من حولها الصورُ  
أمثالها المرء في سُكناه مفتقرُ  
قد بات حَيًّا ليل الأجر ينتظرُ  
إلا وكان لهم من بعض ما أبتكروا  
بالشعر فوراً فلا عجزٌ ولا حَصْرُ  
فألنف حولي من أتباعه نفرُ  
آيات سحر حلال دونها الدرر  
ففضلهم من قديم الدهر مُدَّخِرُ  
للناس منتظم مني ومنتصرُ  
بأرض طيبة حتى ينقضي العُمُرُ

وله قصيدة أخرى طويلة نشرت تحت عنوان «على سفح  
الأهرام»<sup>(١)</sup> أوردناها في المختار من شعره.

وقال عزيز بشاى من قصيدة<sup>(٢)</sup> طويلة في توتنخ آمون:

خالِي المجد أعد فينا المقاماً  
رُبَّ مَيِّت ملاً الدنيا علأً  
لا تقل مَيِّت وقل حيٌّ على  
عاد فرعون إلى الدنيا وقاماً  
وأعاد المجد فيها وأقاماً  
قبة العلياء ما ملَّ المقاماً

(١) المقطم في ١٩١٢/٨/٥.

(٢) السياسة في ١٩٢٢/٣/١٢.

لم تنم عيناه حين الدهر ناماً  
أنت أفيت الدنيا عاماً فعاماً  
ومنير التاج أعليت الأناماً  
فأنار السرُّ في الدنيا الظلاماً  
فلقد أكثرت في الوادي المناماً  
ربما أسطعت من الموت القياماً

إيه يا «توتخ آمون» الذي  
كذبوا إن قيل أفاك الردى  
يا جلال الملك أيقظت الورى  
أنت سرُّ باحتِ الدنيا به  
ملك الوادي أستفق من رقدة  
ألقِ عن جنبيك جلاب البلى

الخ....

وقال رفائيل نخلة<sup>(١)</sup> تحت عنوان «موعظة الأهرام»:

يا فخر وادي النيل يا أهرام  
ترقى إلى حيث أستقر غمام  
ستين عاماً شادها الأقوام  
أفنتهم الأتعاب والأسقام

فيكن راعتني الأجرام  
لم ندر قبلك أن أكوام الصفا  
لم ندر قبلك من رموس عواهل  
آلاف آلاف بنوك وألحدوا

الخ...

وقد أوردناها كلها في المختار من شعره.

\*\*\*

وفي الأنتساب إلى الفراعنة<sup>(١)</sup> يقول إسكندر قزمان من قصيدة:

(١) ديوانه ص ٢٢٩.

إن فُقتِ يا ابنةَ رمسيسٍ فلا عجبٌ  
عن أمهاتك في طيبا وآباكِ  
كم شدتِ في مصر صرحاً للرقِيّ وما  
علياء غيرك إلا بنت علياكِ  
وقال تادرس وهي (٢) من قصيدة في مدح بطرس غالي حينما تولى  
رياسة الوزارة سنة ١٩٠٨ .

فيا سلاله مينا  
والشيء بالشيء يذكر  
وكان تادرس وهي في طليعة كتاب القبط الذين تغنوا بأمجاد  
الفراعنة. فمن ذلك قوله في مقدمة تمثيلية: «عنوان التوفيق في قصة  
يوسف الصديق». «إن لمصر في التاريخ لشأناً دونه الفرقدان، وفخراً  
يرويه عنها من أبناء الزمان قاص ودان، لأنها البقعة المباركة التي ضربت  
فيها سرادقات العمار، والكعبة التي كان بها للطائفين هناك أعتمار. ولكم  
يرمها الآن حريص من العلماء على مشاهدة آثار القدماء ، فيتهبب أني  
جاء تلقاء أبي الحجاج أو الهرميين تهبب جماعة الحجاج ساعة زسارة  
الحرمين. ولو هاله أبو الهول وهو يحدق لعين شمس، ويفرق بين حاله  
اليوم وما كان عليه بالأمس لأرتضى بالدلالة الإلتزامية قولاً شارحاً لعظم  
هاتيك القرون، حينما كانوا يبيعون المعارف لسواهم من الأمم ولا  
يشترون. ثم أوسعهم الدهر حسداً، وكر عليهم بصروفه أسداً. فأضطروا  
لأن يستبدلوا الإقدام بالإحجام، وأن يدينوا وهم صاغرون لملوك الأعجام  
الذين طفقوا يقيمون عليهم من حيث لا يحتسبون أدلة، وإذا دخلوا قرية  
أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أدلة.»

(١) الوطن في ١٧/١٠/١٩١٣ .

(٢) الوطن في ١/٥/١٩٠٨ .

وظهرت حركة ترمي إلى إحياء اللغة القبطية، لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية، ولغة العبادة، ولغة المدنية القديمة والجديدة. قال أحدهم:

«لكي تتوفر<sup>(١)</sup> القومية المتينة في شعب من الشعوب لا بد لأفراده جماعاته من الاتفاق في وجوه ثلاثة: الوطن، واللغة، والدين. وعلى نسبة وفر هذه الوجوه تكون قوة التماسك في ذلك الشعب».

«إننا نتكلم بلغة غير لغتنا. وديننا قد أنسخ بتعاليم غريبة لم نحن من رائها غير التناهد والشقاق. فإذا أردنا أن تكون قوميتنا سليمة قوية فلا بد من كنيسة واحدة، ولغة واحدة ننضم تحت لوائهما ونحبهما ونفخر بهما. وأما حال تذبذب وعدم الأكتراث التي نحن فيها هذه فإن هي إلا من مقدمات الخذلان والموت، لأن الإنسان لا يمكنه أن يحب كنيسيتين أو يفتخر بلغتين، كما لا يمكنه أن يخدم سيدين».

وقال آخر<sup>(٢)</sup> :

«إن هذه اللغة- القبطية- ليست من اللغات الجامدة أو الميتة التي يضيع الوقت في إحيائها عبثاً. بل هي لغة كانت فيما مضى لغة أمة عظيمة ذات تاريخ وآداب ومعاملات. ولا بد أنها في تلك العصور

(١) مجلة المفتاح عدد فبراير سنة ١٩١٢.

(٢) الوطن في ١٣/١/١٩١٦.

الخالية كانت كافية بحاجتها، حافلة بالألفاظ والتعبيرات الدالة على كل التصورات والأفكار التي تتمون من مجموعها حياة الأمة. فما أوصلها إلى هذه الحالة إلا الإهمال والترك اللذان نشأ عن الظروف السياسية القاهرة. فإذا أبدل الأقباط إهمالهم بالهمة والجد والنشاط في تعلمها جددوا شبابها لا محالة، وألبسوها حلة قشبية من الحياة. عدا هذا فإن هذه اللغة ستبقى ما بقية الجديدان لغة العبادة. فمصلحة الأقباط الدينية تقضي عليهم أن يفهموها جيداً حتى لا يظل بينهم وبين كنيستهم هذا الحاجز الذي نراه الآن».

«إن مصر اليوم تقول: أيها المصريون، مهما أنكرتموني بتعلم اللغة العربية والفرنسوية، أو الإنجليزية؛ فإن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنتكم وأنتم لا تدرن. فأذهبوا إلى المراكب تجدوا أصحابها يقولون «هيا ليصة» أي المساعدة. أذهبوا إلى الحقول تجدوا الفلاحين يقولون «الدميرة حضرت» أي الطمي البحري جاء. وغير هذا كثير».

«فهذا دليل ظاهر على أن أصلهم مصري قبل أن يكون عربياً، وكذلك يجب أن نتعلم اللغة القبطية».

وكتب فرنسيس العتر في مجلة «الحكمة»<sup>(١)</sup> سنة ١٩٤٠ مقالاً  
حاراً جاء فيه:

---

(١) عدد فبراير.

«هُبُوا من رقادكم، وأعملوا على إحياء لغة آبائكم وأجدادكم، فلا يفرط في تراث الآباء والجدود إلا ابن نغل حقت عليه اللعنة وباء بالخسران».

«نعم. إن الأمم القاهرة قد فطنت منذ القدم إلى أن خير خطة تجرى عليها في تقرير فتوحاتها، وإتقاء سورة المغلوبين إذا أستفزههم كم ناحيتها ضيم، إنما هي خطة إضعاف اللعنة القومية، والنزول بها إلى الحضيض. وتقوية اللغة الأجنبية والصعود بها إلى السماكين. ولكن على الشعب المغلوب على أمره أن يجاهد في سبيل صون جنسيته بإحياء لغته بين طبقاته عامة، وطبقة المربين خاصة. لأنه ما دام للشعب لسان بلغته ناطق، وجنان بأمنيته خافق، وعزم في إرادته صادق، فتحقيق أمنيته مكفول، ونجاحه لا ريب مأمول».

«ويا لشقاء قطر غلب على أمره، ثم أغفل قاداته شأنه فلم تجتمع عزائمهم على إحياء لغتهم الناطقة بسالف عزمهم».

«يا لشقاء هذا القطر إذا استسلم للهزيمة، وجعل لغته بين الغنيمة، ويا لشقاء أمة كانت لغتها على لسان السلف افصح من نظرة المحب، فأمست على لسان الخلف أسقط من حجة القاصر. وكانت لها دولة فباتت وليس لها من اثر غير كتب تقتني كما تقتني التحف والعاديات. وكانت على شفتي أهلها أبتسامة فعدت على جبيننا عبوسة ودمامة. وكانت السنة آبائنا تتداولها للتفاهم فأصبح معظم إكليريكينا يرددونها

ترديد البغاءات لما تسمع من عبارات. وأصبحت ألسنة الشعب الأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستاني الفاصل كألسنة أصحاب برج بابل».

«فمن لنا بمن يبعث إلى أبناء أمتنا بآخر إنذار علهم ينتبهون لما تنطوي عليه جوانح الأقدأؤ؟ ثم من لنا بمن ينشبهون بأساتذة المدارس في بلاد المجر مثلاً فيعلمون النشء أن اللغة القبطية- لا المجرية- لغة الذات الإلهية؟ فيشبون على هذه العقيدة حتى إذا ما أتقنوا دراستها أدركوا أن تلك الحكمة إنما وضعها حكمائهم لحثهم على دراسة لغتهم، وتعلم لسان أمتهم الناطق بعظمة جامعتهم ومجد كنيستهم».

وظهرت كتب مبسطة لتعليم هذه اللغة، منها كتب نحو ومطالعة، ومنها قواميس وكتب ترجمة.

وأفتتحوا مدارس ليلية في القاهرة والأقاليم لتعليم اللغة القبطية مجاناً. وكانت المدارس القبطية تعلم اللغة القبطية لتلاميذها وتلميذاتها.

\*\*\*

إلا أن المسيحيين لم يكونوا كلهم على رأي واحد بخصوص إحياء اللغة القبطية، فقد كتب أحدهم في مجلة المفتاح مقالاً جاء فيه:

«...<sup>(١)</sup> وغنى عن البيان أن هذه الأقوال كلها نظرية كلامية. فإن

---

(١) عدد مارس سنة ١٩١٢.

سعادة الشعوب في العصور الحاضرة وترقيتها في أمورها الاجتماعية والدينية لا يكون يحفظ لغة أمانتها الأيام».

«ولست أدري كيف تأتي العصبية من إبدال لغة حديثة بلغة قديمة. كما لا أدري لماذا تقبل الصلوات باللغة القبطية أو السريانية أو اللاتينية، ولا تقبل بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية».

(وإذا وافقنا على أن اللغة القبطية كتبت بها علوم المصريين، ووافقنا جداً كذلك على أن هذه العلوم هي أساس الحضارة الحديثة؛ فهل يريد الدعوان إلى إحياء اللغة القبطية أن ينصرف الأقباط إلى درس الآثار، والأنعكاف على بحث الموميات والمسلات والبرابي؟).

(فلتبقي اللغة القبطية لرجال الدين، ولنصرف الشبان الأقباط إلى إتقان اللغة العربية وإحدى اللغات الأجنبية، فإن ذلك أولى بهم وأجدر من صرف سنة أو سنتين في درس لغة كنائيسة عتيقة لا تؤدي إلى غرض ديني أو مادي، عاشت أو ماتت).

ونادى بعضهم بترجمة كل ما يتلى في الكنائس من الصلوات والقداسات والأبتهالات إلى اللغة العربية المفهومة من الشعب إلى أن يتم للقائمين بإحياء اللغة القبطية ما يريدون من تعميم هذه اللغة ونشرها. ومتى أصبحت مفهومة فلا بأس بأستعمالها دون غيرها. وقالوا إنهم يريدون تعلم اللغة القبطية ونشرها لأنها لغة آبائهم وأجدادهم فقط لا غير.

والملاحظ أن الذين نادوا بإحياء اللغة القبطية لم يقصدوا إحياءها بين النصارى فقط، بل كان غرضهم إحياءها بين المصريين أجمعين؛ المسلمين منهم والنصارى، وذلك لأن الألفاظ القبطية منتشرة على السنة الجميع مما يدل دلالة قاطعة على أن أصلهم واحد، فهم مصريون من نسل الفراعنة، وليسوا عرباً.

وعلى كل فإن هذه الحركة باءت بالفشل إذ لم يستجب لها النصارى أنفسهم فضلاً عن المسلسمين الذين لم يرحبوا بهذه الدعوة، بل قابلوها بالهزاء والسخرية.

\*\*\*

ودفعهم تعصبهم للقومية الفرعونية إلى محاربة المدارس الأجنبية، لأنهم رأوا فيها خطراً عظيماً على قوميتهم وعقيدتهم الأرثوذكسية، وهم محقون في ذلك. قلب رمزي<sup>(١)</sup> تدرس:

(ولو انتقلنا إلى القرون القديمة، وحولنا النظر إلى الشعب لرأيناه في أتم حالات الوحدة. ذلك لأن الأسلاف كانوا يتعلمون في أمكنة واحدة، على نسق واحد. ويهذبهم مهذبون من إخوانهم تهديباً دفعهم بقوة الأختلاط والمعاشرة إلى محبة أمتهم ووطنهم، وإلى المحافظة على عوائدهم الأصلية، وعقائدهم الصحيحة وهي صفات وجيهة إن لم يستطع الأخلاف صيانتها فلأنهم أنكبوا على التعلم في المدارس الأجنبية

---

(١) الأقباط في القرن العشرين ج ١ ص ١٩،

حتى مزقتهم وأضعفت رابطتهم، وذهبت بجوهر قوميتهم).

«إن الفريق الذي تعلم في المدارس الأجنبية شب على ميول جديدة تخالف طباعنا وأخلاقنا وعاداتنا، لا من حيث رقيها وانحطاطها، بل من حيث تطورها بصورة لا تلائم حياتنا الحاضرة ولا المستقبلية. وهذا ما أشرب نفوس هذا الفريق وروح الكبرياء، ودفعه إلى أن ينظر إلى الفرق الأخرى بعين الاستخفاف والأحتقار، ويستتشف أن يجتمع عليهم في بعض أمهات المسائل العامة، أو يعد من مجموعهم، كأنه خليقة جديدة جاءت خيراً من الخلاق. ولا شك في أنه لولا تلك المدارس وتسلسلها على أخلاقه وعواطفه قبل أن تختمر بين جوانحه وتصرفها فيها وفقاً لأهوائها وغاياتها بلا معارض ولا منازع لأنحطاط التربية العائلية؛ لما أنصرفت رغباته عن القيام بواجباته نحو أمته وبلاده، ولما نسي حقوقه الشرعية بينهم، ولما تعالی متكلنزا، أو متفرنساً، أو متمركزاً).

(أما الفريق الذي تعلم علومه الأولية في مدارسنا الأميرية والأهلية فقد شب على نفس طباعنا وأخلاقنا. فعرف واجباته نحو أمته ووطنه. وأدرك كيف يعامل إخوانه، وبأي الطرق يستميلهم إليه لسابقة الألفة والاختلاط).

لا ريب في أن رمزي تادرس قد أصاب كبد الحقيقة. وربمت كانت هذه الحالة التي صورها المؤلف من الأسباب القوية التي دفعت الأرثوذكس إلى الترويج لفكرة القومية الفرعونية واللغة القبطية، وذلك لما

تعرضت له معتقداتهم من خطر الزوال على أيدي المدارس الأجنبية. وهذا الشعور بالخطر قد ترك أثره في أديبهم، فنظموا القصائد الطويلة في التغني بالأمجاد الفرعونية.

ومما يؤيد كلام رمزي تادرس أن عظماء الأقباط وأغنياءهم الذين تعلموا في المدارس الأجنبية تخلوا عن جنسيتهم المصرية، ووضعوا أنفسهم تحت حماية دول أجنبية، وتعينوا وكلاء لقناصل تلك الدول. فلم يكن يخلو مركز من المراكز من وجود وكلاء لقناصل الدول الأوروبية، وكلهم من المسيحيين الخارجين على الكنيسة الأرثوذكسية، وعلى القومية الفرعونية.

ومما يؤيد كلم رمزي تادرس أن عظماء الأقباط وأغنياءهم الذين تعلموا في المدارس الأجنبية تخلوا عن جنسيتهم المصرية، ووضعوا أنفسهم تحت حماية دول أجنبية، وتعينوا وكلاء لقناصل تلك الدول الأوروبية، وكلهم من المسيحيين الخارجين على الكنيسة الأرثوذكسية، وعلى القومية الفرعونية.

\*\*\*

وفكر «أخنوخ»<sup>(١)</sup> فانوس» في تأليف حزب سياسي مسيحي. وكان

---

(١) ولد أخنوخ فانوس ببلدة أنوب سنة ١٨٥٦ وتعلم بالمدرسة الإنجيلية بأسبوط. ثم سافر إلى بيروت وألتحق بالكلية الأمريكية وهناك سنة ١٨٧٠ وانتخب بمجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٣، وعند افتتاح المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٤ اشتغل بالمحاة.

من زعماء الطائفة الإنجيلية، ولكنه أستهوى عدداً كبيراً من المسيحيين بما كان يظهره من التعصب ضد المسلمين، وبما كان ينادي به من وجوب تعيين النصارى في الوظائف الإدارية الكبرى. وقد بدأت هذه الحركة سنة ١٩٠٨. قال إبراهيم حنين<sup>(١)</sup>.

أخنوخُ يا بطلٌ يا فخر أمته  
أقسمت أنك لا تخشى مقاومة  
وأعما بحزم وعزم غير مكترث  
ثابر على خدمة الأوطان معتمداً  
لا تحفلنَّ بهم، لا تياسنَّ فهم  
من كل غل سفيه لا خلاق له  
مصر التعيسة يا أخنوخ نائحة  
فأنهض على عجل أخنوخ إن غداً

أخنوخ يا رجلٌ يا خير مفضال  
فأسس الحزب توّاً دون إمهال  
بما تصادفه من حزب جهال  
على الإله ولا تعبأ بأنذال  
لا يفهمون، وليسوا غير أطفال  
وناقص العقل ختال ومحتال  
مصر العريضة ترثى مجدها البالي  
يغير الله من حال إلى حال

---

(١) الوطن في ١٤/٨/١٩٠٨.

## اختلاف الأقباط فيما بينهم وأثر ذلك في أدبهم

قامت حركة فكرية في المحيط الأرثوذكسي تهدف إلى إصلاح الشؤون الدينية لتلك الطائفة. وكان أول صوت أرتفع صوت طالب بالمدرسة الإكليريكية اسمه «مطفى

الذي عرف فيما بعد باسم القمص «مرقس سرجيوس» وأصله من مدينة جرجا. وقد ألتحق بالكتاب القبطي بالمدينة ثم بالمدرسة الابتدائية بها ثم حضر إلى القاهرة ودخل المدرسة الإكليريكية.

وفي سنة ١٩٠٣ وقف خطيباً بين أخوانه مبيناً المستقبل السيء الذي ينتظرهم. وقد أفلح في إشعال نار الحماسة بين زملائه، فأجتمعوا وحرروا عريضة ضمنوها مطالبهم وهي:

١- اختيار المعلمين من كبار رجال اللاهوت.

٢- لا يعين قسيس لكنيسة إلا إذا كان من خريجي المدرسة الإكليريكية . وعلى البطرركخانة أن تتكفل بمرتبات الوعاظ الذين يتخرجون من تلك المدرسة.

٣- تنظيم داخلية التلاميذ في طعامهم وكسائهم وكتبهم؛ بأن تقوم بها البطركخانة، حتى لا يهتم التلاميذ بأمر غير الدروس.

وهذه من غير شك مطالب عادلة ومعقولة، ولكن أصحاب الشأن لم يهتموا بها ولم يظهروا استعداداً لإجابتها. فأغتصب الطلبة وأضربوا عن تلقي الدروس، فطردتهم البطركخانة. ولما لم يجدوا من ينتصر لهم اضطروا إلى الرجوع إلى مدرستهم صاغرين. فألفت لجنة لمحاكمتهم، أو على الأصح لمحاكمة الطالب «ملطى».

وأنتهى الأمر بالعمو عنهم. وطلبوا من ملطى أن يتزوج ليرسموه قسيساً.

وفي سنة ١٩١٣ سافر إلى الخرطوم، وهناك أصدر مجلة «المنارة المرقسية» وأخذ يقارن بين نشاط الإرساليات الأجنبية في مصر والسودان، وما أنشأته من مدارس وملاجيء ومستشفيات ومكتبات. وبين تأخر طائفة الأقباط الأرثوذكس.

على أن الموازنة بين نشاط الإرساليات الأجنبية وتخلف الهيئات الأرثوذكسية موازنة غير سليمة. فهذه الإرساليات جاءت بإيعاز من الحكومات التي تتبعها لأغراض سياسية. وكانت هذه الحكومات تمددها بالأموال الطائلة. وكانت تتمتع بالأمتيازات الأجنبية، وتمنحها الحكومات المحلية في مصر والسودان الأراضي الواسعة دون مقابل إرضاء للدول التي ينتمون إليها. فماذا يفعل الأرثوذكس الفقراء بإزاء هذه الإرساليات؟

وتكلم «سيرجيوس» عما رآه في أنحاء السودان من انحطاط الروح  
الديني بين الأقباط لضعف رجال الدين وجهلهم. وأبان الخطر المحدق  
بالكنيسة الأرثوذكسية من جراء تعميم مبدأ الرهينة في جميع الوظائف  
الكهفوتية. وشرح بعض عيوب الكنيسة.

وحركة سرجيوس هذه ظهرت في نفس الوقت الذي ظهرت فيه  
حركة الإصلاح عند المسلمين التي كان يتزعمها الشيخ محمد عبده.

\*\*\*

ولما حضر سرجيوس إلى القاهرة في إجازة أصدرت البطريركية  
أمرها بإيقافه عن عمله ومحاكمته أمام المجلس الإكليريكي في ٣-١٠-١٩١٣  
وكانت التهم الموجهة إليه هي:

١- سيعه في تقسيم أبناء الكنيسة إلى قسمين، وأستعانت به بأحدهما ضد  
الآخر لتنفيذ مآربه.

٢- أباح سر الاعتراف،

٣- تداخل في العائلات تداخلاً لم يكن الغرض منه نشر السلاح  
والصلح، بل بذر بذور الخلاف والشقاق والخصام.

٤- إصداره مجلة تدعى المنارة المرقسية، وأستعمالها ليس للتعليم  
والإرشاد ونشر العقائد الأرثوذكسية، بل بالعكس جعل دأبه الطعن

والتحقير على طقوي وتقاليد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بعبارات شائعة.

٥- تشهيره بحضرات الآباء المطارنة والأساقفة والرهبان، وباقي رجال الإكليروس في المجلة، وفي خطبه ومواعظه.

\*\*\*

وقد أوشكت هذه القضية أن تحدث فتنة بين الأقباط في مصر والسودان. وهدد بعضهم بإعلان العصيان السلمي على رجال البطريركية. وأخيراً تدخل حاكم السودان في ضبالموضوع، فقبل البطريرك أن يعفو عن «سرجيوس» بعد أن يعتذر عن أستعمال الشدة فيما كتبه ضد رجال الدين. وأعتذر، وأنتهى الموضوع.

\*\*\*

ودعا بعض الأقباط إلى وجوب إلغاء الأديرة والرهبنة. لأن الظروف التي نشأت فيها الأديرة قد أنتهت. فالأديرة نشأت نتيجة لاضطهاد عنيف كان يصيب المسيحيين، فاضطروا إلى الهرب والسكنى بعيداً عن الحكام.

وكتب بعضهم منادياً بوجوب زواج البطريرك والأساقفة والمطارنة. وقد أنضم القمص سرجيوس إلى هذا الفريق.

## مشكلة الأوقاف القبطية:

على أن أهم مشكلة قامت بين الأقباط هي مشكلة الأوقاف. وقد كان النظر في أمر هذه الأوقاف محصوراً في شخص البطريك بناء على الفرمانات الشاهانية التي أعطت الطوائف المسيحية في الدولة العلية الأستقلال في إدارة أحوالها الشخصية.

وفي سنة ١٨٨٣ تغير مركز البطررك، وأنتقلت منه السلطة إلى مجلس تحت رأسته. على أن هذا الأنتقال لم يدم طويلاً، لأن الحركات التي قام بها الأقباط في سنوات ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩ بشأن موضوع الأوقاف أتخذت شكلاً عدائياً لشخص البطررك، لم تظهر نتيجة لهذا النظام. وأنتهى الأمر بأن عدل بمرسوم صدر ١٩١٢ وقد أعاد هذا المرسوم السلطة إلى البطررك في معظم الأوقاف.

وحدث بعد ذلك أن تحول ديوان أوقاف المسلمين إلى نظارة سنة ١٩١٣ فهاج بعض الأقباط وتحرك فيهم الميل إلى انتزاع أوقافهم من يد الإكليروس. فأيد بعضهم فكرة ضم الأوقاف إلى الحكومة، وعارضها بعضهم الآخر.

وأشدت الجدل بين أنصار الإكليروس وخصومه على صفحات الجرائد والمجلات. وتبودلت التهم، وكثر التشنيع على رجال الدين وبخاصة الرهبان وكتبت مقالات كثيرة تتناول حياتهم الخاصة وسلوكهم بالظعن والتجريح.

فمن ذلك ما كتبه مجلة «فرعون»<sup>(١)</sup> لصاحبها توفيق حبيب (١٨٨٠-١٩٤١) سنة ١٩١٣ «وقد ظهر أن أجد رؤساء الأديرة بدد خلال أعوام قليلة مائة وستين ألف جنية. ولما طلب منه أن يقدم مستندات الصرف لم يقدم إلا بما قيمته أحد عشر ألف جنية، والباقي أتضح أنه ذهب إلى حيث لا يعلم بمقرها غير الله سبحانه وتعالى».

«وليست هذه الحادثة هي الوحيدة، بل وقعت حوادث كثيرة من هذا النوع من جميع الأديرة».

\*\*\*

وكان رأي رجال الإكليروس ينحصر في أن أوقاف الأديرة يجب أن تبقى للأديرة، لأن شروط الواقفين نصت على ذلك بصريح العبارة. وقالوا أن أملاك الأديرة جمعها الرهبان بعرق جبينهم من عمل المقاطف والحصار والصلبان التي كانوا يبيعونها ويقبل الناس على شرائها على سبيل التبرك.

\*\*\*

وقد وجهت جمعية الإخلاص القبطية إلى المسيحيين الأرثوذكس رسالة<sup>(٢)</sup> جاء فيها:

---

(١) عدد أكتوبر سنة ١٩٩٣،

(٢) الوطن في ١٩١٣/٩/٥، ١٩١٥/٨/٧.

«تعلمون حضراتكم أن مسألتنا الطائفية، وعقدة العقد، وعقبة العقبات عندنا هي مسألة الأوقاف، وحق لها أن تكون كذلك. إذ هي تلکم الأموال الطائلة، والكنوز الثمينة، والخيرات الكثيرة التي تضيع هباءً منثوراً بين أيدي نفر قليل من رؤساء الأديرة، لا يشبعون جوعاً، ولا يروون ظمأً»،

«ولو صرف جزء منها في وجهه لما شكا فقير عوزاً، ولا حرم تلميذ علماً، ولما أعوز مريض دواءً، ولما رأينا راعياً دينياً جاهلاً. حينذاك تقر العيون الباية، وتتلج الصدر المكتئبة. أما وجود هذه الأموال الطائلة في أيدي الرعاة الدينيين فمدعاة إلى إهمال واجباتهم المقدسة، والتفرغ إلى إدارة شئونها مما لا يجعل لديهم مجالاً للتبشير والعبادة. وقد ورد في الإنجيل: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين: الله والمال».

وأخذ بعضهم يوازن بين الدور الإيجاب الذي تقوم به وزارة أوقاف المسلمين بإزاء المنشآت الإسلامية، والدور السلبي الذي يقوم به المشروفون على الأوقاف القبطية بإزاء أبناء الطائفة. فكتب أحدهم تحت عنوان <sup>(١)</sup> «أوقافهم وأوقافنا» مقالاً جاء فيه:

«أيتها المدرسة الإكليريكية. يا منبع العرفان، ومهد اللاهوت، ومطلع شمس حقائق الدين. لقد ظلموك فبخسوك حقك، وغضوا أبصارهم عنك، فتضاءل شعاع نوزك».

(١) الوطن في ١٩١٣/٩/٦، ١٩١٥/٨/٧.

«أنت عروس مدارسنا، وزينة معاهدنا. عشقناك فلم تتدَلِّي، وُحنا لك بما بين الجوانح فِعطفت علينا».

«أنت المورد السائغ الذي نرتشف منه كئوس الدين، والمَعين الذي منه نستمد اليقين، والقرص الذي يرسل شعاعاً يهدي الضالين. فأنت جدير بالعباية، حقيقة بالإصلاح. ولكن أهملوك فحُنا عليك أن ينضب مَعينك، ويخبو نور علمك؛ فَنُساء فيك وأنت عزيزة علينا».

«حدا بنا إلى ذلك ما قالته الجرائد من أن وزارة الأوقاف تمد دار الوعظ والإرشاد التي أسسها صاحب مجلة «المنارة» بخمسمائة جنيه في العام تتعاون بها على إصلاح حالها لتخرج للأمة الإسلامية الكريمة وعاظاً يقوِّمون الأخلاق، ويحضون على التحلي بالفضائل».

«فبماذا تمد أوقافنا المدرسة الإكليريكية وهي التي تعلق الطائفة عليها الآمال في تخريج الوعاظ الأكفاء الذين ينهون عن الرذائل ويحضون على الفضائل؟».

\*\*\*

وقد رفع إبراهيم حنين البباوي قصيدة إلى بطرس باشا غالي سنة ١٩٠٩<sup>(١)</sup> جاء فيها.

هيات أن يتولَّى عزمك الكَللُ  
أو أن يسود على نفسك المَللُ

---

(١) الوطن في ١٥/١١/١٩٠٩.

فأنت أنت ولا أطريك ذو همم  
ولستُ أجدك الرأي السديد فلم  
وكم وكم لك في حلّ المشاكل من

شّماء سار بها يا بطرسُ المثلُ  
يزلُّ يُحدّث عنه الحادث الجللُ  
علم غزير به قد أعجبت دُولُ

\*\*\*

أجل! فما ترى في حال طائفة  
في كل يوم لها شكوى ونحن بها  
ماذا تقول؟ وماذا ترتبه لها  
هذا الذي كانت الأقباط تُشُدُّه  
ولم يُعدّ قط من نفع نُؤمّله  
يشكو لك البعض من أعمال بطركنا  
شابت نواصيه من أفعالهم هلّعاً  
حال يفضيض لها حزنا إذا ذُكرتُ  
يُغيريهم البعض مدفوعاً وما علموا  
إذا كتبنا فوجّهنا نصيحتنا  
أو إن خطبنا فقلنا الأتحاد به  
سل إن أردت فقد تُنيك قاعتهم  
وكم وكم من مرار عدة خرجوا  
هُمُ ونحن إذا رحنا نعاتبهم  
وهكذا سادت الفوضى ويا أسفي  
وهكذا أصبحت في مصر سيئةً  
مولاي أمرك بعد الله محترم

تكاد تودي بها الأسقام والعِللُ؟!  
ندري وأنت بها أدرى فما العمل؟  
في أمر مجلسها الملىّ يا بطلُ  
واليوم قد دبّ في أعضائه الشللُ  
فيهم ولا سيما بعد الألىّ اعتزلوا  
وليت شعري ماذا يفعل الرجل؟!  
وكاد بُدرك هذا المجلس الأجلُ  
قلبي ويمعني من ذكرها الخجلُ  
بأنه الذئب يبغى الشرّ لا الحملُ  
بالاعتدال لهم قالوا به خبلُ  
وفيه خير لكم غصّوا وما قبلوا  
كم مرة حضروا أو كم قد أكتملوا  
منها ولم يفعلوا شيئاً كما دخلوا  
يوماً عتابَ غيورٍ مخلصٍ حملوا  
حتى لقد سخرت من حولنا المللُ  
أحوالنا ولقد ضاقت بنا الحيلُ  
فينار وإنّا له لا ريب نمتثلُ

فَمُرُّ بِمَا شِئْتَ نَفْعُهُ عَلَى عَجَلٍ  
وَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي عَهْدِ الْوَزِيرِ بِنَا  
فَكَّرَ وَدَعَّنِي فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي

وقال (١):

عَلَامَ الْخِلَافِ؟ وَفِيمَ الْعِنَادِ؟  
أَمَا آَنَ أَنْ يَتَصَافِيَ الْكِرَامُ  
أَمَا آَنَ أَنْ تَتَأَخَى جَمِيعاً  
صَلُّوا إِنْ جَهَلْتُمْ وَلَا تَغْضَبُوا  
كَفَى الْأَنْفَسَامَ وَيَكْفِي الْجَفَا  
كَفَانَا جَدَالاً فَلَيْسَ بَعْدَلُ  
أَبْرِضِيكُمْ الْحَالِ أَنَا غَدُونَا  
أَبْرِضِيكُمْ أَنْ نُعَابَ وَأَنْتُمْ  
سُؤَالُ مَهْمٍ وَأَمَا الْجَوَابُ  
وَإِلَّا فَإِنِّي لَزِمْتُ الْحِيَاذُ

وقال (٢):

تَرْوَحُ فَلَا غَيْرَ قِيلٍ وَقَالَ  
فَمَاذَا تَظُنُّ إِذَا الْأَمْرُ دَامَ  
إِذَا مَا أَخْتَلَفْنَا فَمَاذَا عَسَاهُ  
أَلَيْسَ بَوَاراً؟ أَلَيْسَ بَعَارُ

إِنِّي أَرَى هَهُنَا لَا يَحْمِلُ الْمَهْلُ  
أَلَّا نَفُورَ، وَأَنْ لَا يَدْرِكُ الْأَمْلُ  
أَدْعُو بِتَوْفِيقِكَ الْمَوْلَى وَأَبْتَهْلُ

فَإِنَّا ضَلَلْنَا طَرِيقَ الرِّشَادِ  
وَيَرْعَوْنَا عَهْدَ الْوَلَا وَالْوِدَادِ؟  
لِنَحْظِي بِنَيْلِ الْمُتَى وَالْمَرَادِ؟  
وَقُولُوا مَتَى الْأَنْشِقَاقُ أَفَادِ؟  
بِحَقِّ الْجَدُودِ وَرَبِّ الْعِبَادِ  
وَلَا مِنْ صَوَابٍ وَلَا مِنْ سَدَادِ  
حَدِيثَ التَّهْكِيمِ فِي كُلِّ نَادِ؟  
رَجَاءٌ لِأَمْتِكُمْ وَاعْتِمَادِ؟  
فَأَكْبَرُ ظَنِّي يَشْرُ الْفَوَادِ  
وَكَنتَ بَوَادٍ وَأَنْتُمْ بَوَادِ

وَتَغْدُو وَلَيْسَ سَوَى سَوْءِ حَالِ  
عَلَى مَا تَرَاهُ وَطَالَ الْمَطَالِ  
يَكُونُ الْمَصِيرُ بِنَا وَالْمَالِ؟  
أَلَيْسَ دِمَاراً؟ أَلَيْسَ وَبَالِ؟

(١) الوطن في ١٠/٣/١٩٠٨.

(٢) الوطن في ٣٠/٣/١٩٠٨.

تقول صحيح، فهل هكذا  
وهل هكذا يعمل المصلحون؟  
بمِيد، بعيد، وألف بعيد  
وكنتُ اقطع جبل الرّجا  
ولكنني خفت من أن تقول  
وأنت الذي قلت لي فلـ  
وأنت الذي قد أجزت المقال  
فأرجوك بالله يا سيدي  
أصلح يا هؤلاء جميل  
أصلح فننسى عليكم ونهدي  
وإلا خلاف نويتم عليه  
وأعرب عن شر آمالكم

تكون فعال كرام الرجال؟  
وهل هكذا المكرمات تُنال  
مُحالٌ محالٌ وألف مُحالٌ  
ءِ وأطلبُ من ساعتِي الأعتزالِ  
دعوه ولم يستطع فأستقال  
وف تراني صبوراً على كل حال  
وأفسحت للأدباء المَجال  
لتنشر لي اليوم هذا السؤال  
ويكفيكم ما مضى من جدال  
إليكم عقود الثنا من لآل  
فأعلن رأبي بخير مقال  
وعما تريدون غير مُبال

وكانت مشكلة الأوقاف هذه سبباً في عزل الأنبا كيرلس الخامس  
ونفيه إلى الدير سنة ١٨٩٣ حيث بقي مدة، ثم سمح له بالعودة إلى  
مباشرة أعمال منصبه. ولما عاد أكثر شعراء القبط من مدحه، وقوبل عند  
وصوله إلى محطة القاهرة مقابلة حافلة من أنصار الإكليروس وكذلك  
كانت سبباً في عزل الأنبا يوساب سنة ١٩٥٥.

وفي ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٠ صدر قرار جمهوري بتنظيم  
الأوقاف القبطية نص على استبدال الأراضي الزراعية الموقوفة على

جهات البر العامة. وأستثنى القرار من أحكام قانون أستبدال الأراضي الموقوفة على جهات البر:

الأراضي الموقوفة على بطرك وبطيركية الأقباط، والمطرانيات، والأديرة، والكنائس وجهات التعليم القبطية، وذلك فيما لا يتجاوز مائتي فدان لكل جهة. ومثلها من الأراضي البور. وتدير هذه الأوقاف هيئة تسمى «هيئة أوقاف الأقباط الأرثوذكس» برياسة البطريك.

\*\*\*

ونادى بعض الأقباط بوجوب إلغاء المجالس المليية ومحاكم الأحوال الشخصية للأقباط. فكتبت صحيفة «الوطن» في ١٥/١/١٩١٥ تقول: «ظهر رأي يقول إن الطوائف المسيحية لا حاجة لها بمجالس مليية، أو بقضاء شخص مستقل عن القضاء العام، لأن المجالس المليية، أو نظام البطريكخانات ما هو إلا نتيجة إخلال الأحكام في الدولة العثمانية وعدم الثقة في إمكانها حكم رعاياها المختلفي الأديان على نظام عادل واحد ينفذ على الجميع. وما دام أن علة ذلك النظام قد زالت من مصر؛ فأحر بالنظام نفسه أن يزول هو أيضاً».

ولكن قضاء الأحوال الشخصية بقي في يد البطررخانة حتى سنة ١٩٥٥، إذ صدر قرار يجعله من اختصاص المحاكم الوطنية، كما ألغيت المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين.

## العلاقات بين المسلمين والأقباط

### وأثرها في الأدب القبطي

حينما أشدّت الحركة الوطنية أدرك الإنجليز مبلغ الخطر الذي يتعرضون له من جراء تلك الحركة. ورأوا من صالحهم أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد، ويوهموا الأقلية بألا حياة إلا في ظل الأحتلال. فالأحتلال وحده هو الذي يحميها من خطر الأكثرية، ويضمن لها كافة حقوقها.

فإذا أنقسمت الأمة إلى معسكرين، وأنشغل كل معسكر بمهاجمة الآخر، نصرفوا جميعاً عن المطالبة بالأستقلال والجلاء، وهكذا يضمن الإنجليز لنفوذهم البقاء والخلود في وادي النيل.

وقد وجد الإنجليز في بعض الأقباط من يأتّم بأمرهم، ويضع نفسه في خدمة سياستهم. فبدأت صحيفة مصر في مايو<sup>(١)</sup> سنة ١٩٠٨ تنشر مقالات تهاجم فيها المسلمين هجوماً عنيفاً. مثال ذلك ما نشر بإمضاء «ناطق بالحق» وجاء فيه:

«... فيظهر من كل ما تقدم أن الأقباط هم المصريون الحقيقيون أصحاب البلاد بكل معنى الكلمة. وأن جميع الذين وطئت أقدامهم

(١) مصر في ٢٢-٥-١٩٠٨.

أرض مصر من بدء الإسلام إلى اليوم سواء من العرب، أو الترك، أو الفرنسيين، أو الإنجليز ليسوا في الحقيقة إلا احتلاليون».

«وأن الأصل في الوطنية هو للأقباط بلا نزاع، فهم دون سواهم حافظوا على جنسية آبائهم وأجدادهم المصريين الحقيقيين، وعلى دينهم أيضاً. فعجيب أن يرى القبطي نفسه مضطراً إلى ترك هذا الدين الذي حافظ عليه في أظلم الأوقات».

«فإذا قال قائل إن البلاد إسلامية؛ وجب أن يعد مارقاً عن الوطنية. وإن قولاً كهذا جعلنا نسمى البلاد عن حق بلاداً قبطية، والتاريخ أعظم مؤيد لهذا القول».

«وفي الواقع ونفس الأمر إن تسمية البلاد إسلامية فيه درس لحقائق الأقباط، وأمتهان لهم في بلادهم مما لا يرضاه واحد منهم».

ويلاحظ هنا أن الكاتب تجاهل الأستعمار الروماني الذي خضعت له مصر أربعمئة سنة. وتجاهل الحقائق التاريخية التي يظهر منها وقوف الشعب القبطي موقفاً سلبياً من الفتح العربي، فلم ينهض لمقاومته بل سارع إلى الترحيب بالعرب. وأما ديانة آبائهم وأجدادهم فلم تكن المسيحية، وإنما كانت الوثنية.

\*\*\*

وكانوا يأخذون على المسلمين اهتمامهم بالشئون الإسلامية،  
وعنايتهم بتعرف أحوال إخوانهم في البلاد الأخرى. وحاربوا فكرة  
الجامعة الإسلامية لأنها كما قالوا تتنافى مع فكرة الوطنية. فكتب أحدهم  
تحت عنوان «لا وطنية مع الدين، ولا دين مع الوطنية» مقالاً جاء فيه:

«إنك إذا فتحت كل الصحف الوطنية في أي يوم شئت، وأية ساعة  
أردت؛ فلا ترى فيها ولن ترى إلى ما شاء الله شيئاً عن أحوال مصر،  
والطرق الموصلة لرقبها وأستقلالها؛ مما تراه فيها وستراه إلى يوم القيامة  
من الرسائل الممتلئة حماساً وشعوراً في ذكر الإسلام والمسلمين في  
الهند والصين، وفي أفريقيا وأوربا، والأسباب الموجبة لاتحادهم والدافعة  
ليصلوا إلى عز لا يداني، ومجد لا يرام. إذا رأيا ذلك ألا يأخذك العجب؟  
ألا تقول لنا: هيهات إن أفلحتم ما دتمم مشتغلين بأمر غيركم  
وشئونهم».

ثم تكلم عن الخطابة السياسية فقال.

«فإذا خطب أحدهم خلط بين الدين والوطنية، فجعل الوطنية  
المصرية عبارة عن الجامعة الإسلامية».

\*\*\*

على أن أشد ما وجه إلى المسلمين من المطاعن ما جاء في مقال  
كتبه قبلي مغمور اسمه فريد كامل، ونشرته «الوطن» في  
١٩٠٨/٦/١٥ وهو:

«مضت دهولا، وكرت أحقاب، والظلم سائد في العالم، والعبودية محكمة في الأعناق. والناس يئنون من نير الخسف والأسترقاق حتى في ظل المدنية، وتحت ستار الحضارة، وفي نفس بلاد النور والعلم، وباسم القوانين والنظامات الدستورية».

ثم قال:

«فإذا رجعت إلى تاريخ الإسلام في عهد زهوه وعزه، وعظمته ومجده، وأردت أن تستخرج من الدفائن المكنونة سر ذلك العز الخالي، وسبب تلك العظمة البالية، وكشفت مواطن الرجال الذين قاموا بالفتوحات، وأطلعت على دخائل وخفايا القلوب والسرائر في تلك الأيام الماضية؛ لعرفت ان الأثرة هي التي أراقت الدماء، وأن الأناية هي التي أزهدت الأرواح وطوحت بالمهج الغالية في هوة البوار. ولأدركت أن الأعتزاز بالقوة، والأستهتار بالضعف هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسمونه مجد الإسلام».

«ولا شك أن دول أوروبا المسيحية، ومملكة اليابان الوثنية هي أيضاً تعمل عمل الإسلام في هذه الأيام، فتسطوكل منها على الأمم الضعيفة وتنزع منها نعمة استقلالها بدعوى أنها تجود عليها ببركة المدنية فلا تلبث قليلاً حتى تحكم قدمها في الرقاب، وتنشب في أحشائها الأظافر والأنياب».

ثم ختم مقالته بهذه العبارة «ليصعق المخالفون فكفاهم تعدياً للإنسانية. كفاهم تمزيقاً لجسمها، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية، وليسقط المنافقون والمكابرون».

\*\*\*

كان هذا المقال دافعاً الشيخ عبدالعزيز جاويش إلى كتابة مقاله الشهير المنشور تحت عنوان «الإسلام غريب في بلاده» في اللواء بتاريخ ١٦/٦/١٩٠٨ وهو:

«أتت جريدة الوطن أول أمس بجريدة عظيمة ضاعفت بها سخط الناس عليها. فقد لوثت في ذلك اليوم صفحاتها بما اعتادت أن تلوث به وجهها كل يوم من قاذورات المطاعن، وأدران المسالب جاءت بتلك المقالة لذلك الكويقب الذي شهر بنفيه كل التشهير بما سجل عليها من الجهل بالتاريخ، والكفران بنعمة الإسلام عليه وعلى أسلافه. إذ لو كان الإسلام على ما جاء في تلك المقالة؛ لما سمح لفريد كامل وصاحب الوطن أن ينتقلا من أصلاب إلى أرحام حتى ظهرا في ذلك الزمن بأرواح شيطانية تقمصتها أجسام بشرية».

«انتشلكما الإسلام أيها الجاهلان من أيدي الروم بعد أن عبّدوكما القرون العديدة، وأنتما كالأنعام تتداولكما الأيدي بالأستخدام، والألسن بالسب، والأرجل بالضرب».

«رميتم بأنفسكم في أحضان الإسلام فحقن دماءكم، وأستحيا نساءكم وأولادكم، وذاد عن حياضكم. ولو كان الإسلام كما ذكرتم لسحقكم سحقاً، ولمحققكم محققاً، ولذرى بقايا رفاتكم في الهواء، وطهر الأرض المصرية من طلعتكم السوداء، ولا ستأصل ألسنتكم فلا تنطقون، وفري أصابعكم فلا تكتبون. ولكن قبلتم عهده فأواكم، وأخذتم بدمته فأيدكم بنصره، وألحقكم بأهله، إذ جعل لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم. ثم أباح لكم أن تتولوا تدبير أحكامكم والقضاء فيما بينكم إلا إذا تراضيتم أن ترفعوا بعض شأنكم إلينا مختارين أحكامنا، راضين قضاءنا. فكيف إذن تتعذب الإنسانية كما تقولون أيها الأغبياء بين أناس ذلك دينهم الذي يدينون له، وشرعهم الذي يعملون به؟؟».

«أقمت في أحضان الإسلام زهاء ثلاثة عشر قوناً يعلمكم وينميكم حتى أزداد عددكم، وأمتلأت بالمال خزائنكم. ولو كنتم عشتم ربع ذلك الزمن مع الإنجليز لألحقوكم بالجنس الأحمر في أمريكا، والصف الأسمر في أستراليا. فكنتم اليوم كالحوانات العجم في الفنادق والقفاز، ترعون الكلاً، وتأوون إلى الكهوف».

«ولو كنتم من رعايا الملك ليوبولد في بلاد الكونغو لاتخذ من شعوركم حبلاً، ومن جلودكم نعلاً، وازق أجسامكم بالسياط وأنتم ترسفون في الأغلال، وتنوءون بالأحمال الثقال. ولو كنتم من أيرلندا لبذكم الإنجليز نبذ الحذاء الخلق، ولأخرجوكم من دياركم مهينين مقهورين».

«عشنا في هذه البلاد دهرًا طويلاً فكنا كما شاء لنا الإسلام إخواناً في الوطنية، شركاء في المرافق الحيوية، نتجاوز ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر ونتناصر. فما الذي بدل شئونكم وجعلكم غير ما كنتم؟ ألعلمكم رأيتم المحتلين على دينكم فأردتم أن تبيعوا منهم بلادكم ودممكم، وتلقوا بأيديكم إليهم؛ لتقطعوا تلك الأوصال التي أرتبنا بها القرون العديدة. كذلك فليفعل الخونة المارقون!».

«علت صيحتكم حتى بلغت عنان السماء؛ تريدون التسوية في المناصب العالية الإدارية. وتقولون إن الإسلام هو الذي ذلكم وعبدكم، وحرمكم من تلك المراكز السامية. ثم تبجحتم فوصفتهم المسلمين بالضعف والذلة والمسكنة ثم تهدتموهم أن آن أوان القصاص منهم».

ثم ختمها بقوله:

«اخسأ أيها المستهتران فإن أمامكما لحسابا إن أغفلته الحكومة فإن من ورائه أحد عشر مليوناً من المسلمين لا يفرطون فيه».

«وها نحن أولئك قد نبهنا الحكومة إلى واجباتها، وذكرناها بقانونها وحذرناها عاقبة التلكؤ والتباطؤ، فإن عليها من المسلمين جميعهم لرقيبا، وكفى به حسيبا».

\*\*\*

وقه هذا المقال على المسيحيين وقوع الصاعقة. قالت صحيفة الوطن في ١٩-٦-١٩٠٨:

«وقعت كتابة الشيخ عبدالعزيز جاويش رئيس تحرير اللواء وقعاً أليماً على كل إنسان حساس، ونفس حرة، وضمير شريف. وأصيب المسيحيون في كل مكان بذهول شديد من جراء المريع على أذهانهم، لتمثيلها بشرفهم تمثيلاً فظيماً، ولأنها أنغمست في بؤوة الرذائل والفساد والتعصب. فأخرجت للناس حاوية لكل قبيح من اللفظ، دالة على كل فساد في التربية، ونذالة في الأخلاق، ورداءة في الطباع، وخسة في النفوس».

«إن المسيحيين في مصر الذين لم تر أعينهم في أجيال الأضطهادات القديمة وجهاً أسوأ من وجه ذلك الإنسان، ولا وقرت أسماعهم أقوالاً تضاهي الأقوال الأخيرة في قلة الحياء والأدب؛ صعقوا من تلك القبائح والمنكرات، ووطنوا أن بالرجل مساً من الجنون، أو أنه كتبها وهو في ذهول، بعيد عن الصواب».

«هاج الناس وماجوا طالبين مقابلة الشيرير بشره، ورد مفاسده إلى نفسه تخليصاً لما ألقى به بشرف أسياده من الإهانة والعار. ولكننا نقول لهم إننا مهما أبتعدنا من الأدب، ومهما فتشنا في قواميس السفاهة والقباحة فلسنا نجد نقطة من بحر ذلك الذي جاء من كلية «أكسفورد»

أستاذاً في الهجوم والظعن، وشيخاً في السب واللعن. وأصبح بقاؤه في أرض مصر عاراً عليها، وعلى بنيتها المسلمين قبل الأقباط».

«إن هذا الدخيل الذي قذفته إلينا بلاد تونس؛ أظهر كوامن حقه، وهو ينفث سموم تعصبه ضد المسيحيين المصريين بأقوال مثيرة للخواطر، محرّضة على الفتنة؛ تدل على أنه راغب في إبادتهم عن آخرهم، آسف على بقاء الباقين منهم إلى الآن».

\*\*\*

وهاجم «أخنوخ فانوس» الشيخ جاويش هجوماً مرّاً في مقال نشرته «الوطن» بتاريخ ٩-٧-١٩٠٨ جاء فيه:

«... فإذا كان الرومان قد عبّدوا مصر، وهي محط العلم والفلسفة والمدنية الباذجة، وتناولت أيديهم وأرجلهم الأقباط بالضرب؛ فقد فعلوا بأجدادك أكثر مما فعلوا بالقبط. لأن قومك معروفون في تاريخ الأمم بالبربر، وهم أخلاط أقوام لا مجد لهم ولا سلطان. وقد تولى السيادة على قومك: الأسيان وغيرهم حتى فتح بلادكم الإسلام. وقد صبرنا على ديننا، وأما قومك فلم يستطيعوا على دينهم صبراً، فباعوه قبل أن يسلموا فيه سبياً».

«فإن أعتبرتم أحتضان الإسلام للأقباط تعبيراً؛ فقد أحتضنكم كما أحتضنتم».

وقال الكاتب إن الشيخ جاويش ليس قرشياً، وإنما هو من البربر،  
لأن سحنته تدل على ذلك. ثم قال:

«وأما إن حسبت للدين فيه مزية تفاضل وفخار لمن دان به؛ فأنت  
اليوم في هذا مرجوح لا راجح، حيث تسود المسيحية على جميع بقاع  
الأرض بسلطانها ونفوذها. ولو نسينا شأننا الوطني كما نسيت، وفاخرنا  
كما تفاخر الصلحاء بشعر بنت خالها، وكما فاخرت؛ لهزنا عليك  
أعطاف الخيلاء الباطلة كما هزرت. وما كان لك إلى دفع نيرها من  
سبيل».

«بماذا تفاخرنا يا هذا وقد ساد عليك وعلى قومك الإفرنج؟ وفي  
فمكم الكمامات، ترزحون تحت الأثقال ولا يفسح لكم أن ترغوا. فأين  
كان أسدكم الرابض يوم ناحت بكم النوائح، وبكت العيون؟».

«سلمتوها وأنتم صاغرون تضط مفاصلكم جزعاً، وترجف قلوبكم  
وجلا. فلم ترفعوا في وجوههم عصاً تبدو بها أثر الحية عن حمى أودار  
أوذمار فبأي وجه لنا تُعيرون؟»

«إن أسيراً مثلك ومثل قومك كمثلنا، وذليلاً كذلنا، ومقهوراً كقهونا؛  
لأحق أن يبكي مع بكائنا، وينوح مع نواحننا، لا أن يقف على تل باطل  
يقارينا ويطاولنا ويفاخرنا؛ وهو مثلنا أعزل؛ لا قوة له ولا طول ولا فخر.  
فإن ذلك أدعى لحنان رب السماء عليه وعلى قومه من الوقوف موقف

عُتُوَ كاذب، وزع خائب. تلبس جلد الأسد، وتهجم علينا مكابرة، عتوا  
وجبراً بلا داع للهجوم».

والحق إن الشعب التونسي لم يستسلم للأحتلال الفرنسي، بل ظل  
يجاهد حتى ظفر بأستقلاله. ولبث محتفظاً بقوميته ولغته ودينه على الرغم  
من المحاولات الكثيرة التي بذلها المحتلون للقضاء على كيانه  
وشخصيته.

\*\*\*

وقد سعى عقلاء الأمة من الفريقين لوضع حد لهذه الخصومة التي  
لا تعود على أحد بفائدة. فعقدت اللجنة الإدارية للحزب الوطني في  
١٩٠٨/٦/٢٠ وأصدرت قراراً جاء فيه:

حيث إن عقلاء العنصرين أظهروا أستعدادهم للاتفاق، وأنهم لا  
يجدون محلاً للمناقشات الداخلية بين عنصري الأمة؛ الأمر الذي  
يمقتونه من أعماق قلوبهم؛ فبناء على ذلك:

«يعلن الحزب الوطني الأمة المصرية على اختلاف أديانها أنه لا  
يوجد شقاق بين عنصريها. وأن كل جريدة وشخص مهما كان دينه يشير  
الخواطر بنشر الطعن على الأديان، أو على أي عنصر من عنصري الأمة  
المصرية، أو يطلب ما يكون من ورائه إيجاد البغضاء والشحناء بين  
عناصر الأمة؛ هو وحده المسئول عن عمله؛ قهو لا يعبر إلا عن فكره  
الخصوصي».

«والحزب الوطني؛ كما هي مبادئه؛ يمد يده لجميع المصريين من أقباط ومسلمين وإسرائيليين، ويدعوهم إلى الانضمام للمطالبة بحقوق الأمة من معتصبيها، ويرجو الجميع أن يغلق هذا الباب».

ونشر فريد كامل مقالاً حاول فيه أن ينفي عن نفسه تهمة الطعن في الإسلام تحت عنوان: «وجادلهم بالتي هي أحسن» جاء فيه:

«لا يعجب اللواء إذا رأني أتوج ردي بهذه الآية الماثورة لأني قد أكون أعرف منه وألم بآداب الإسلام في الجدل. ولأني أريد أن يقابل القراء بين ما أكتب أنا اليوم، وما كتبه هو بشأن مقالتي التي نشرتها بعنوان «الإنسانية تتعذب» فيدركون أن هناك فرقاً بين أدب الكاتبين، وأدب الكتائين».

«زعم اللواء بأن مقالتي تضمنت طعنًا في الإسلام، وتحقيراً لشأنه. فإن كان يعني بالإسلام: الدين الإسلامي، فقد أخطأ في الفهم، وتسرع في الحكم، لأن عنوان المقالة ومتمها وتضاعيف سطورها خالية من ذكر الدين ظاهراً وباطناً».

\*\*\*

«إني لا أريد أن أحاسبه على أقواله التي قذف بها من حالق أدبه، فتخطت دائرة الأدب. ولا أريد أن أقابله بمثل ما يستحق أن يقابل. ولكني أقول: إن مجد الإسلام لا يقصد به مجد الدين، بل مجد الدولة. والقرائن الدالة على هذا القصد جلية في المقالة كلها من أولها إلى

آخرها. بل هو لو سمح لذاته بمراجعتها لوجد أني عطفت حالاً على الدول المسيحية، ودول اليابان الوثنية، وقلت عنهما ما قلت عن دول الإسلام، من حيث إن هذه الدول جميعاً في ماضيها وحاضرها سواء تعزز بقوتها، وتغتر بسلطانها فتكتسح الأمم الضعيفة».

«ولو كنت أريد الطعن في الإسلام؛ وحاشا لله أن أفعل ذلك؛ لما ألحقت به المسيحية والوثنية. وأنا فضلاً عن كوني مسيحياً أحترم الأديان، وألوم بشدة كل من يعرضها في سوق الجدل والمناظرة».

\*\*\*

وأخذ بعض الشعراء من المسلمين والنصارى ينظمون القصائد في الدعوة إلى المحبة والاتحاد، وترك الخصومة، والتخلي عن الأحقاد. فمن شعراء المسلمين الذين قاموا بهذه الدعوة عبدالرحمن شكري. قال:

\*\*\*

(١) الوطني ١٩٠٨/٦/٢٠

بنى البهايل من علياء شاهقة  
إذا تناءى بكم عن مجدنا نسب  
إن التآلف لم يترك لنا نسباً  
ومحتد الصيد لا تمشي له الرئب<sup>(١)</sup>  
فأنتم في مراقي مجدكم عرب  
يلوي بكم دوننا من دونه نسب

---

(١) البهايل: جمع بهلول وهو السيد.

أما وقومي وقومي خير مَأَلَكَةٍ  
إذا الأواصر لم تجعل لنا سبباً  
إذا هفوتم رميناكم بمعنتة  
يدان إن يقطعونا تقطعوا يديكم  
إني على شغفي بالأهل يطربني  
فإن فَخَرْتُ فبالصيد الأولي أسروا  
كانت لهم دولة غراء ثابتة  
كنتم تُطشُّعون فوق النجم من أنفٍ  
ما ولتمُ وصروف الدهر آيبة

إذا حلفتُ تدانى المجد والحسب<sup>(١)</sup>  
فحرمة الود فيما بيننا سبب<sup>(٢)</sup>  
فإن هفونا فلا يملككم الغضب  
كذلك نحن لنا في عزكم أربُ  
أني إليكم إذا فاخرت أنتسب  
حوادث الدهر لم يخذلهم الغلبُ  
في مُرْتَقَى العز تبغى شأوها الشُّهْبُ  
حتى تركتم سُهَيْلا قلبه يَجِبُ<sup>(٣)</sup>  
حتى أذانت على أيديكم التُّوبُ<sup>(٤)</sup>

وقد علقت صحيفة الوطن على هذه القصيدة بقولها:

«لا يسعنا إلا الإعجاب بما تضمنته هذه الأبيات الرشيقة من المعاني الشائقة، والمغازي الرقيقة. ويا حبذا لو تسابق الشعراء؛ وهم ملائكة السلام؛ في بث هذه الروح؛ روح التناصر والأرتباط بين العناصر الوطنية في الأفئدة بما لهم من القدرة على امتلاك نواصي القلوب، وما في أيديهم من السلطة على المشاعر. والأمل عظيم في أن إخواننا المسلمين يقدرّون هذا التسامح الذي بدأ أولاً من جانب الأقباط حق قدره، ويمدون إلينا أيديهم كما مددنا إليهم أيدينا».

(١) المألكة، بضم اللام وفتحها؛ الرسالة.

(٢) السبب: العلاقة والصلة.

(٣) يجب: يخفق.

(٤) صروف الدهر: حوادث الدهر ونوائبه.

إن قول صحيفة الوطن بأن التسامح بدأ أولاً من جانب الأقباط غير صحيح. فقد كان كتاب الأقباط هم الذين بدأوا بالهجوم على المسلمين كما مر بنا، وظلوا على الرغم من الأيدي التي مدت إليهم، والمحاولات الكثيرة التي بذلت في جمع الشمل وتوحيد الصفوف، ظلوا يعملون على تفريق الكلمة والهجوم على المسلمين هجوماً مرّاً كما يظهر ذلك من المقالات المتقدمة، ومما سيحييء فيما بعد من الشعر والنثر.

وقال عبدالرحمن شكري من قصيدة أخرى<sup>(١)</sup>:

متقسم والشامتون بمرصد  
ندني على الأحقاد عادية الغد  
رصدت لكل مؤلف وموحد

ومن البلية أن نكون وجمعنا  
هل سركرم يوم اللجاجة أنسا  
لولا اللجاجة والمرء وعصبة

\*\*\*

إرث الأماجد سيدياً عن سيد  
يمشي إليها الخطب مشي مقيد  
ويردد الإسعاد صوت مغرد  
فتلقّ فيه رقّة المتوود

يا ابن الفراغنة الأولى ورثوا العلا  
فلم نرجع الفضل الصريح ودولة  
يدحو عليها العزُّ حُسن زوائه  
هذا مقال شَبَّته بنصيحة

\*\*\*

وقال محمود رمزي نظم<sup>(٢)</sup>:

عيسويّاً مصافحاً أحمدياً

أئيُّ شيء أحبُّ من أن ترانا

(١) الوطن في ١٠/٤/١٩٠٨.

(٢) الوطن في ١٢/٤/١٩٠٨.

وجرى النيل باسمنا وطنيا  
وتقدم وكن شجاعاً. قويا  
صرت بالأتحاد شعباً قويا  
يسمع الغرب منه صوتاً شجيا  
شهد الله إنه كان حياً

رُفعت راية الهلال علينا  
أيها الشعب لا تكن في شقاق  
واجتمع واتحد فسعدك وأقى  
سوف يبدو صوت من النيل عال  
صوت شعب مجاهد لحياة

ونظم أحمد شوقي كثيراً في الدعوة إلى الأتحاد بين العنصرين،  
وجادت قريحته بشعر رائع. مثال ذلك قوله:

للارض واحدة تروم مراما  
ويوقرون لأجلنا الإسلاما  
متقابلين نعالج الأيما  
متجاورين جماجماً وعظاما  
عيشوا كما يقضي الجوار كراما

أَعَهْدَتْنَا وَالْقَبْطُ إِلَّا أُمَّة  
نُعَلَى تَعَالِيمِ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ  
هَذِي رِبُوعَكُمْ وَتَلِكْ رِبُوعُنَا  
هَذِي قَبُورَكُمْ وَتَلِكْ قَبُورُنَا  
فَبِحَرْمَةِ الْمَوْتِي وَوَجِبِ حَقِّهِمْ

وقد كثر مثل هذا الشعر عند أحمد شوقي.

\*\*\*

ونظم بعض الشعراء المسيحيين قصائد في الدعوة إلى الأتحاد،  
فمن ذلك قول عوض واصف<sup>(١)</sup>، في الأحتفال السنوي بعيد إنشاء  
جمعية الشبان المسيحيين:

والموسوى وليس نَمَّ دَخِيلُ

أبناها عبدالمسيح وأحمدُ

(١) الوطن في ١٩/١/١٩٠٩.

لا فرق بين العالمين وأرضهم  
ماذا جناه الناس في نزعاتهم  
هل في السماء مذاهب وعناصر  
فعلام تتخذ الخلاف صناعة

وطن وحيد والجميع سليل  
يا صاحبي وما جنى التفضيل؟  
هل تَمَّ إلا صاحب وخليل؟  
في الأرض وهي لِحِيْظَةٌ وتزول؟

وقال شاعر قبطي آخر من قصيدة طويلة:

فالدين لله يوم الحشر يسألنا  
ما للديانة دخل في صوالحنا  
شطر يضيع وشطر سوف يتبعه  
ما للنصارى والإسلام قد غفلت  
ما للجرائد باتت موقداً وغلت  
تخفي اللهيْبَ عن الأعيان، تنكره  
حمقى تخط بأفصاب على ورق  
رُمنًا الودد، وقالوا نعم ما طلبوا  
لولا الدعامة كانت خدعة لَبَقْتُ

عنه ويسألكم والخلق تزدهم  
بتنا شطوراً وبات الغير يعتنم  
والشرق في هرج والغرب يقتسم  
عن شرعه الصفح، لا جان ولا تُهْمُ  
مراجل الحقد فيها وهي تبتسم  
وكل سطر به الأحقاد تضطرم  
منها السموم بها الأعمار تنصرم  
شدنا وشادوا على صرح وما ندموا  
وكل دار على رمل ستتهدم

\*\*\*

وقال إبراهيم حنين تحت عنوان «القبطي يعاتب أخاه المصري العربي، ثم يتصافحان للسلام».

تعالَ يُعَاتِبْ بعضنا البعض أولاً  
وليس لشيء ما عتابي وإنما  
وأى فتى منا أطاع زعيمه  
كذلك من منا أستبد برأيه  
ومن ذا الذي أضغى لِقول شقيقه

إذا كان هذا العتب شرعاً مُحَلَّلاً  
لتعرف من منا الذي قد تحولا  
ولبى نِدأه دون أن يتعقلا  
فلاذ بأكناف الخصومة والقلى  
ففسرَ معناه بعكسٍ وأولاً

وأقسمَ إلا أن يناصبه العدا  
ولم يدكّر عهداً ولم يرع حرمة  
فشنَّ عليه غارة بعد غارة  
ولم يترك الأحقاد حتى آثارها  
وكم راح يرميه بكل نقیصة  
فأعظم من حق له وتعلّلاً  
من الودِّ ما أبهى وأسمى وأجملاً  
وظل على هذا العناد مُعَوِّلاً  
كما لم يدع باباً إلى الهجر مُقَفِّلاً  
وأنحى عليه لائماً مُقَوِّلاً

وهذه القصيدة ليست من باب الدعوة إلى الأتحاد، وإنما فيها  
أنهام للمسلمين بأنهم انقادوا انقياداً أعمى إلى بعض زعمائهم، وأنهم  
تعمدوا مواجهة المسيحيين بالخصومة، وأنهم هضموا حقوقهم، ولم  
يحفظوا عهد الإخاء والمودة الذي يربط بينهم وبين المسيحيين.

والحق إن شعراء المسيحيين لم يتجاوبوا كلهم مع شعراء  
المسلمين، بل لزموا جانب الصمت، أو نظموا القصائد في أنهام  
المسلمين بالظلم، والدفاع عن مزاعم أبناء طائفتهم. وذلك لأن نفوس  
الأقباط لم تكن قد تهيأت لقبول دعوة الأتحاد، وهذا راجع إلى دسائس  
المحتلين.

\*\*\*

ولا شك في أن بعض عقلاء الأقباط وبخاصة مرقس حنا، وويصا  
واصف بذلوا جهوداً كبيرة لخلق جو تسوده المحبة والمودة، ولكن  
جهودهم لم يكتب لها النجاح في ذلك الوقت.

فمثلا حدث أن دعا أحمد لطفي السيد المسلمين إلى الأحتفال بعيد الهجرة النبوية في ١٣-١-١٩١٠ فكان من ضمن الحاضرين مرقس حنا الذي وقف وألقى خطبة جاء فيها:

«هذه السنة- يعني السنة الهجرية- ليست سنتكم فقط، بل سنة المصريين أجمعين، لأننا نرى هذا الأحتفال قد ضم بين جوانبه الشبيبة المصرية كلها. فقد أحتشدت فيه الشبيبة الإسلامية، وشاركتها الشبيبة المسيحية للأحتفال برأس السنة الهجرية لدين شريف مبدؤه أن محبة الوطن من الإيمان».

«وعلى هذا المبدأ أقول إنني مسلم ومسلم، جئت لأقول لكم كلمة صغيرة في مبناها، كبيرة في معناها؛ وهي: مهما قيل ويقال عن تقاطعنا وتدابرنا فنحن إخوان في الوطنية».

«إذا حدث خلاف بين مصريين ومصريين فلا يعد ذلك دليلاً على عدم وجود إخاء، وإنما هو من مستلزمات الحياة».

«أنا واثق بأننا لا نحيد كلنا- مسلمون وأقباط- عن ذلك المبدأ القويم، وخو أننا كلنا إخوان في الوطنية».

وبعد أن أنتهى من خطابه نهض الشيخ عبدالعزيز جاويش ونوه بالأخوة الوطنية التي تربط بين عنصري الأمة، فقوبلت كلمته بتصفيق

حاد. ثم إن جريدة الوطن فتحت صدرها لنشر الخطب والقصائد التي ألقيت في الأحتفالات بعد الهجرة النبوية.

ولكن جاء مقتل بطرس غالي في ٢١-٢-١٩١٠ فبدد تلك الجهود الطيبة. فعادت الحال إلى أسوأ مما كانت عليه. ومع ذلك فإن عقلاء الأقباط لم يتخلوا عن الدعوة إلى الصفاء.

\*\*\*

قلنا إن الدسائش الإنجليزية هي التي أوجدت تلك الخصومة التي نشبت بين العنصرين. وقد وضع أخنوخ فانوس نفسه في خدمة تلك السياسة. قال سالم سيدهم تادرس في صحيفته «التيمس»<sup>(١)</sup> المصري «سنة ١٩٠٨ تحت عنوان «كيف يخونون؟» ما نصه «لقد أصبحت- يعني أخنوخ فانوس- الشخص الذي إذا مر في الطريق قلنا: هذا أحد صنائع الإنجليز في مصر، والآلة التي يحركها المقطم. أتق الله أيها المجتهد في الباطل».

وكتب مقالاً آخر جاء فيه:

«ولكني أقول فقط إن مصلحتها- أي إنجلترا- دوام الحال الحاضرة، وبقاء الأحتلال إلى الأبد. وهي تستخدم لذلك بعض الخونة الذين لا ضمير لهم يردعهم عن العمل المتواصل لقتل روح الوطنية».

---

(١) عدد سبتمبر سنة ١٩٠٨.

«هؤلاء أعداء مصر، وهم لسوء الحظ من أبناء مصر، فيجب أن نتبرأ منهم، لأنهم بسوء فعالهم أنفصلوا عنا، فلا هم منا، ولا نحن منهم».

«يستخدم هؤلاء الخونة في صدر أهمهم الحنون سهمين جارحين: هما سهم الدين وسهم السياسة. وهم يمزجونهما مزجاً ظاهراً، ويلصقون ذلك بأقوى حزب مصري قام إلى الآن، وهو الحزب الوطني».

\*\*\*

وقد أنشأ أخنوخ فانوس هيئة سماها «مجتمع الإصلاح القبطي» وجعل وظيفتها إشعال روح الفرقة والخصومة بين العنصرين في جميع جهات القطر. وقد كتب ويصا واصف مقالاً في اللواء بتاريخ ٤-٦-١٩٠٨ محذراً إخوانه المسيحيين من مجتمع الإصلاح، ومما جاء في هذا المقال:

«... تشكلت جمعية سميت بمجتمع الإصلاح القبطي. فانتخب لها رئيس الطائفة الإنجيلية- يعني أخنوخ- رئيساً. ثم دعنا إلى الانتظام في سلكها فسألناها: ما غرضك؟ وإلى أي شيء ترمين؟ إن كنت حزباً سياسياً فنحن لك أعداء ألداء، لأن السياسة يجب أن تكون بعيدة عن الدين. وقد وصلنا والحمد لله إلى أن جميع الأحزاب السياسية المصرية جعلت قاعدتها الأساسية التمييز بين الدين والسياسة، فلا معنى لوجود حزب سياسي قبطي».

«فأجابت: إنني بعيدة عن السياسة، والغرض من تشكيلها إصلاح الشئون الطائفية، بدليل أن كثيرين من أعضائي موظفون عموميون».

«فأعترضنا عليها أعترضاً وجيهاً؛ إذ قلنا لها إن للأقباط المصريين ثلاث طوائف، إحداها: أرثوذكسية، والثانية: بروتستانتية، والثالثة: كاثوليكية. فإصلاح أي طائفة تقصدين؟ وأنت تقولين إن بين أعضائك الأرثوذكسي، ورئيسك بروتستانتني. فلم تجبنا على هذا الأعتراض».

«إن مجتمع الإصلاح هذا اس على غير مسمى، لأنني لا أحسب حساباً لبعض خدمة السكة الحديد الذين لم يدخلوا فيه إلا لعلمهم طبعاً بأن المسائل السياسية محرمة على المجتمع - يعني مجتمع الإصلاح».

\*\*\*

إلا أن أخنوخ أستطاع أن يتملق عواطف المسيحيين ويظهر نفسه بمظهر الغيور على مصالحهم، المدافع عن حقوقهم. فرجحت كفته، وجاءته برقيات التأييد من أبناء طائفته في القاهرة والأقاليم. وقد نشر في صحيفة مصر كتاباً مفتوحاً إلى الأمة القبطية جاء فيه<sup>(١)</sup>:

«مجتمع الإصلاح القبطي العام يطالب الحكومة بالمساواة بين الأقباط وإخوانهم المسلمين في جميع الحقوق بلا تمييز بسبب الدين،

---

(١) الدستور في ١٨-١٩٠٨.

وأن تعطي الوظائف مهما كانت لأرباب الكفاءة والأستحقاق من المسلمين والمسيحيين بصرف النظر عن الأديان والمذاهب».

فتلقى أخنوخ عدداً كبيراً من برقيات التأييد من المسيحيين في جميع جهات القطر، وأخذت صحيفتا الوطن ومصر تنشران هذه البرقيات في صدر صفحاتهما.

وكانت صحيفة اللواء لسان حال الحزب الوطني قد أهملت كل إشارة إلى مثل هذه الحركات منذ مقال «الإسلام غريب في بلاده» فلم ترد على الصحافة القبطية فيما أثاره أخنوخ فانوس بخصوص موضوع الوظائف. إلا أن صحيفة «الدستور» لصاحبها محمد فريد وجدي فتحت صدرها للرد على المسيحيين. فشرع عباس محمود العقاد ينشر المقالات الطوال سفها مزاعم أخنوخ فانوس ومن لف لفه وحذا حذوه من حمقى النصارى. قال تحت عنوان «مستقبل مصر على يد المسلمين».

«زين الغرور لهذه الفصيلة من الأقباط أن يوفدوا إلى إنجلترا وفداً يترجم عن إحساسها. وما هو إحساسها؟ إحساسهم أنهم يؤثرون العبودية على الأستقلال، وأنهم لا يعدون المطالبة بحرية مصر إلا هوساً وجنوناً. وأنهم مدلهون بحب الإنجليز، يضعونهم في هياكل آبائهم الأولين، ويعبدونهم آلهة من دون الله. كل ذلك ليكون أحدهم في يوم من الأيام مديراً أو وكيل مديرية يمضي الأوامر، ويعيد إلى ذاكرته مجد الفراغة».

«ووهموا أن في ذلك وقية بالمسلمين. وهم لقصر نظرهم يحسبون أن المسلمين أعدائهم الالداء، وضرتهم في وادي النيل. وفاتهم أن إنجلترا تعلم قبل سواها أنها لم تدع في يد المسلمين نفعاً فيحسوه، أو ضرراً فيطلقوه. وأن الأمر في مصر بين الإنجليز، إن شاءوا رفعوهم إلى السماء، وإن شاءوا خفضوهم إلى الحضيض. وما حملهم على الأستهانة بهم وأستضعاف شأنهم إلا تذبذلمهم وتزلزلهم إلى كل من يتوهمون أن بيده نفعاً يرجي، أو ضرراً يخشى حتى أصبحوا مثلاً في الخسة والأستماناة وموت الوجدان».

«هذه الفئة يتبرأ منها الأقباط قبل سواهم. فإن كان المسلمون يأنفون أن يكون في أبناء وطنهم مثل هذا الصغار، فإن الأقباط ألصق بهم، لأنهم عليهم من بايين: بات الوطنية وباب الدين».

\*\*\*

وكتب مقالاً<sup>(١)</sup> آخر جاء فيه:

«يريد الأقباط أن تراعى الكفاءة في تعيين المديرين. ومعنى ذلك أنه لا بأس في أن يعين كل المديرين من الأقباط ما دام فيهم أربعة عشر رجلاً يصلحون لتولي هذه الوظيفة. وغداً يكون للأقباط مديرون ينصرفون بكلياتهم إلى تعضيد الجمعيات القبطية، وحشر التلاميذ إلى مدارسها، وإهمال كل ما عدا ذلك؛ كما يفعل موظفو الأقباط الآن».

---

(١) الدستور في ١٣-١٩٠٨.

«ثم يعيدون الكرة بعد أيام، ويرمون المسلمين بالتعصب لأنهم لا يرضون عن تعيين وزير الداخلية من مديري الأقباط، كما هو الحال في المديرين المسلمين. فيضطرون إلى إجابتهم لأنهم لا يجدون حجة عليهم بعد أن فتحوا لهم الباب. وهناك الطامة الكبرى».

«يعمل هذا الوزير ما في وسعه لمحو أثر المسلمين من وزارته، واستبدالهم بأبناء دينه القبطي. لا يدع فرصة تمر إلا إذا أنتفع بها واستعملها في خدمة طائفته، وإن كان في ذلك ضرر بغيرها».

«إن راق هذا للمستسلمين فليصروا على ما هم فيه من السكوت والإغضاء. أما الأقباط فهنيئاً لهم ما يسلبون من حقوقنا، وهنيئاً لهم ما ينقصون من أطرافنا ونحن نتمتع بخيالات الحكمة والوفاق وأتحد العناصر الوطنية، ولا أرى لها في عالم الحقيقة أثراً».

وكتب تحت <sup>(١)</sup> عنوان «كيف تذهب الأرواح والأموال في مصلحة السكة الحديد؟».

«... هذه سنة مطردة في مصلحة السكة الحديدية. فلا يجوز أن يبقى المسلم وإن أتقن عمله، وراقب الله فيما يعهد إليه. فمسيحية العامل تبرر سرقة واختلاسه، وإهماله وتدليله، وكل نب يأتيه مهما كانت تبعته جسيمة. وإسلامه جعل حسناته سيئات، وأمانته خيانة، وحذقه سخفاً، وجده توانياً وجموداً، وأدبه قحة، وطاعته عصياناً وهلم جرا».

(١) الدستور في ١٧-٦-١٩٠٨.

«هذا هو الحق الصريح الذي لا نرى أن غيره أولى بالظهور منه. ولذلك قلناه لعله يقنع قوماً لم يحسنوا إدارة الأعمال الكتابية فتطلعوا إلى الإدارية منها، وهي التي يعوزها العدل، وسعة الصدر، والترفع عن السفاسف، والنظر إلى الأمور بعين المصلحة العامة مع العلم وغزارو المادة. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجب لا يحرك يده إلا لنفع أبناء ملته، وإيذاء غيرهم؛ مسوقاً إلى ذلك بدافع التعصب والحقْد على المتدينين بغير دينه».

\*\*\*

وشرع كتاب النصارى وشعراؤهم يردون على كتاب المسلمين فيما يتعلق بالوظائف. مثال ذلك ما نشرته صحيفة<sup>(١)</sup> الوطن يامضاء حقوقي حر:

«لا تودون أن نرقى إلى وظيفة إدارية لا هي في العير ولا في النكير. فهلا سمعتم أو قرأتم عن تاريخ أسلافكم الذين قلدوا الأقباط أسمى المراكز العالية سواء كانت ملكية أو عسكرية؟» ثم أستشهد الكاتب ببعض كبار الموظفين الأقباط في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية.

ثم قال «أما الآن فقد منع القبطي أو حرم عليه أن يكون مديراً بدعوى أنها وظيفة إسلامية لا وطنية، كأنه محتم على المدير أن يؤذن

---

(١، ٢) الوطن في ١٠، ١٢-٥-١٩٠٨.

فوق المأذنة قبل الصلاة، أو يكون إمامهم وقت الصلاة، أو يقوم فيهم خطيب الجمعة».

«على أن الحقيقة أن القبطي حرم من الوظيفة الإدارية لأنه قبطي وليس لأنها دينية كما أثبت. فهل بعد ذلك نرجو مجلساً نيابياً وقد دسنا بأقدامنا على العدالة والقانون؟».

وكتب آخر <sup>(١)</sup> تحت عنوان «واجبات الأقباط وحقوقهم» مقالاً جاء فيه:

«ثقوا أن الأقباط إن صمتوا اليوم لا يصمتون غداً. وقد رأوا أن الاجانب الذين أستوطنوا الدولة الرومانية في بدء نشأتها حصلوا على الحقوق التي حرم منها الوطنيون، فكيف بهم وهم أبناء البلاد؟».

«لا يهدأ للأقباط فكر، ولا يطمئن لهم بال حتى ينالوا مطلبهم. وكيف تسوغون لأنفسكم أن تسدوا علينا منافس الحرية والحياة؟ أطبقا لقواعد تنازع البقاء؟ تنازع البقاء يقتضي أن تكون أبواب الرزق مفتوحة للجميع وأن الفائز هو السابق».

«إذا خرج تنازع البقاء من هذه الحدود؛ كان توحشاً لا شك فيه، لأن الأرواح تصبح مباحة، والأموال تنهب وتسرق، وغير ذلك مما نستقرؤه من الحوادث».

---

(١) الوطن في ١٢، ١٠، ٥/١٩٠٨.

«أما نحن الأقباط فلا عار علينا إن قلنا إن اللو في أمتضام حقوقنا واقع علينا. إن تفرق قلوبنا، وعدم اتحاد كلمتنا، وسكوتنا وجبيننا وبأسنا. إن حب الذات، وحب الرياسة، إن عدم وجود روح الحياة فينا ومحاربتنا لأنفسنا، وأكلنا بعضنا بعضاً كما تأكل الأسماك بعضها، وبعبارة أوضح إن ضعف رابطتنا الطائفية؛ كل ذلك أوصلنا إلى هذه الحالة التعيسة».

«إن العيب فينا ومنا. فيجب أن تتلافى هذه الأمراض وإلا سقطنا سقوطاً لا قائمة لنا من بعده. يجب أن نتحد وبلتصق بعضنا ببعض فنكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً».

«أنهضوا وألقوا الوفود لتطرق أعتاب سمو خديونا المعظم. وإن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوربية ناصرة الإنسانية، وأولهن الدولة الإنجليزية».

\*\*\*

وحدث أن نشر علي يوسف الجريدلي اقتراحاً على صفحات المقطم بتحديد نسبة للموظفين المسيحيين بمصلحة البريد، وذلك لأن معظم موظفي هذه المصلحة كان من النصارى. فرد عليه مسيحي بإمضاء «قبطي حر» قائلاً:

«حضرة<sup>(١)</sup> الأحمق علي أفندي يوسف الجريدلي».

---

(١) الوطن في ١/٢٢/١٩١٠.

«قرأت اقتراحك السخيف المنشور في جريدة المقطم السافلة بكل أستغراب وإني أتعجب من تعصبك القبيح حيث إنك تريد بهذا الاقتراح أن تحرم أسيادك الأقباط الموظفين بالبوستة من حقوقهم، مع أن حقوقهم هذه محفوظة لهم ومثبتة بأقوى البراهين يا ابن الكلب يا حمار! ولكن قاطع الله تعصبك وتعصب أمثالك، ولعنة الله عليك وعلى المقطم أيضاً الذي وافقك على هذا الاقتراح ونشره لك. وإني أقول لك ولغيرك من المتعصبين إن الوظائف التي نحصلها في البوستة قد تحصلنا عليها بالاستحقاق والكفاءة، لأننا لسنا مثلكم كسالى بهائم».

«وإني وكل قبطي ينظر إلى اقتراحك هذا بكل احتقار، حيث إنك تقصد به يا ابن الكلب أن المسلمين يهضمون حقوقنا، ولكن أقول لك: أنفلقوا، أنفلقوا، أنفلقوا».

وعجيب جداً أن تنشر صحيفة الوطن مثل هذا الكلام، ثم تتهم المسلمين بسوء الأدب وقلة الحياء!!

\*\*\*

وقد إنحاز بعض الشعراء المسيحيين إلى الحمقى من أمثال أخنوخ فانوس وجماعته. فهذا أحدهم ينشر قصيدة في الوطن <sup>(١)</sup> يامضاء الشاعر المتألم، جاء فيها:

---

(١) الوطن في ١٩/٨/١٩٠٨.

أما الحقيقة في رأيي ومعتقدي  
لكنها النفس قد ينتابها غرض  
قمنا نرجى التساوي في الوظائف لم  
قالوا جنتم وقاموا ضد مطلبنا  
قلنا: ولا نبتغي غير الكفاءة من  
قالوا: كفرتم، وغالوا في مسبتنا  
قلنا: أتقوا الله فيما تنطقون به  
هاجوا علينا وماجوا صائحين بنا  
قلنا: مطالبنا يا قوم عادلة  
قلنا أخيراً، ولا زلنا نقول لهم  
ذكاءً فيما نرى دوماً إذا أحتجبت  
وهي الحقيقة لا تخفى وإن خفيت  
هو التعصب قد أعمى عيونهم  
فحسبنا الله في حزب سياسته  
لا بدع إن هتكت أسراره وإذا  
فطالما نصحته الناس مشفقة  
وإنما الذنب للمرحوم أسسه

فإنها الشمس لا تخفى على أحد  
حيناً كما قد تصاب العين بالرّمذ  
نطلب سوى العدل، لم ننقص ولم نزد  
بحجة الدين عن غل وعن حسد  
شرط عن الحق لم نعدل ولم نحد  
من كل لفظ ومعنى سافل وردي  
وأنت يا شيخهم يا علّة النكد  
ياليت فرعون لم يولد ولم يلد  
يا قوم حق، فقالوا: نسبة العدد  
إن البعوضة تدمي مقلّة الأسد  
يوماً تعود إلى الإشراق يوم غد  
فليس يا سادتي إلا إلى الأمد  
وهو التحزب للأديان قد وقد  
لم تُجد منفعة، كلا ولم تفد  
أخنى عليه الذي أخنى على لبد  
لكنه لم يطق سمعاً ولم يُرد  
على طريقة فرق بينهم تسد

وفي هذه القصيدة أتهام للمسلمين بالتعصب الذي أعمى عيونهم  
كما يقول الشاعر. وأتهام للحزب الوطني ومصطفى كامل. ولكن هل كان  
الحزب الوطني يمل حرمان المسيحيين من حقوقهم؟ هل كان الحزب  
الوطني يعين الموظفين ويرقيهم؟ ويقول الشاعر إن مصطفى كامل جعل  
شعاره التفرقة بين عنصري الأمة ليعود عليه نفع ذلك. وهذا كلام غير  
سليم، لا يصدر من عاقل منصف. وهو نوع من الهراء الذي لا يستحق

المناقشة. وهو يقول إن الوظائف لا ينبغي أن تراعى فيها النسبة العددية لأن العبرة ليست بالكثرة والقلة. فقد تكون القلة أشد مضاء وأعظم قوة من الكثرة. وعلى كل فهذا احتمال قد يصح وقد لا يصح. وهو دون شك غير صحيح.

\*\*\*

وقال جرجس (١) البياضي.

للقبط عن ناب من الثعبان  
حسبوا بها ربحا من الخسران  
عهد الولاء وصحة الوجدان  
أكذا تكون مباديء العمران؟  
للقطر حين حلتُم بأمان؟  
وتقابلون الؤدَّ بالعدوان؟  
لرثى البلاد بمدفع هتان (٢)  
معروف للأقباط والرهبان؟  
م بكل حق دون ما رجحان  
قد أبرموها خشية الطغيان  
قد قصرت عنها يد النسيان  
فيهم حليفاً صادق الإيمان  
وتجود بالأرواح والأبدان  
ضحوا من الأبطال والشجعان

ماذا جرى في الكون حتى كسروا  
نزعوا الحياءَ وجاهزوا بعداوة  
خفروا لنا ذمم الجوار وخالفوا  
أساة مصر المدعين قيادها  
هل لم يرحب قبط مصر بفتحكم  
فبأي شر تنكرون حقوقهم  
أقسمت. لو عاد الزعيم لدارنا  
أين الذي أوصى النبي به من!!  
كانت مبادؤه مساواة الأنا  
وكذا المواثيق التي خلفاؤه  
هذى العهود. بنصها محفوظة  
لولا الوثوق بقبط مصر لما رأوا  
فالقبط أقدم أمة ترعى الوفا  
كم في سبيل أمانة وصيانة

(١) مصر في ٧-١١-١٩٠٨.

(٢) يقصد بالزعيم مصطفى كامل.

مهما تغيّر طوارق الحدّثان  
مصر لنا والدين للديان  
في مأمن من جور ذي عُدوان  
بعقول قوم لا يُعون معاني  
وأحشَ الإله ونَصَبَ الميزان  
وتجنب الإضرار بالإنسان  
وراة والإنجيل والقرآن

ما أبعد الشحاء عن غاياتهم  
ما للمذاهب والسياسة إنما  
الدين حرٌّ في المعابد كلّها  
يا مَنْ يُتاجر بالمذاهب لا عباً  
رفقا بغوغاء أضلهم الهوى  
والدين معناه اعتناق فضيلة  
والأُتحد شريعة الرحمن في الت

\*\*\*

فالأبيات الأولى من القصيدة أتهام للمسلمين بأنهم أساءوا إلى  
المسيحيين وغمطوهم حقوقهم. ويقول الشاعر إن اقباط مصر رحبوا  
بافتح العربي، وصاروا حلفاء للمسلمين، وأن النبي محمداً عليه السلام  
وصى بالإحسان إليهم، وكذلك الخلفاء الراشدين من بعده؛ يقصد عمر  
بن الخطاب الذي فتحت مصر في عهده. وقال إن مباديء نبي  
المسلمين وتعاليمه تنص على المساواة بين الناس، وإجراء العدل على  
الجميع. وأن العرب أطمأنوا إلى الأقباط ووضعوا ثقتهم فيهم فوجدوهم  
حلفاء مخلصين. وقال إن الأقباط يحافظون على العهود والمواثيق لأنهم  
عرفوا بالوفاء منذ القدم، وضحوا بأرواحهم في سبيل المحافظة على  
الأمانات. وقد طهرت قلوبهم من الضغائن والأحقاد. وظلوا متمسكين  
بتلك الصفة على الرغم مما تعرضوا له من الظلم والتنكيل. ثم نادى  
بوجوب الفصل بين الدين والسياسة، لأن الدين لله، والوطن للجميع. ثم

ندد بالذين يتخذون الدين تجارة، وبالذين يتلاعبون بالأديان أبتغاء منفعة ذاتية تعود عليهم، وحذرهم من عقاب الله.

\*\*\*

ومع أن الشيخ عبدالعزيز جاويش أعلن أنه لم يقصد بمقاله «الإسلام غريب في بلاده» أن يتعرض لجميع المسيحيين، إنما تعرض فقط لفريد كامل ولصاحب «الوطن» إلا أن النصارى عن بكرة أبيهم أمتلأت قلوبهم بالحقد عليه. وهجاه كتابهم وشعراؤهم هجاء يحمل في طياته الكره والبغض، والرغبة في التشفي والأنتقام. وكانت «الوطن» تفسح صدرها لنشر هذا الهجاء. فمن ذلك قول أحدهم:

بين عبد العزيز في مصر      وعبد العزيز في مراكش  
نسبة في الخلال والإث      م والشققا والتناقش

فاحفظ العهد واتق الله في اللوا يا ابن جاوش وقال آخر من

قصيدة:

قلنا أتقوا الله فيما تنطقون به      وأنت يا شيخهم يا علّة التّكد  
يقصد عبدالعزيز جاويش.

وكتب أحدهم <sup>(١)</sup> مقالاً جاء فيه:

---

(١) الوطن في ١٥-٧-١٩١١.

«... فهو غراب البين ينشق بالشؤم والبلاء، وجدوة تضرم نار الشحنة، ووباء أصيب به جسم المجتمع المصري، وواسطة للتفريق وتشيتت الجمع، وشهادة حية على أن في مصر داء عقاما. وحجة للأجانب على قصور المصري وعدم أستحقاقه للدستور».

«إن هذا الشيخ الذي قضى سوء الطالع على مصر أن تصاب بوجوده قابض على سياسة الحزب الوطني، يحرر المقالات بأسم هذا الحزب، ويبس خبائثه في أكثر الأحيان لباس الوطنية والدين، ولكنه عدو لكليهما بما ينفث من سمومه في كل حين».

«... كل هذا لم يكف المحرض التونسي. كأنه لم يؤلد حتى الساعة بغضاً في صدور المسلمين لهذه الطوائف والأمم المسيحية، حتى أن الرجل نشر آخر آيات سمه، وأسقم زلات قلمه في مقال نشره عن البروتستانت، وهم كما يعلم التونسي، طوائف مسيحية راقية عظيمة. إن هذا الشاويش التونسي المعجب بشاربيه، العامل على خط القطر المصري إلى الحضيض، المستأجر للتخريب والتدمير قال أقوالاً تعد عاراً على الصحافة المصرية. قال المحرض التونسي إن البروتستانت ينمون روح التعصب الممقوت، وأنهم يعمدون إلى الحيل. وقد أستفوا عدة آلاف من أقباط مصر، وحولوهم إلى مذهب البروتستانت. فهو هازيء بالأمريكان والأقباط معاً في هذا الهراء السقيم».

\*\*\*

ووجه صاحب «الوطن» خطاباً مفتوحاً إلى العميد البريطاني في  
١٩٠٨-١٢-٢٦ نشره تحت عنوان «النفى النفي» قال فيه:

«مولاي السير».

«إنك تمثل في وادي النيل الدولة البريطانية التي دخلت هذه البلاد  
لإصلاحها. فلذلك لا أجد بدا من الاعتقاد بغيرتك على صالح هذه  
البلاد كما يقضي الواجب والذمة والضمير».

ثم تكلم عن الضائقة المالية واضطراب الأمن، وقال إن سبب هذه  
المصائب: محمد بك فريد، والشيخ عبدالعزيز جاويش، وإن الأمة  
تطالب بنفيهما.

\*\*\*

ولم تنحصر مطالب المسيحيين في المساواة في الوظائف، بل  
تجاوزتها إلى أمور أخرى. كتب «حقوقى حر» في الوطن مقالاً سنة  
١٩٠٩ جاء فيه:

«القبطي ملزم ككل وطني أن يدفع الضرائب والأموال بكل  
أنواعها. فكان يجب بمقتضى القانون العام أن ينتفع بها بقدر ما ينتفع  
بها المسلم. ولكن الحكومة المصرية التي تعتبر نفسها مسلمة أكثر منها  
وطنية أظهرت تحيزاً لفريق من رعاياها دون فريق. فأسست دوراً علمية  
دينية خصوصية لذلك الفريق تصرف عليها من أموال الأمة كلها كمدرسة

القضاء الشرعي، ومدرسة المعلمين الناصرية «دار العلوم» والكتاتيب «المدارس الأولية» ومدارس معلمات الكتاتيب، ومدرسة البوليس حتى أوجب ذلك إستياء المنصفين».

«آمنا أن مدرسة المعلمين الناصرية، ومدرسة القضاء الشرعي والكتاتيب غسلامية، لأن الشريعة الإسلامية والدين يعلمان فيها، فليس للأقباط حق في دخولها وإن كانت نفقاتها تؤخذ من جيوب الأمة كلها. ولكن لماذا يمنع القبطي بواسطة منشورات سرية من الدخول في مدرسة البوليس، وهي مدرسة عمومية للأمة، لا يعلم فيها دين ولا شريعة؟ إنها لأمر تضحك منها الجهلاء، ويبكي منها العقلاء».

ويجب أن نعلم أن مدرسة البوليس كان يسيطر عليها الإنجليز في ذلك الوقت، بل إنهم يسيطرون على وزارة الداخلية أن يعين مسيحياً في وظيفة مأمور مركز. وأما شكوى الأقباط من حرمانهم من الألتحاق بمدرسة القضاء الشرعي فهي التي تستحق الضحك.

\*\*\*

وكان المسيحيون قد فكروا في عقد مؤتمر قبطي سنة ١٩١٠ ليتبادلوا وجهات النظر فيما يتعلق بمطالبهم ويرفعوا بها مذكرة إلى الحكومة المصرية ودار الأحتلال. إلا أن مقتل بطرس غالي قد أجل أنعقاد هذا المؤتمر. وفي سنة ١٩١١ ظهرت عندهم فكرة المؤتمر من جديد. وبهذه المناسبة كتب الشيخ جاويش مقالاً لا يقل شدة وعنفاً عن

مقاله «الإسلام غريب في بلاده» ونشره بمجلته «الهداية»<sup>(١)</sup> ومما جاء فيه:

«أما ما توهتموه من أن المسلم أخذ يكيّد لكم المكاييد، ويبيت لكم السوء؛ فأنتم تعلمون أن هذا ليس من طباعه ولا مألوف عاداته. ولو كان المسلم ممن يجمل الضغائن ويسع صدره الحقد لما نسي لكم ما فعلتموه أيام الأحتلال الفرنسي لهذه الديار، حتى أعوزت المحتلين القوة والجنود، فتقدمتم إليهم طائعين فرحين، فألقتم جيشكم الذي كان على رأسه كبير منكم. ثم لما أعوزهم الزاد والمال ألتمتم لهم بيوت المسلمين، وقد كنتم كتابها ؤامناً خزائنها ومصرفي شئونها. ألتمتم تلك البيوت فأستبحتموها ولم تذروا لها حرمة إلا أنتهكتموها، حتى أن أحدكم كان يتفقد ما يقدمه له أفراد الأسرة الإسلامية من مصوغاتهم وجواهرهم وصنوف عليهم؛ فيعدها واحدة واحدة، ثم يحاسبهم على ما غاب منها وهو بها أعلم، فإنه الذي أشتراها بيده وعرف مكانها يوم كان أميناً على خزائن الأسر، مديراً لشئونها. فماذا أنسى المسلم أمثال هذه الحادثة سوى أنه كريم جواد هين لين؟».

«أرايتم لو وضع منكم مدير على رأس مديرية ما، وأخذ يجمع حوله الوكيل القبطي، والكتاب الأقباط، والقضاة الأقباط، ووكلاء النيابة والمهندسين الأقباط والمحامين الأقباط، والتجار الأقباط، والفلاحين الأقباط؛ فمن ذا الذي ينصف المسلم المسكين إذا وقع بين مخالب

(١) عدد فبراير سنة ١٩١١.

هؤلاء؟ وأنتم تعلمون ما يصيب المسلمين اليوم على يد الموظفين الأقباط دون أن يجتمعوا ذلك الاجتماع. أين يذهب المسلم إذا تحولت مديريته مستعمرة قبطية ذلك شكل حكومتها؟».

«أخبرك أيها المظلم بما في برنامجك، وبما مر الآن في صدر؟ أنا مخبرك وكاشف سرك. يترك هذا المسلم أطيانه وعقاره ويتأبط هراوته ومزادته إن تمكن منها، ثم يخرج مسرعاً إلى بلد آخر. ولا يزال المسلمون يخرجون سراعاً على ذلك النحو، وعلى نحو ما نرى في مصالح الحكومة منذ جيل حتى تخلو المديرية لبنى اطائفة».

«ثم تتولون في الباقية ما قاله بعضكم يوماً ما وقد هنيء بوظيفة سليمة: هذه بضاعتنا ردت إلينا».

\*\*\*

ولم يكن البطريك راضياً عن هذا المؤتمر، فأصدر منشوراً<sup>(١)</sup> جاء فيه:

«... إلا أن جعل المفاوضة على مثل هذه الصورة، ودعوة الجرم الغفير من أبناء الطائفة للاجتماع والمفاوضة في مثل مدينة أسيوط؛ ربما يوجد إشغال البال، ويسبب قلق الخواطر لعدم تعود أهالي تلك الجهات عموماً على مثل هذه الاجتماعات التي لا تخلو من أمور قد يحدثها

---

(١) المؤيد في ٤-٣-١٩١١.

بعض أصحاب قلوب النظر في العواقب وشفقتنا الأبوية، ومحبتنا الكبيرة نحو الجميع تدعونا إلى إبداء النصيحة لأبنائه الأعمام بأن ينظرون في نواصح طائفتنا المحترمة بغير الطريقة الشارعية فيها؛ أي حشد الجسم الغفير في مثل المدينة المذكورة حتى لا تكون مساعيهم في رق الطائفة عرضة للتفوق، ولا يحدث عنها ثوران النفوس والتهج».

وقد أرسل البطريرك صوراً من هذا المنشور إلى المطارنة، ومع كل صورة خطاب لإبداء النصيحة لأبناء الطائفة بأن يعدلوا عن عقد هذا الاجتماع الذي لا تضمن عواقبه.

إلا أن مطران أسيوط لم يستطع أن يقاوم التيار فأضطر إلى أن يفتح المؤتمر بكلمة قصيرة لم تتضمن سوى الدعاء لأبناء الطائفة بالتوفيق، ثم الدعاء للمصريين أجمعين، وللخديو.

\*\*\*

وكان المعتمد البريطاني السير الدون غورست قد وقف في وجه تطرف المسيحيين بالمرصاد. فقام بزيارة لبعض مديريات الوجه القبلي التي يكثر فيه النصارى، ولما رجع من رحلته أوعز إلى مراسل روتر بنشر النبأ الآتي:

«زار السير<sup>(١)</sup> الدون غورست المديريات التي يكثر فيها الأقباط، وبحث فيما يسمونه المطالب القبطية بحثاً مستفيضاً، فوجد أنه ليس

---

(١) المؤيد في ٢٠-٢-١٩١١.

للقوم شكوى جدية خارج مدينة مصر. وهو يقول إن الأقباط والمسلمين يعيشون بالصفاء معاً إذا تركوا وشأنهم. وإن أشد الأمور ضرراً بالأقباط اعتبارهم طائفة قائمة بنفسها. ووجد السير الدون غورست أن مطالب الأقباط المتعلقة بالتعليم منظورة في مجالس المديريات في كل جهة بما يحق لها من الأهتمام».

ولما أطلع المسيحيون على هذا التصريح هاجوا وماجوا، وأرسلوا البرقيات الكثيرة إلى الصحف البريطانية محتجين أشد الاحتجاج على ما نشره مراسل روتر. وأخذوا يحملون على المعتمد البريطاني ويفندون أقواله.

وأخيراً أضطر السير الدون غورست بعد إلحاح، وبعد أن تلقى برقية من وزارة الخارجية البريطانية بموافقتها على عقدى المؤتمر - إلى السماح للمسيحيين بالإجتماع في مدينة القاهرة، فأبوا إلا أن يكون اجتماعهم في أسيوط، وذلك ليشبتوا أن شكوى النصارى ليست منحصرة في سكان القاهرة المسيحيين، بل عامة في جميع أنحاء القطر. ولأن مدينة أسيوط - كما ذكروا - عاصمة الأقباط. فوافق على ذلك بعد غطلاعه على برنامج المؤتمر، ولكنه أضمر في نفسه العداء لهذه الحركة كلها، ووطد العزم على مقاومتها. وكان قد أبدى تخوفه للحكومة البريطانية من قيام المسلمين بحركة مضادة، وعقد لهم أسوة بالمؤتمر القبطي، وحينئذ تزداد العلاقات بين العنصرين سوءاً، وربما يقضى الأمر إلى ما لا تحمد عقباه.

وقد خصص السير الدون غورست حيزاً كبيراً من تقريره عن سنة ١١٩١١ للكلام على حركة المتطرفين من المسيحيين قال:

«شغلت<sup>(١)</sup> شكاوي رجال من القبط من معاملة القبط بالنسبة إلى معاملة مواطنيهم المسلمين محلاً منيفاً في الجرائد المصرية مدة من الزمن. ثم ازدادت دائرة الانتباه إليها أتساعاً بعقد المؤتمر القبطي الذي ذكرت أخبار مداولاته ملياً في أنجلترا. وأذكر هنا على سبيل العرض أن الذين نظموا هذا المؤتمر هم فئة صغيرة من أرباب الأطيان الاغنياء بالوجه القبلي، لم يدعوا أنهم يمثلون أكثر من اثني عشر ألفاً من سبعمائة الف قبطي في مصر».

«وقد أقاموا أنفسهم بأنفسهم نوايا عن أبناء طائفتهم مع وجود فرقة نافذة الكلمة منه لا تستصوب عملهم بل تحطئه، ومن جملتها البطريك الذي هو رأس الكنيسة القبطية بمصر».

ثم قال «إن بطرس باشا الذي يعد تقلده لمنصب ناظر أزماناً متطاولة في وزارات متعاقبة، وتقلده رئاسة النظار أخيراً، دليلاً يدحض دعوى من يدعى أن الأكفاء من الأقباط ممنوعون من تقلد الوظائف العالية».

«وعندي أن أعتبر فريق من الأهالي جماعة منفصلة عن غيرها خطأ لابد وأن يضر أخيراً بمصالح الأقباط. ولا شبهة في أن مصالحهم المادية

(١) نقلاً عن المؤيد في ١١/٥/١٩١١.

لم تكن في وقت من الأوقات أصلح مما صارت عليه في السنين الأخيرة رغباً عما يدعونه ويشكون منه من عدم المساواة. وما من أحد أستفاد أكثر منهم من الإصلاح الذي أدخل إلى القطر المصري على يد الأحتلال البريطاني. كما يستدل من أن كثيرين من أغنى الأهالي وأوسعهم أملاكاً في هذه البلاد هم من الأقباط».

ولما ترجم هذا التقرير ونشر ثارت الصحف القبطية وأخذت تكتب المقالات الطويلة في الرد عليه. وأتهمت المعتمد البريطاني بأنه يتحيز للأكثرية الإسلامية ويحاييها على حساب الأقلية. وأفتتحوا بلندن المكتب القبطي للدعاية والإعلان، وكسب عطف الرأي العام البريطاني، والأستجداد به لتحقيق آمالهم والظفر بمطالبهم. ووضعوا على رأس هذا المكتب «قرياقص ميخائيل» يعاونه «لويس أخنوخ فانوس» الذي كان يدرس في إنجلترا في ذلك الوقت.

وشرع هذا المكتب يتصل بالصحف البريطانية وبأعضاء مجلس العموم وقد حملت الصحف البريطانية على السير الدون غورست حملات عنيفة، وناقشت تقريره مناقشة حادة، ووجه بعض النواب أسئلة محرجة إلى وزير الخارجية.

\*\*\*

وكانت مطالب الأقباط التي عرضوا لها في المؤتمر تنحصر في:

١- تعليم الدين المسيحي للطلبة المسيحيين بالمدارس. وقد تحقق هذا الطلب سنة ١٩٥٥ في ظل الاستقلال. حققت حكومة وطنية مستقلة، لا دار الأحتلال البريطاني، ولا وزارة الخارجية البريطانية.

٢- أن تنفق الحكومة على محاكم الأحوال الشخصية للنصارى، لأنها تنفق على المحاكم الشرعية. ومع أن المحاكم الشرعية كانت تدر رسوماً تزيد على نفقاتها، إلا أن مطلب الأقباط هذا قد تحقق سنة ١٩٥٥ فأصبحت المحاكم الوطنية تنظر قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين ولغير المسلمين.

٣- تقرير يوم الأحد عطلة رسمية بالنسبة للموظفين المسيحيين في جميع المصالح الحكومية، وكذلك بالنسبة لطلبة المدارس والمعاهد. وأعتبر أيام الأعياد المسيحية عطلة رسمية يعفى المسيحيون فيها من الذهاب إلى أعمالهم. وقد أجيوا إلى طلبهم فيما يتعلق بالأعياد، فصرح لهم بالتغيب في خلالها، أما العطلة الأسبوعية فظلت كما هي أسوة بالبلاد التي وجدت فيها أكثرية وأقلية، ونزلت فيها الأقلية على حكم الأكثرية.

٤- زيادة عدد الموظفين المسيحيين، لأن نسبة عدد المتعلمين المسيحيين يبلغ ٣٥% من مجموع المتعلمين، فيجب أن يغالوا من الوظائف بمثل هذه النسبة. وقد أصبحت هذه الشكوى منتهية الآن، لأن

ديوان الموظفين يجرى التعيين في الوظائف عن طريق الأمتحان دون النظر إلى الاعتبارات الدينية.

٥- إعطاء المسيحيين حق الترقية الإدارية إلى الوظائف الإدارية الكبرى كوظائف مديري الأقاليم. وقد عارض الإنجليز هذا الطلب. قال السير الدون غورست: «إذا عين قبطني في وظيفة إدارية عالية وجد أن معظم الأهالي أعداء له، لا يعاونونه ولا يطيعونه:» وقال: «إن الاختبار أظهر عدم كفاءة الأقباط لهذه الوظائف مع أهليتهم للوظائف الأخرى، لأنهم خالون من الصفات الإدارية، وقد جربوا في خفر السواحل والسجون فلم يفلحوا».

والحق إن الوظائف الإدارية الكبرى في جميع بلاد العالم لا يشغلها إلا أبناء الأكثرية.

\*\*\*

وقد نظم شعراء المسيحيين قصائد كثيرة في تحية المؤتمر نذكر منها قصيدة<sup>(١)</sup> بولس الشماع وهي:

بشّر بني فرعون بالسراء	فاليوم يوم سعادة الأبناء
رمسيس قم وأنظر لمؤتمر حوى	من كل واد أنجب النجباء
أنا إن طريت فإنما من نخوة	تعلو بنا في سُلّم العلياء
أنا إن سررت فإنما من نهضة	تقضي على التفريق شر قضاء

(١) الوطن في ٩-٣-١٩١١.

إن الشعوب إذا توحد أمرها  
ويد الإله مع الجماعة إن هم  
نؤابنا سيروا بنا نحو العلا  
وأستعصموا بالله لا تتفرقوا  
وحذار أن يقف القنوط أمامكم  
ودعوا الرئاسة للصغار إذا هم  
قولوا لمن نسج الغرور مقالهم  
خير لكم وبلادكم لو تنهجو  
فالدين للديان جل جلاله  
لنضيف للتاريخ خير مآثر  
فلكم من الشعب الأمين تحية

فازت بلا تعب ولا غوغاء  
خدموا بصدق طوية وولاء  
إن العلا بتآزر وإخاء  
إن التفرق أصل كل بلاء  
فيعيقكم عن رفعة وعلاء  
سلكوا سبيل أمانة ووفاء  
كالعنكبوت يزول بالأنواء  
ن على صراطٍ مستوٍ وإخاء  
والنيل مشترك بغير مرأ  
بيضاء مثل مآثر الآباء  
ولكم من الرحمن خير جزاء

فبعد أن عبر الشاعر عن سروره لعقد المؤتمر؛ دعا المسيحيين إلى  
ترك ما بينهم من خلاف جرت وقائعه بين الإكليروس وخصومه بسبب  
الأوقاف وغيرها. وأشاد بقيمة اتحاد أبناء الطائفة النصرانية، ونادى بضم  
صفوفها، لأن الاتحاد هو الطريق إلى نيل المآرب، وتحقيق المطالب،  
وهو السبيل إلى النجاح. ثم قال إن المسلمين أغتروا بكثرتهم، والكثرة  
لا تغني عن الكفاءة. وأشار على إخوانه بأن يطلبوا المساواة في الوظائف  
لأن الوطن للجميع، أما الدين فلله. وختم قصيدته بأن حيا الأعضاء بأسم  
الشعب المسيحي، ودعا الله أن يجزيهم خير الجزاء.

\*\*\*

## وقال رياض غبريال<sup>(١)</sup>:

على أفق الآمال تعلو وتنظرُ  
رغائبنا مثل الضمائر تُستترُ  
توارثتم المجد الذي كان يُذكر؟  
وصبر وإقدام، فهل نتبصر؟  
يكون لنا هذا القليل الموقرُ  
بأسيوط يمسي ليلة فُيُكْرُ  
تحريككم الأقباط طُراً وتفخرُ  
كريم يدٍ عنه المكارم تُنشرُ  
وفيكم خطيبُ القبط ليثٌ غضنفرُ  
نهار غد يدي الجميل ويظهرُ  
هي سنة الإخلاص والعدل تشهرُ  
وحب ذوي القربى ومن بات ينفُرُ  
إلى رُزمة الأعداء، هل يتقهقرُ؟  
وسيروا على التحكيم، والحق أقدرُ  
يغر ويغري من يطيع فيحقر  
عيون بني الأقباط باتت تحدرُ  
حبال تشدوها فلا تنشُرُ  
وأصغرکم في خدمة القوم أكبرُ  
دعتكم إلى غاياتها فتذكروا

بنی القبط إن القبط نُجلّ عيونهم  
بنی القبط أفینا السنین ولم تزل  
تفاخرت الدنيا بآبائکم فهل  
سلوا ما حوا آياتهم من شمائلٍ  
قليل عديد الأكرمين، نعم عسى  
ألا أيهدا «المجمع» القادم الذي  
تظل بكم هذى العيون شواخصاً  
وفیکم سرّی عاقل عامل كذا  
كذاک لیب يعرف الناس لُبّه  
إذا الليل أخفى مُبتغاکم فإنما  
لکم سُنّة الإنجيل نُصب عيونکم  
هي سنة الإنصاف والبرِّ والنُّهي  
ومن يك لا ينفك يظهر حبه  
نناشدکم بالله ألا تفرّقوا  
ولا يغوکم شیطان حب رئاسة  
ولا تفترق آراؤکم إنَّ حولکم  
وكونوا بنی آبائکم إن تصرمت  
كذا واذکروا أن الكبير صغیرکم  
بذا تکرمون الحق والأمة التي

(١) الوطن في ٦-٤-١٩١١.

حدث أختلاف بين المسيحيين حول رئاسة المؤتمر. فقد أرادها أخنوخ فانوس لنفسه، زاعماً أنه لسان النصارى الناطق، وقلبهم الخافق، والمحامي عن حقوقهم، والساعي إلى تحقيق آمالهم. ونازعه فيها «بشرى حنا» مدعياً أنه صاحب الفكرة في عقد المؤتمر، وأنه أول من رفع صوته بذلك، وأنفق المبالغ الطائلة في سبيل الدعاية له، والإعداد لأستقبال أعضائه. وأخيراً تقررت الرئاسة له حسماً للنزاع.

وقال نصر لوزا (١) من قصيدة:

ولكن إذا سرتم بجد إلى النهي  
وهيئوا بإقدام إلى ذروة العلا  
فلا تسكتوا يا قوم عن نيل مغمم  
وها سلم المجد المؤئل فأرتقوا  
فما دانت الأوطار إلا لمقدم  
وهل ترتقى العلياء إلا بسلم؟

ولم يكن بعض عقلاء الأقباط مرتاحاً إلى ما يقوم به المتطرفون من إخوانهم. قال تادرس (٢) وهي:

يا لقومي وقد دجا ليل خطب  
كان للنازعين فيه إلى الشدا  
بين آل الإنجيل والفرقان  
رَّ كما يعلم الإله يدان

أكبرته الأهواء ما أنزل الله بها من الأنام من سلطان

فليوال الإرشاد والنصح فينا  
ولنفض النزاع، فالصلح خير  
كل ندب على الهدى معوان  
ولنشيد دعائم العمران

(١) مصر في ٢١-٢-١٩١١.

(٢) الوطن في ٣-٢-١٩١١.

بمراعاة شرطه أخوان  
من شئون الدّين للدّيّان

ولنمكّن عهد الإخاء وأولى  
ولندع كل ما أجدّ خلافاً

وهذا اتجاه طيب، ودعوة حق يسودها الإخلاص والصفاء، ويمتزج  
بها الود والوفاء، ولكنها قوبلت من المتطرفين بالجفاء، ولم تجد منهم  
إلا الآذان الصمّاء.

\*\*\*

وقال إبراهيم حنين في الدعوة<sup>(١)</sup> إلى اتحاد العنصرين: من قصيدة  
طويلة:

فليس في غيره للنفس تهيام  
في السعي ربّ لنا بالغيب علام  
وليس من دأبنا في السعي إحجام  
فهل تُرى فيه للتوفيق أقوام؟  
وهل تطوّع للتوفيق خدام؟  
هل أسرع القوم أقباط وإسلام؟  
قاموا بواجبهم، الله لو قاموا  
فلا يكيد لنا واشٍ ونمّام  
فلا يكون لما نبينه هدّام  
هناك تخفق للإناس أعلام  
هناك جرح الصفا والصفو يلتام

كلاً ولا شيء غير المجد نشده  
نسعى إليه ونرجو أن يوفقنا  
نسعى إليه بجزم جهد طاقتنا  
هذا وليس سوى التوفيق ينقصنا  
هالاً تُخصّص لتوفيق السنة  
هل أرع القوم فأرتاحت خواطرنا  
الله لو أسرعوا، الله أكبر لو  
هناك نحسو كنوس الحب نحن وهم  
ولا يجدّ جفاء بيننا أبداً  
هناك يرقص قلب العز مبتهجاً  
هناك تظهر شمس البشر مشرقة

(١) الوطن في ١٦-١-١٩١١.

هناك يُنظَرُ بدر الأُنس مَكتَماً  
هناك تُصدَحُ موسيقى الهنا فرحاً  
هناك تُصدَقُ في الآمال أحلامُ  
هناك تُسمَعُ للإسعاد أنغامُ

وقد أرفض المؤتمر القبطي بعد أن قرر تأليف لجنة برياسة أخنوخ فانوس لرفع مذكرة بالمطالب القبطية إلى الخديو، ورئيس النظار، والمعتمد البريطاني. وقد أُلتمست اللجنة من الخديو أن يحدد لها موعداً لمقابلته وتقديم المذكرة إليه، فرفض طلبها وأشير عليها بأن تقدم مذكرتها إلى رئيس النظار. كما رفض المعتمد البريطاني مقابلة أعضاء هذه اللجنة.

\*\*\*

وشرع المسلمون في الإعداد لعقد مؤتمرهم الذي أطلقوا عليه أسم «المؤتمر المصري» وأختاروا رياض باشا رئيساً له. وقد أفتتح المؤتمر أولى جلساته في يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩١١، وفي ١٨ يونيو توفى رياض باشا وتأجلت جلساته أياماً، ثم أسؤنفت. وفي رياسة رياض باشا للمؤتمر يقول أحمد شوقي من قصيدة طويلة في رثاء الفقيد:

ويرمي الدهر نادى عين شمسٍ  
طلعت على الندى بعين شمسٍ  
على ما كان يغدو القوم فيها  
تملكهم وقارك في خشوع  
رأيا وجوه قومك كيف جلّت  
ولا يحمي لواءهم الرّماة  
فوافتها بشمسين الغداة  
توافى الجمع وائتمر الشراة  
كما نظمت مقيمها الصلاة  
وكيف ترعرعت مصر الفتاة

تبينت الرّزانة والحصاة (١)  
 وهم بك في الذي تقضي حُفأة  
 أشار إليه حلمك والأناة  
 لك الكلم والكبار الخالدات؟  
 فأذان الشبيبة صاديات  
 وضُمَّ على الإخاء لهم شتات  
 عسى يأسون ما جرح الغلاة؟  
 وفرقت الظنون السيئات  
 تمزّقت الروابط والصلات

أجبل الرأي بين بديك حتى  
 وأنت على أعنتهم قدير  
 إذ أبدى الشباب هوى وزهواً  
 فهلاًّ قمت في النادي خطياً  
 تفجر حكمة التسعين فيه  
 تقول متى أرى الجيران عادوا  
 وأين أولوا النهي منا ومنهم  
 مشت بين العشيرة رُسلُ شرّ  
 إذا الثقة أضمحلت بين قوم

\*\*\*

وقد اشتدت الحرب القلمية بين الصحف الإسلامية من جهة،  
 والصحيفتين القبطيتين: الوطن، ومصر من جهة أخرى. قال زكي واصف<sup>(٢)</sup>:

بالطعن في الأقباط دون حساب  
 أحداً بلفظ أو أقلّ عتاب  
 أديان والأسماء والألقاب  
 وعلا الصراخ وفاق أعلى سحاب  
 طلب التساوي؟ صرحوا بجواب  
 ترمون إخواناً لكم بحراب

ما للجرائد أصبحت مملوءة  
 من غير ما ذنب جنينا، لم نسيء  
 قلنا مساواة بلا نظر إلى الـ  
 قامت جرائدكم علينا قومة  
 أ جريمة في شرعكم يا سادة  
 ماذا جرى حتى سعيتم ضدنا

(١) الحصاة: الرأي والعقل.

(٢) حفاة: جمع حفي، والمراد هنا العالم الذي يستقصي في طلب العلم.

(٣) صاديات: عطشي.

(٤) الوطن في ٢٥/٣/١٩١١.

حتمًا يقلل سلطة الأعرابِ  
تلك التي قد دونت بكتابٍ؟  
عَضُدُ لكم في شدةِ صعابِ

هذى البلاد بلادنا ووثامنا  
أوهل نسيتم للنبي وصية  
أوصيكم بالقبط خيراً إنهم

وكان يقود الحملة ضد المسلمين أخنوخ فانوس، وجندي إبراهيمي صاحب «الوطن» وقد بذلا ما في وسعهما، ووجهها إلى الصحف الإسلامية أقبح الشتائم، وأقسى عبارات السباب. مثال ذلك ما كتبه جندي إبراهيم تحت عنوان <sup>(١)</sup> «أبيها القاريء المحترم» وهو:

«أقرأ «الأهالي» أسبوعاً برمته ولو ثقل الأمر عليك، وكان ذلك الأسبوع أطول عليك من العصر الصخري».

«وأقرأ جريدة «العلم» أسبوعاً آخر متصبراً متجلداً، ولو أن قراءة «العلم» تهيج الأعصاب، وتذهب بصبر الصادقين».

«وأقرأ هذا «المؤيد» الدنس النجس يومين فقط، فإننا لا نستحل أن نكلفك قراءته أكثر من مرتين خوفاً على صحتك وآدابك».

«أقرأ هذه الجرائد كما قدمنا، وإذا كنت أيوباً جديداً ولك صبر البطارقة الأولين فطالع أعداد «اللواء» السقيم و«مصر الفتاة» الغليظة و«الجريدة» الجامدة الباردة».

(١) الوطن في ٢٧/٦/١٩١١.

«وإذا كنت مخاطراً براحة بالك، وبسعة صدرك إلى حد الجنون في المخاطر فأقرأ مجلة «المنار» وأكثف بمقالة واحدة منها، فإنك لا تقدر على حمل الجبال كلها فوق كتفيك. وربما أصابتك أعراض الكولرا من قيء وإسهال قبل أن تعمل برجائنا. فإن قراءة كل هذه السماجات والسخافات ليست من الهنات الهيئات».

«قرأت ما تقدم، فقل لنا بحقك ماذا تجد فيها؟ أو ما الذي يبقى في ذهنك من معاني كلامها في هذه الأيام؟».

«لقد حكم الزمان الجائر علينا بمطالعة هذه المطبوعات. وما زال القوم في كل يوم يتهمون الأقباط بدسياسة أو مؤامرة جديدة. وما في جرائمهم غير وصف هذه الأشياء والتخوف منها مع أن الأقباط عقدوا مؤتمراً علنياً، وطلبتهم معروفة من سنين، وجرائدهم غير مقصرة في الصراحة. فلسنا ندري بم تقوم المؤامرة! وعلام الدسياسة التي يتخوفون منها، ويعيروننا بها الآن؟!».

«ولو أنهم اعتبروا سرد المطالب القبطية دسياسة ومؤامرة، وأكتفوا بهذا الوهم الصياني الذي يدل على صغر العقول، وسخافة المدارك، لخف الأمر، وأمكن الإغضاء عنه، ومعاملة قائله بالحلم والصبر. ولكن الجماعة ما زالوا في هذا الهوس يتخبطون، ويخلطون في كل صغيرة أو كبيرة، حتى أنهم إذا أمطرت السماء قالوا دسياسة قبطية. وإذا أشد حر الشمس زعموا أن ذلك مؤامرة مسيحية».

وكتب جندي إبراهيم مقالاً آخر<sup>(١)</sup> تحت عنوان: «رمتني بدائها وانسلت» جاء فيه:

«هذا المثل ينطبق على الصحف الإسلامية التي قُدد وجهها من الصخر وأخصها «المؤيد» لأنها تفعل الفعلة وترتكب الجريمة، ثم لا تخجل من إصاقها بالصحيفتين القبطيتين».

«نحن نعلم أن الصحيفتين القبطيتين قد خلقتا لكي تكونا قذى في عين تلك الصحف، وشجى في حلقها، وشوكة في جنبها، لأنهما واقفتان بالمرصاد للدساسين والمخانلين، والذين يحاولون أن يعيشوا من أحس الطرق على حساب الأقباط. فتكشفاً دخيلتهم. وتفضحان أمرهم، وتسدان باب الربح الحرام في وجوههم. ولكن من الغريب أن تلك الصحف لا تكتفي بالإفتراء على الصحيفتين وحدهما. بل إنها تجاوزتهما بالإفتراء على الموظفين الأقباط في دوائر الحكومة، وأختلاق التهم الشائنة، وتجسيم الهفوات الصغيرة، ومتابعة المساعي الخفية، والوشايات السافلة أمام الرؤساء وأصحاب السلطة للنكاية بهم».

«وأقرب مفترياتها عهداً أتهمها للمعلمين الأقباط في نظارة المعارف بأنهم يظهرون التعصب ضد الطلبة المسلمين في الامتحان الشفوي، حتى أن المؤيد الذي هو أخبث عدو للأقباط أخذ يكرر هذه

---

(١) الوطن في ٢٧-٦-١٩١١.

التهمة على أشكال شتى لكي تنتج التأثير المطلوب، ويظن من يقرأ تلك الصحيفة الكاذبة أن في الأمر شيئاً».

«على أنا أثبتنا أن تهمة التعصب والتشيع في الامتحانات العمومية ثابتة على بعض المشايخ من جهة لأن هذه هي فطرتهم التي فطروا عليها. ومن جهة للعيان؟».

«ولماذا ينظر الآن حضرة مدير الجريدة إلى الأقباط ومطالبهم المعروفة كما ينظر المحارب من أعلى عليين وحوله جيوش الأكرية الكثيفة إلى أقلية ضعيفة مغلوبة على أمرها، يخالها خصماً محارباً؟».

«لماذا يسهو حضرة الأستاذ عن حكمته ويشط عن أدبه؟ أليس من السداد والأدب أن يتناقش أبناء الوطن ويتحاسبوا فيما بينهم بالأدب والالطف؟ أم أن العجرفة والانتفاخ في القول من مستلزمات المحق في قوله؟».

\*\*\*

وكتب أخنوخ فانوس<sup>(١)</sup> مقالاً آخر موجهاً إلى أحمد لطفي السيد، جاء فيه:

«ألا أحذروا من الكبر والعتو حذرکم من معاقرة الخمر، فإنه ينفخ الأوتار ويشدها للشر ثم للبتر. كونوا مصريين فقط، لا أكثرية مسلمة، ولا

---

(١) مصر في ١٩١١/٢/٢٨.

أقلية مسيحية. وتواضعوا مع إخوانكم، وتقاسموا اللقمة كأخوة فيما بينكم  
بسلام وقسط، فإن ذلك أولى بكم، وأضمن لفلاحكم».

هذه بعض أمثلة مما كتبه الصحف القبطية. أما الصحف الإسلامية  
فإنها لم تستخدم عبارات نابية، ولا ألفاظاً جارحة كالتى جاءت في  
الصحف القبطية، لأنها لم تكن في حاجة إلى ذلك، فكانت تكفي  
بالمناقشات المنطقية، والأدلة العقلية. وتسوق الإحصائيات عن عدد  
الموظفين المسيحيين في المصالح الحكومية. مثال ذلك ما جاء في  
المؤيد بتاريخ ٦-٣-١٩١١.

«إذا كان عددهم - أي المسيحيين - في مديرية أسيوط لا يتجاوز  
٣٠% بمقتضى الغلو والمبالغة في الحساب، إذا كان الأمر كذلك وهم  
يسمون أسيوط عاصمة الأقباط، فكيف يكون حال مسلمي مديرية  
أسيوط لو كان عدد الأقباط فيها سبعين في المائة والمسلمين ثلاثين؟ بل  
كيف يكون حال مسلميها إذا كان عدد الأقباط فيها تسعة وتسعين في  
المائة كحال المسلمين من سكان مديرية الغربية أو المنوفية؟».

«اللهم ننظر إلى حالة الأقباط الآن وهم أقلية لا تزيد على سنة في  
المائة، ورعية محكومة منذ ثلاثة عشر قرناً، والموظفون منهم مع ذلك في  
مجموع المصالح المصرية يزيد عددهم على ستين في المائة، ثم هم مع  
هذا يجمعون جموعهم ويتآمرون سراً وعلناً ضد المسلمين. ويرفعون  
شكواهم إلى إنجلترا بأنهم مظلومون مضطهدون مسلوبون مهانون.

فيقول: لو كان ما للمسلمين الآن من كثرة وسلطة شرعية هو للأقباط لما وجد المسلمون منهم مكاناً من وادي النيل يقطنون فيه، بل يكسحونهم إلى مجاهل صحراء ليبيا كسحاً إن بقي لهم ظل في الحياة».

«لقد كان الأقباط قبل الاحتلال الإنجليزي لا يفكرون في مثل هذه المزاعم التي يزعمونها الآن، ولا يتجاسرون على أن يعتبروا لهم عاصمة في البلاد تقابل عاصمة الحكومة الإسلامية. فلعلهم يعتزون بالاحتلال الإنجليزي ظناً منهم أن هذا الاحتلال يغير من صبغة الحكومة الإسلامية شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى وتحل محلها حكومة مسيحية».

هذا مثل مما كانت تكتبه الصحف الإسلامية وعلى رأسها المؤيد.  
فهل يستحق المؤيد أن يوص بأنه نجس دنس؟؟

\*\*\*

ويلاحظ أن سياسة غورست نحو الأقباط لم تختلف عن سياسة كرومر إلا في شيء واحد؛ وهو أن كرومر كان يفتح بابه لكل صاحب شكوى، ويقابله بلطف، ويتحدث إليه بكل معسول. أما غورست فإنه رفض أن يقابل زعماء الأقباط وأظهر نحوهم جفاء شديداً، لأن سياسته كانت تهدف إلى القضاء على الحركة الوطنية، أو بعبارة أدق على الحزب الوطني. والقضاء على الحزب الوطني لا يتحقق إلا بصرف الناس عنه وإبعادهم عن زعمائه. فلو أنه أظهر أقل عطف على المسيحيين لكان ذلم مدعاة إلى نفور الأكثرية الإسلامية منه وألتفافها حول الحزب

الوطني. ومن المعلوم أن إنجلترا لم تحتل مصر للدفاع عن مصالح طائفة معينة، ومحاباتها على حساب طائفة أخرى، وإنما أحتلتها تحقيقاً لمطامعها الذاتية وإشباعاً لحاجاتها الإستعمارية.

وقد تنفس المسيحيون الصعداء حينما جاءت الأنباء بوفاة غورست في صيف سنة ١٩١١ وفرحوا فرحاً لا مبرر له بقدم اللورد كتشنر، وأستقبلته الصحافة القبطية بالمدح والثناء.

## الحركة الوطنية وأثرها في الأدب القبطي

١- من سنة ١٨٨٢-١٩١٩

إذا نظرنا إلى الأقليات في مختلف الدول وجدنا أنها تقف من الاكثريات موقف الشك والحذر؛ نتيجة للمظالم التي وقعت عليها في عصور الاستبداد والطغيان ولم يكن موقف المسيحيين في مصر ليختلف عن موقف هذه الأقليات.

كانوا يعارضون النظام الدستوري معارضة شديدة، ويرفضون بإصرار فكرة إنشاء مجالس نيابية، لأن هذه المجالس تؤدي إلى تحكّم الأثرية الإسلامية في الأقلية المسيحية. وتوهموا أن حقوقهم ستهضم، ومصالحهم ستداس بالأقدام. وقد نشرت صحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ مقالاً تحت عنوان: «الأقباط والدستور»<sup>(١)</sup> جاء فيه:

«لا حاجة إلى التكرار والإعادة، وسرد الأسباب التي تحمل الأقباط على تحمل مخالفة إخوانهم في طلب الدستور الآن. فإن الذي نراه كل يوم من غارات الجرائد الإسلامية عند ذكر حوادث لها علاقة بالأقباط، ومن سعي الأحزاب الإسلامية لحصر المنافع واحتكار الوظائف

(١) الوطن في ١٥/٨/١٩٠٩.

وإبعاد الأقباط عنها بمثل ما يجرى سراً وجهرًا في بعض النظارات. وإن الذي يسمعه الأقباط عند كل احتكاك في هذه القرى ولا سيما في الجنازات القبطية، وفي زفاف الذين ينتحلون الإسلام من رعاي القبط لغرض قبيح، أو في غير هذه الأحوال، إن هذا كله يكفي لإقناع أهل الأرض بأنه إذا أعطى المصريون حق الحكم الذاتي، وجمهورهم وجرائدهم على الحالة الراهنة؛ لجارت الأكثرية بالأقلية، وسحقها بأسم الدستور، وعادت إلى استعبادها وإذلالها. فالأقلية تخاف من هذا الدستور ما دام في مصر الآن ما فيها من الأميال والخواطر، ولكنها لا تكره الدستور كرهاً مطلقاً».

«بقي أن نذكر «المؤيد» الأغر بخطأ ظاهر كرهه، إذ قال مراراً إنه ليس في الوجود فئة تختلف في طلب الدستور لبلادها، أو تتخوف من عواقبه. وهو يزعم أن الأمة القبطية تفردت بهذه الخطة، وزعمه بعيد عن الصواب».

«فلا بد أن يذكر القراء حالة المسلمين في الهند، وقد أصابهم ما أصاب الأقباط هنا حتى إنهم لما سمعوا من سنتين أن في نية الحكومة الإنجليزية إعطاء الهند حق الحكم الذاتي؛ قاموا وأعترضوا نفس اعتراض الأقباط، وكان المؤيد أكبر ناصر لهم. فقولُه بعد هذا إن الأقباط ساروا على خطة لم تسلكها أمة أخرى تمام في الشطط».

«ومن هذا القبيل مسلمو قبرص. ربما يذكر القراء أيضاً أنهم قدموا العرائض لإنجلترا يطلبون فيها ألا يجاب طلب الأكثرية من أهل تلك الجزيرة، والأكثرية مسيحية، ولا ينشأ في قبرص مجلس نيابي، لأنهم يؤثرون حكم الدولة الإنجليزية على حكم الأكثرية من الأورام. وقد أشتهر هذا الأمر في حينه، ووافقت جرائد مصر الإسلامية على خطة الأقلية في قبرص. وأما في نفس الوطن المصري فالجرائد الإسلامية لا تريد أن تعترف بحق الأقلية، ولا تنصفها في أمر من الأمور».

«هذه أيرلندا وأهلها من الطبقة العليا ذكاء وتمدنا. ولكن معظم أهلها من الكاثوليك، وفيها أقلية من البروتستانت في ولاية الستر؛ تعرف بأسم الحزب الأورانجي: فالأورانجيون ما زالوا من قدم كلما طلب الدستور لأيرلندا يخالفون في الطلب، ويعارضون ويصرون على إبقاء أيرلندا تابعة لمجلس النواب الإنجليزي وحكومة لندن، لأنهم يخافون أن تضيع حقوقهم فيما إذا نالت أيرلندا الدستور وصار الأمر فيها للفريق الكبير».

«إن خطة الأقباط في الدستور المصري هي خطة الصدق والشرف والأمانة، وإنها خطة طبيعية لا يجوز لأحد أن يعدها عاراً على الأقباط».

\*\*\*

وفي مارس سنة ١٩١٠ زار مصر مستر روزفلت؛ أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، وألقى خطبة في الجامعة المصرية جاء فيها:

«تربية<sup>(١)</sup> الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً للعمل يستغرقان أعواماً طويلة، وهكذا تربية الأمة وإعدادها حتى تنجح في واجبات الحكومة الذاتية لا يتأتيان في عشر سنوات، أو عشرين سنة، بل يلزم لهما أجيال متعاقبة. إن بعض الدجالين الجهلاء يزعمون أن مجرد إعطاء دستور على الورق ولا سيما إذا جعلت له مقدمة ترن ألفاظها في الآذان؛ يجعل الأمة قادرة على الحكم الذاتي، وليس الأمر كذلك أبداً».

ثم قال: «إن جامعتكم جامعة وطنية لا تعرف عقيدة دون أخرى، وهذا كما يجب أن يكون. إذا ذكرت المساواة بين المسلم والمسيحي، فإنما أذكر ذلك على اعتقاد أنه حينما يكون المسيحي هو الأقوى؛ فالواجب عليه أن يعامل المسلمين بالعدل والإنصاف، وكذلك حينما يكون المسلم هو الأقوى فالواجب أن يعامل المسيحي بالعدل والإنصاف».

وسافر روزفلت إلى لندن وألقى خطبة طويلة عن السودان ومصر. فكان مما قاله عن السودان:

---

(١) نقلاً عن «تاريخ الأقباط في القرن العشرين» لرمزي تادرس ١٥١/٢ وما بعدها.

«الغرض الأكبر الذي كان أولئك السودانيون يرمون إليه بأستقلالهم وحكم أنفسهم بأنفسهم؛ لسوء الحظ؛ هو القضاء على كل الأديان الأخرى ما عدا دينهم واتخاذ الحرية التامة في المتاجرة بالعبيد. لكن هذا لا يعد نجاحاً، إنما النجاح الحقيقي فيما أنتهى إليه حكمحك - يعني الإنجليز - لتلك البلاد، بعد أن دالت منها دولة المهدوية. ذلك النجاح المدهش الذي لا أظن مطلقاً أن بلداً من بلاد العالم كله نال مثله، إذ أنتقل من منتهى الشقاء والفساد إلى أصح أنواع الحياة القومية، ولم يكن ذلك إلا في اثنتي عشر سنة فقط، منذ دخل تحت حكم السلطة الإنجليزية. ولا حاجة إلى القول إن تلك البلاد السودانية كانت إلى ذلك الحين مستقلة وحاكمة نفسها بنفسها، فليس كل أستقلال ولا كل حكم. فقد كان أستقلالها من قبيل أستقلال الذئب في حظيرة واحدة، ينحر همها في نهش بعضها بعضاً، والسطو على الغير».

وقال عن مصر «إنكم - يخاطب الإنجليز - لستم فقط خفراء على مصالحكم في مصر، بل خفراء على مصلحة المدنية عموماً. فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ أُلقي عام، وربما أفضل حكومة رأتها من بدء التاريخ، لأنه لم يذكر مطلقاً أن الفلاح المصري كان يعامل ما عومل به منذ الأحتلال الإنجليزي من العدل والرحمة وتحت حكومة خلت من كل فساد وهمجية. غير أن الحوادث الأخيرة ولا سيما حادثة مقتل بطرس باشا غالي بما تقدمها وما رافقها وما جاء بعدها من الحركات والنزعات؛ دلت دلالة واضحة على أنكم أخطأتم في بعض نقط حيوية بحيث تصنعون حسناً إذا أصلحتموها. وما كان هذا الخطأ لأنكم أفدتم

المصريين قليلاً، بل لأنكم أفدتموهم كثيراً. ولكن مصلحة المدنية تقضي لسوء الحظ علينا جميعاً أن نعامل الشعوب الغير متمدنة، ولا سيما الشعوب المتعصبة معاملة غير مألوفة عندنا، متذرين على الدوام بأن معاملة الرفق واللين والضعف في مركز كمركزكم في صر يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم. وليس بين العصا المرضوضة التي يتوكأ عليها العدل والحق ما هو أضعف ولا أسهل كسراً من عصا اللين».

هذا ما جاء في خطب روزفلت من المطاعن القبيحة في المصريين والسودانيين. وقد هاجت الصحف الإسلامية هياجاً شديداً، وحمل الكتاب والشعراء على روزفلت حملات شعواء، كما حمل عليه بعض الكتاب الإنجليز.

إلا أن المسيحيين في مصر أظهروا بإزاء هذه المطاعن الفرح والسرور، وقابلوها بالغبطة والحبور. ووضعوها على العين والرأس إذ لم يجدوا فيها من بأس، ودقوا في الكنائس الأجراس. وشكروا المسيح بكل قول فصيح، ومجدوا مريم البتول بكل لفظ مقبول. فنشرت صحيفة<sup>(١)</sup> الوطن بحروف كبيرة عنواناً هذا نصه «روزفلت - على الطائر الميمون يا نصير الحق، ويا منصف الأقلية من الأكثرية».

وتحت هذا العنوان برقيات كثيرة من مختلف الهيئات المسيحية فيها مدح عظيم لروزفلت، منها:

---

(١) الوطن في ٣١-٣-١٩١٠.

١- برفية من مدير جريدة الوطن، ونصها: بأسم الأمة القبطية بأسرها نشكركم على خطابكم السامي في الجامعة المصرية.

٢- برفية من جمعية الرابطة المسيحية ونصها: بلسان الشيبية القبطية نقدم لكم واجب الشكر للنصائح الذهبية التي أقيتموها علينا. ونسألکم أن تذكروا مصر في بلادكم النائبة.

٣- من الطلبة الأقباط في مدارس الحقوق والهندسة والطب: نحن طلبة الأقباط بالمدارس العالية. نتشرف بأن نرفع إلى مقامكم عظيم تشكراتنا القلبية لما زودتمونا به في خطابكم النفيس بالجامعة المصرية من النصائح الغالية، والتصريحات الصادقة الحرة. ثم إننا بأسم الحق والعدل والمساواة نسألکم أن ترفعوا صوتكم على الدوام بالانتصار للضعفاء، والدفاع عن حقوق الأقلية في مصر وأين وجدت. إمضاء ٢٥٦ طالباً قبطياً.

ومدحوه شعراً ونشراً. فمن ذلك ما قاله <sup>(١)</sup> رياض غبريال، وقد عرض في قصيدته لرحلة الصيد التي قام بها روزفلت في ربوع السودان، فقال:

أهلاً بروزفلت العظيم ومرحبا	أكرم به ضيفاً أتى ونزيراً
للصيد جئت من المغارب سائحاً	تبغى إلى أرض العبيد وصولاً
فقطعت أبحاراً وجبت فيافيا	وكانها كانت لديك سهولاً

(١) في ٣٠-٣-١٩١٠.

وهناك في بحر الغزال وأرضه  
طوراً يغازلك الغزال وتارة  
ومعفر الليث الزؤور بغيظه  
يطوى صدور الأرض طية؟؟؟  
لو كان هذا الليث يعلم أنه  
أو كان يدرك أنه في رثيه  
النأى يهديء غيظه مستسلماً  
غرته قوته فجاء مكافحاً  
حتى إذا تم التقاؤكما معاً  
متخضبا بدم التغرر ساقطا  
أسد على أسد وليس بنادر  
فاز الذي أتخذ الشجاعة خلةً  
ماكل من زعم الراسة فائزاً  
أهدى الزمان لأرض كولمبوس رُز  
أهدى الزمان كلامه فهدى به  
أهداهم آراءه وكأنما  
وكانها التوراة في سلطانها  
أو أنه كان الرسول لأمة  
نطقت بسؤدده البلاد تغنياً  
ياليت شعري هل لنا كم رأيه  
أو هل لنا من خير أقوال الحجي

\*\*\*

حل الركاب المغربي حلولا  
تنحو فتيصاد الفرى والفيلا<sup>(١)</sup>  
قد جاء نحوك يطلب التمثيلا  
يطأ الثرى ويدكها تذليلا  
يُلقي شجاعا لا يهاب حؤولا  
يلقى الردى والحتف والتكيلا  
وجرى يهرول هاربا مخذولا  
وقربت قربا ظنه التطفيلا  
حكم السلاح بأن يموت قتيلا  
وكانما قابلته مشكولا  
أن يقتل الأسد العظيم هزيلا  
عظّم الذي أتخذ السداد خليلا  
فيها وماكل الرجال نبيلاً  
فلت العظيم مؤملاً ومُنيلاً  
من خير منطقة الرجال عقولا  
آراؤه كانت لهم تنزيلا  
لا تقبل التحويل والتأويلا  
إن قال قولاً جبداً ما قبيلاً  
بلغ الفرات دويئةً والنيلاً  
أنموذج يستقطع التضليلاً؟  
ذكرى نرتلها غداً ترتيلاً؟

(١) الفرى: الحمار الوحشي.

وكان يعارضون بشدة وعناد طلب المصريين الخاص بجلاء قوات الاحتلال وذلك لأنهم توهموا أن حياتهم ورفاهيتهم رهينة بوجود النفوذ البريطاني. فهم بخير ما دام الإنجليز في مصر. وأما إذا غادروها فأغلب الظن أن الأكرثية الإسلامية ستتكلم بهم، وستبعدهم عن الوظائف، وستضطهدهم كما كان يفعل الحكام في العصور الخالية؛ هكذا كانوا يعتقدون. وكانوا يقولون إن الحزب الوطني لا يدعو إلى الاستقلال، وإنما يريد إجلاء الإنجليز المسيحيين ليعيد البلاد إلى السيادة العثمانية. وقالوا إن فكرة الجامعة الإسلامية التي كان ينادي بها الحزب الوطني لا تؤدي إلا إلى إرجاع مصر إلى الحكم التركي. وأخذوا يوازنون بين أحوالهم في العصور الماضية، وما صاروا عليه في ظل الاحتلال. وقد كتب أحدهم في الوطن<sup>(١)</sup> سنة ١٩٠٩ مقالاً جاء فيه:

«قامت القيامة، وبلغت الشقشة عنان السماء بطلب جلاء الاحتلال عن مصر؛ مؤكدين أن لا تعصب بين المصريين، وأن روح المساواة والإخاء ترفرف بجناحيها فوق الربوع. فأين ذلك الإخاء؟ وأين تلك المساواة التي يتمشدقون بها ما دامت حقوق الأقباط مهضومة إلى هذا الحد؟».

«كيف ننفي صفة الظلم وهي كامنة في الصدور كمون النار في الهشيم؟ فإذا ما كتموها مرة ظهرت مراراً. وما كان هذا التكتم إلا برقعاً شفافاً لا يلبث لأقل حادث حتى يتم خارجه عما بداخله. وما دام هذا

(١) الوطن في ١٥-٩-١٩٠٩.

حالتنا وتلك أفكارنا فلا وطن ولا وطنية. وأما ما يسمونه إحاء ومساواة فما هو إلا لفظ بلا معنى».

وكانوا يطرون الأحتلال ويتغنون بفضائله ومناقيه، وما أداه للبلاد من خدمات. مثال ذلك ما كتبه رمزي تادرس، وهو:

«ونتج عنها- يعني الثورة العربية- الأحتلال الإنجليزي الذي وطد الأمن في مصر، وأحيا فيها العدالة، وصيرها أمة متعلمة متحضرة غنية بعد أن كانت تهيم في دياجي الفقر والجهل والفوضى وسوء النظام».

ولما كان الحزب الوطني هو الذي يتزعم في ذلك الوقت حركة المطالبة بالحياة النيابية والأستقلال، فقد واجه رجاله حملات عنيفة متتابعة من كتاب المسيحيين وشعرائهم. حملات مملوءة بأقبح أنواع الشتائم والسباب. قال رمزي تادرس<sup>(١)</sup>.

«على أن تلك الحضارة التي بسطت أنجلترا رواقها في وادي النيل بقوة رجالها وجهادهم المتواصل لم تبدد ميول الحزب الوطني القديم من الصدور، ولم يخفت صوته. فأعاد نفر من المتمصرين الحركة العربية الأولى بصوت أشد، وقام ينازع الإنجليز في الوظائف التي يشغلونها ليربع فيها، ويستعمل سلطته للتكيل بالأمة، وإعادة المظالم الماضية، والأضطهادات الغابرة».

---

(١) الأقباط: في القرن العشرين ١٣/٢.

«فهم أدعياء الوطنية مرمى السياسة الأوروبية، ورأوا فيها تنشيطاً لإنجلترا على إتمام إصلاحاتها في الديار المصرية، ولكنهم لم يقتنعوا بما رأوا، بل أخذوا يضربون على نعمة الجلاء ظاهراً، وعلى نعمة المطامع باطناً فأنحاز إليهم بعض الموظفين الذين لم تؤهلهم كفاءتهم لنيل الوظائف العالية، وفريق من الرعاع والتلاميذ الذين لا يفقهون معنى الوطنية والوطن. ثم تبادوا في خطتهم إلى درجة نحتوا فيها بالمقت والإهانة على كل من يقول إن الوطنية الحقيقية تأمرنا نحن المصريين بإكرام النزلاء والأعتراف بفضل الإنجليز، واقتباس العلوم الحديثة منهم، والأقتداء بهم في حضارتهم وأعمالهم. وقد لا ينبغي لنا التعجب من تهورهم إلى هذا الحد البعيد، ليس لأنهم أهل وهم وخيال، بل لأنهم لا يعرفون الوطنية سوى كره الإنجليز وبغض الأجانب، حتى نتجدن أشدهم ذكاء، وأكثرهم علماً ومعرفة بأحوال الأمم الراقية وطرق ارتقائها، يفضل أن يرى مصر- وهي ليست وطنه الأصلي- قاحلة فقراء، وأبناؤها فقراء جهلاء من أن يرى إنجليزياً أو أجنبياً يعمل على عمرانها وزيادة مواردها ورفاهيتها».

\*\*\*

وكان الحزب الوطني يضم فئة قليلة جداً من عقلاء المسيحيين وعلى رأسهم وبصا واصف الذي خلعت عليه الصحف القبطية لقب

«يهودا أسخريوطي» وأوسعته طعناً وتجريحاً. من ذلك ما كتبه صحيفة الوطن<sup>(١)</sup>:

«هذه الفئة القليلة الصغيرة من الأمة القبطية؛ الذين شذوا عن قياس أمتهم العام، وجعلوا يتقربون من الفريق المتطرف في عدا القبط، المنحط عليهم بالنقد والسخط، الطالب حرمانهم من الوظائف الحكومية».

«إن أفراد هذه الفئة القليلة من القبط لم يلقوا في طول البلاد وعرضها جريدة توافقهم على أفكارهم ويوافقونها غير اللواء الذي أشتهرت حملاته على الأقباط، والذي زور عليهم ما زور، وأفترى في كل هذه السنين. فهم ينمقون المقالات الباردة للواء، وقد جعلوه لسان حالهم كما أنه لسان حال الحزب المتطرف في طلب الجامعة الإسلامية والسيادة الإسلامية. فبارك الله لهم فيه، وبارك له فيهم».

إن الأمة القبطية تعرف مالها وما عليها، سواء خرج منها الأفراد الشاذون أو لم يخرجوا. وسواء أستعان اللواء بالمارقين من أبنائها عليها أو لم يستعن. ولطالما مرق الأفراد من حكم الأمم، وطالما قام في الأرض رجال من أمثال يهوذا الأسخريوطي، يعيشون من مصدر يخونونه؛ فلم تنهّد الدعائم، ولا ماتت الأمم من فعال هؤلاء المارقين».

«دع القبطي الذي شذ عن قياس قومه يقول ما يشاء، ودعه يخدم مصالح نفسه بأية الطرق التي يضر ظاهرها بأمتة الأصلية. إنه لن يلحق

---

(١) الوطن في ١٩٠٨/٦/٥.

بهذه الأمة ضرراً يمكن ذكره، ولن ينال رضى الفريق الناقم على أمته، المصادر لها، الميل إلى أسعابها، ولو أضاء أصابع يديه ورجليه، ولو علق نفسه بحبل أطول من حبل يهوذا الأسخريوطي، فما هو بأول من شذ وشرد، وحاد عن سواء السبيل».

\*\*\*

ولما عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر أواخر سنة ١٩١١ استقبله كتاب المسيحيين وشعراؤهم بالمدح الجزيل. قالت صحيفة الوطن (١):

«هذا هو اللورد كتشنر أمير الخرطوم، هذا فاتح السودان، ومذل التعايشي والقاضي على دولة الدراويش».

وقالت (٢):

«اليوم يصل القطر المصري رقبه المظفر، وعميد احتلاله الأكبر. اليوم تقصف المدافع من قلاع الإسكندرية تحية للبطل الغضنفر أمير الخرطوم، اللورد كتشنر».

«اليوم يهتز قضاء النيل، وتدوي البلاد بخبر القدوم المنتظر. اليوم يبدأ الدور الثالث من أدوار الاحتلال الإنجليزي في مصر، فليستعد

---

(١) الوطن في ١٩١١/٩/٢٨.

(٢) الوطن في ١٩١٢/١٠/٥.

الناس لما أعدت الأقدار، وسطرت في تاريخ الأدهار. وليكن رجاء الخير غاية الكل. إن الخير مضمون في هذا الدور الجديد بإذن الله، وعليه الأتكال في كل حال». وكتب جندي إبراهيم<sup>(١)</sup> في الصحيفة المتقدمة تحت عنوان ضخم وهو: «أمني وآمال في عميد الأحتلال» قال:

«عاد إلى مصر شبابها الرائع، وعيشها السائع بعودة اللورد كتشنر. وعادت إلى البلاد حركتها ونشاط أعمالها، لأنه منها بمثابة القوة المحركة من الآلة الدائرة، أو الباخرة السائرة، أو السفينة الطائرة. هو منها بمثابة الروح من الجسم، والعقل من الرأس. بل هو ملاكها الحارس، وصديقها الصادق، وربانها الحاذق يهيهء لها مرابع الرخاء ومرانع الهناء. ويوردها موارد الراحة والرفاهية، ويخلع عليها لباس الصحة والعافية».

«فلا غرابة إذا توجهت ركائب الآمال إليه، وتعددت وجوه المطامع والرغبات الصالحة بين يديه. ولا عجب إذا دلفنا إلى جنباه الرفيع بأمني الرعية التي يحرص على مصلحتها، ويسعى جهده إلى إسعادها وإنماء ثروتها».

وقال الشاعر المسيحي عزيز بشاي<sup>(٢)</sup> تحت عنوان: «فخامة اللورد كتشنر».

عاد الهمام وفارس الميدانِ وأخو العلا والفضل والإحسانِ

(١) الوطن في ١٠/٣/١٩١٣.

(٢) الوطن في ١٠/٣/١٩١٣.

والخائض العَمَرَات في يوم اللقا  
والمستغاث بجاهه والمرتجي

\*\*\*

والفاتح الأمصار والبلدان  
والمنصف المظلوم واللّهفان

شَرَفَت مصر فرحبت بقدومكم  
شدُّوا الرحال إلى ركابك كي يروا ال  
رفعوا الأياديَ للسماء وأنشدوا  
نطق الجماد بفضلكم متأثراً  
فالأنت أعظم فاتح في أمة  
ولأنت أعظم عامل في دولة

\*\*\*

عشرون مليوناً من السكان  
أسد الهصور وفتح السودان  
يدعون للورد بكل لسان  
ولسان حال الطير والحيوان  
رفعت منار العلم والعرفان  
بلغت عنان المجد كل أوان

أنقذت فلاحاً وصنت حقوقه  
علمته التوفير والتفكير في  
أوصلت ماء النيل للأرض التي  
تدفقت فيها الحياة وأصبحت  
ومحاكم الأخطاط أعظم خدمة  
ساد السلام وولت الفوضى وقد

\*\*\*

من جور أهل الظلم والطغيان  
غدر الزمان وطارق الحدّان  
قد خانها حظ من الفيضان  
من كل فاكهة لها زوجان  
في صالح الفقراء والأعيان  
شعر الجميع براحة وضمآن

لا زلت تقتمح الصعاب وتمتطي  
ونعيد للوطن العزيز مكانة  
فأسلم وُقيت الشر من كيد العدا  
وأنظر إلى المستخدمين فإنهم  
هم ينظرون إلى مكارم كئشئر

قمم العلا والمجد كل زمان  
كانت له في غابر الأزمان  
متأيداً بعناية الرحمن  
أحرى بنظرة رحمة وحنان  
نظر العليل لصحة الأبدان

وقال جندي إبراهيم صاحب جريدة «الوطن»<sup>(١)</sup>.

اهلا بمقدمك الكريم ومرحبا  
لعبت به الأغراض لعبة ظالم  
فتقاطع السكان بعد تَوَادِهِمْ  
فاقطع بحزمك جبل كل دسيسة  
فلأنت موسى اليوم فيك نجاحنا  
فأعد إلى هذى البلاد حياتها الـ  
وأرفع منار الحق بعد سقوطه  
فالقطر من قدم إليك لقد صبا  
هيهات غير الظلم أن يتطلبا  
وتفرقوا بميولهم أيدي سَبا  
وأفصم عُرى الأغراضوأجعلها هبا  
بساداد رأي لا بسيف ما نبا  
أولى بعدل كم وكم قد أطربا  
فالقبط لا يرجون غيرك مأربا

ولم يستفد المسيحيون من كتشتر أية فائدة. فإنه رفض أن ينظر في طلباتهم التي نادوا بها أيام غورست. وفي أيامه حدث شقاق عظيم بين الأقباط حول موضوع الأوقاف القبطية، ورفع إليه خصوم الإكليروس مذكرة بوجهة نظرهم وألتمسوا منه أن يتدخل لحل هذه المشكلة حلا عادلا، فأعتر لهم عن التدخل. وبذلك كسب عطف الإكليروس حتى أنه لما مات غريقاً في صيف سنة ١٩١٦ أقام البطريك صلاة على روحه في الكنيسة المرقسية الكبرى، وأغلق الأقباط متاجرهم، وكذلك أغلقت المدارس القبطية أبوابها.

وإذا كان شعراء المسلمين قد أكثروا من مدح السلطان عبدالحميد وغيره من سلاطين آل عثمان، ووصفوهم بالعدل والإنصاف، وخلعوا عليهم الفضائل والمناقب التي لا أساس لها من الواقع؛ فإن شعراء

(١) الوطن في ١٠/٥/١٩١٢.

المسيحيين لم يجدوا أية غضاضة في مدح ملوك الإنجليز. قال  
قسطنطين داود من قصيدة طويلة (١):

يا جورج يا حامي ذِمَارَ السلم قد  
فحكمت مملكة بحسن سياسة  
حقاً فإنك ذلك الفرد الذي  
بسديد رأيك قد أدت شؤون دُو  
والعدل والإنصاف ما بين السورى  
ولذا سموت على الملوك بأسرهم  
وكذا بلادك في العلا والعلم والـ  
أصبحت بحراً بالمعارف زاخراً  
شجعت أهل العلم طراً بالندى  
يا طالبي الإنصاف هذا المنهل الصّد  
يا طالبي الإسعاف عذا دوحه الـ  
لله مملكة سمت بك وأعتلت  
دامت شمس سنائها بالسعد طا

تُوّجت إذ للتاج أنت مُؤَهَّلُ  
تجلو المشاكل والصعاب تُذَلُّ  
أبدأ يحل المعضلات ويفصلُ  
لَتِكَ العظيمة ساهراً لا تغفلُ  
في كل ملكات عنهما لا تعدلُ  
شرفاً وموطنك السماك الأعزل  
عمران صار لها المحل الأول  
وغدوت غيثاً بالعواطف يهطلُ  
وبما عليهم دائماً تفضلُ  
أفي، وهل من بعد ذلك منهملُ؟  
عافي التي كلّ الأنام تظلُّ  
فوق السماك وعنه لا تتحول  
لعة كشمس سمائها لا تأفلُ

وقال قسطنطين نوفل من قصيدة طويلة (٢):

قد جاءه التاج ميراثاً يزينه  
سلطانه امتد في الدنيا على أمم  
يحمي حمى الدين كي تُهدى زواجره  
يا عاهلاً تحسد الأرض السماء به

فأصبح التاج فيه اليوم مزداناً  
لو خيروا ما ارتضوه إلاه سلطاناً  
من ليس يرهب في دنياه ديّاناً  
تتويجك اليوم عيد فيه بُشراناً

(١) الوطن في ١٩١١/٦/٢٣.

(٢) الوطن في ١٩١١/٦/٢٧.

هاك الملائك فوق العرش حاثمة  
جاءت تهنتك الدنيا ومن ملكوا  
فأستقبلتهم جوار منك مرسله  
بيضاء رائدة، سوداء سائده  
البحر قد ضاق عنها وهو متسع  
إنني تقيم يقيم العدل مَضْرِبَةٌ  
يا أيها الملك المرهوب جانبه  
الهند تذكر ما أوليت من نعم  
وهؤلاء «بُؤَيْر» القوم قد وجدوا  
من كان مثلك بالتقوى تدرع لا  
مولاي مدحك أولى الشعر مفخرة  
فعمش طويلا لخير الناس إنهم  
وأقبل تهاني قسطنطين عبدك مَنْ

عليك تستنزل الآراء رضواناً  
قيادها في الورى يا خير دنياناً  
بييت في وصفها المنطيق حيراناً  
كم أخضغت ف الورى بيضاً وسوداناً  
والبر تحت حماها بات عمراناً  
وحيث ترسو تُوَاحِي الأسدُ حملاناً  
زدت اتضاعاً لذك ازددت سلطاناً  
ومصر ما عرفت للفضل نكراناً  
بعدل حكمتك بعد القهر سلواناً  
تقوى عليه صروف الدهر عدواناً  
لذا بمدحك قد أصبحت ولهاناً  
سواك للخير لا يرجون إنساناً  
يَعُدُّ من الرضى فخراً ونيشاناً

وقال سليم عبد الأحد من قصيدة طويلة في مدح الملك جورج  
الخامس<sup>(١)</sup>:

يا صاحب العرش الرفيع عمادُهُ  
تعلو لصولته الشعوبُ وتنحني  
عرش تؤيده السفائن دونها  
الشامخاتُ السابحاتُ تُعَجِّجُ مِنْ  
يا ابن الجابرة العظام ونسل مَنْ

المستظل بجانيه السؤدُدُ  
قدَّامَه رُكِبُ الملوك وتعبُدُ  
شُمُّ الجبال الراسيات وتَعْضُدُ  
أثقالها لُجَجَ المحيط وتُزْبِدُ  
ثلوا عروش الفاتحين وبددُوا

(١) الوطن في ١٩١١/٦/٢٥.

وعلت لهم فوق المجرة راية  
أوتيت مجداً من جدودك ذكره  
وورثت عرش الفاتحين وإنما  
قامت حوالبك الملوك وأنت في  
مجد إذا قيس الخلود ففترة

\*\*\*

نزل السماك بظلمها والفرقد  
يفنى الخلود، ولا سواه يُخلدُ  
لك في قلوب الناس عرش أمجدُ  
مجد تخر له العروش وتسجدُ  
تفنى وعرشك في القلوب مؤيد

يا باسطاً ظل السلام وناشراً  
فخر الملوك سيوفهم مسلولة  
ولربِّ ممجد لا يدوم وصوله  
تطوى بقاياها الدهور وتختفي

\*\*\*

للعدل أولوية بفضلك تشهدُ  
وفخار سيفك أن سيفك مغمدُ  
تفي فينساها الزمان ويجحدُ  
آثارها في اللاحقين وتفقدُ

يا صاحب التاج المرصع حذا  
لك صولجان الملك يوم تهزه  
آلت إليه من جدودك دولة  
تبقى على مرّ الدهور فإنها  
ملك تضيق الأرض عنه وإنما  
ما إن تغيب الشمس عنه لأنه  
تحميه راياتٌ عليه خوافق  
صاغوا لك التاج الجليل فإنه  
تاج جواهره ما ترك التي  
فاهناً به أبداً ودهرك غافل  
ظل الإله عليك ما طال المدى

تاج بايات الجلال مؤيدُ  
تجد الملوك له تقوم وتعدُ  
شما يغبطها الزمان ويحسد  
ملك له يوم القيامة موعدُ  
هو مثل عرشك في القلوب مشيدُ  
ضخم برحب الخافقين مرطدُ  
وترد عنه الحاسدين وتبعدُ  
ما لاق بالتيجان غيرك سيد  
يشدو بها هذا الزمان وينشدُ  
وأنعم بعرشك والحوادث رُقدُ  
يهديك في سبل الكمال ويرشدُ

وقال نصر لوزا الأسيوطي<sup>(١)</sup> تحت عنوان «إلى جلاله ملك بريطانيا،  
وأمبراطور الهند والنيل» في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٤ :

ومشت تؤيد عدلك الأحكام  
للشهب تخضع مثلها الأجرام  
حلت يحل الأمن والإنعام  
إلا أتاهها من لَدُنكَ سلام  
من مجده الأيام والأعوام  
وغدا مكانك ليس تَمَّ يَرَامُ  
لا النقص يعقبه ولا الإبرام  
جَوْرٌ يَرَوُّعَهَا به الحكام  
لا الرمح يقهرها ولا الصمصام  
ليست وإن جار الزمن تُضَامُ  
فماتها طول الحياة زَوَامُ  
النصر حتما حيث سار لِزَامُ  
وتُراع منه بأسدها الآجام  
أنني يسير حتوفه قُدَامُ  
يوم النزال وللحمام حِمَامُ  
بالليل من لمعائها الإظلام

دانت لحكمك في الورى الأيام  
أخضعت كل الأرض فأبعث عسكرياً  
وأنشر جنودك في البلاد فإينما  
ما من بلاد للسلام مريدة  
لله درك من مليك تزدهى  
لله درك قد سموت إلى السهى  
بُلَّغت في الأمصار حكما نافذاً  
وَطَدَّتْ عدلك في ممالك سلمها  
والعدل يقهر في البرية أنفساً  
إن الشعوب إذا صفا لك وُدُّها  
وإذا تعدَّت بالهوى سبل الهدى  
دافعت عن حوض الضعيف بجحفل  
جيش يدك الراسيات إذا مشى  
النصر يمشي خلفه وعدوه  
هو للهزيمة إن أمرت هزيمة  
جيش إذا أستل الصوارم ينمحي

\*\*\*

طوعا لك الأرواح والأجسام  
خفقت بنصرك فوقه الأعلام  
سكانها في غبطة نوَامُ

مولاي أخضعت القلوب وأصبحت  
لك جحفل في أرض مصر رابض  
هو ساهر يحمي الكنانة بينما

(١) الوطن في التاريخ المذكور.

بيديك لوطن العزيز زمام  
يشنى عليك النيل والأهرام  
بين السورى الأعراب والأعجام  
قد بايعتك لعدلك الإسلام  
ويجل ذكرك في الصلاة إمام  
وتمايلت لورودها الأكمام  
ومديحها بك مبدأ وختام

ستنال مصر هناءها لما غدا  
حمدت رعايتك الكنانة وأنبرى  
وتحدثت بفعالك الغراء ما  
إن النصارى بايعوك ومثلهم  
يدعو لنصرك في الكنيسة بطرك  
والطير غرد في الكنانة بالمنى  
مصر العزيزة أخلصت في حبهما

\*\*\*

هذه القصائد تزخر بالعواطف الصادقى، وتفيض بالمشاعر المتوقدة والأحاسيس الملهبة. وفيها صورة جلية لنفسية المسيحيين، وما كانت تنطوي عليه جوانحهم من ميل شديد إلى الإنجليز، وحب خالص لهم، وتعلق بهم ولا عجب في ذلك فهم يجتمعون معهم في العقيدة الدينية. ويخطيء كل الخطأ من يظن أن الإنسان قادر على التجرد من العواطف الدينية. وإذا سلمنا بذلك، وسلمنا بحق الشعراء المسلمين في مدح سلاطين آل عثمان؛ وجب علينا والحالة هذه أن ننظر إلى مدائح شعراء الأقباط في ملوك الإنجليز بعين التسامح وبخاصة وأن العصر الذي نظمت فيه كان التعصب الديني على أشده بين العنصرين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نجد بعض شعراء المسلمين مثل حافظ إبراهيم، وأحمد نسيم وغيرهما قد مدحوا ملوك الإنجليز.

وشعراء الأقباط صادقون كل الصدق حينما يصفون ملوك الإنجليز بالقوة والبأس واتساع الملك الذي لا تغيب عنه الشمس. وحينما يتحدثون عن الأساطيل والجيوش البريطانية. أما شعراء امسلمين فكانوا

إذا تناولوا هذه الأمور بالنسبة للسلطان عبدالحميد تكلفوا القول،  
وتخيلوا ما لا وجود له، متجاوزين الحقائق المؤلمة التي كانت تحيط بهم  
وتفرغ آذانهم، وتندر بزوال البقية الباقية من الإمبراطورية العثمانية. وكأن  
شعراء الأقباط أحبوا أن يردوا ضمنا على المدائح السلطانية، وينقضوا  
على شعراء المسلمين قصائدهم في هذا الموضوع.

ولم تخل مدائح النصارى هذه من مبالغات، بل ومن طعن في  
المشاعر الوطنية. أنظر إلى قول نصر لوزا عن جيش الاحتلال:

هو ساهر يحمي الكنانة بينما      سكانها في غبطة نوام

فهل حقا نام المصريون فرحين آمنين مطمئنين حينما وضعت مصر  
تحت الحماية، وأعلنت الأحكام العسكرية سنة ١٩١٤، وسبق شبان  
المصريين إلى ميادين القتال، ونهب الإنجليز ثروات البلاد بشكل لم  
يسبق له مثيل في تاريخ البلاد؟

وأنظر إلى قوله:

ستنال مصر هناءها لما غدا      بيديك للوطن العزيز زمام

أي أن مصر ستحظى بالسعادة والرفاهية، لأنها أصبحت تحت  
حماية الإنجليز. وأنظر إلى قوله:

يدعو لنصرك في الكنيسة بطرك      ويجل ذكرك في الصلاة إمام

فقد كان أئمة المساجد يذكرون أسم السلطان العثماني باعتباره خليفة للمسلمين، ويدعون له بالنصر. فلما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية في ديسمبر سنة ١٩١٤ حذف اسم السلطان من الخطبة. فالشاعر المسيحي يقول إن أئمة المساجد يدعون لجورج الخامس ملك الإنجليز، ويذكرون أسمه في خطبهم مقروناً بالإجلال والتعظيم. وفي هذا ما فيه من إيلام لعواطف المسلمين، وتجاهل لشعورهم الذي كان حساساً جداً في ذلك الوقت بالنسبة لهذا الموضوع بالذات.

\*\*\*

وفي موضوع امتداد أمتياز شركة قناة السويس وقفت الصحف الإسلامية صفا واحدا تعارض هذا المشروع معارضة شديدة، في حين أن المسيحيين كانوا يؤيدونه. وقد كتب<sup>(١)</sup> سلامه موسى مقالا جاء فيه:

«نحن في حاجة إلى نقابات زراعية ومدارس وخزانات وإصلاح أراضي. فمن أين نأتي بأموال لهذه المرافق؟ وقد بلغت الضرائب أعلاها على الفلاح وكادت تبهظه».

«إنهم يعرضون علينا مبلغاً كبيراً من المال نحن أشد الحاجة إليه. فلا يجب أن نرفضه حتى نقيم الحججة على خسارة الصفقة. فهل نرى

---

(١) المقطم في ١٤-٥-١٩١٢.

المبلغ قليلاً أو نظن أننا نربح بدخول القناة في حوزتنا بعد أنقضاء مدة الأمتياز أكثر مما نربح بما عرض علينا؟».

«فإن كنا نأمل مليماً واحداً من القناة حين وضع يدنا عليها بعد نصف القرن الآتي، فإننا نأمل القبض على العنقاء. ولماذا؟ لأن الشركة الحاضرة تضرب الرسوم الفادحة معتمدة في ذلك على قوة إنجلترا وفرنسا، لأن أكثر مساهميتها من أبناء هاتين الدولتين. فهما يحميان القناة، ويلزمان كل من يأبى أن يدفع بالدفع والإذغان. فالقوة هي رأس ال القناة الحقيقي».

«وإذا أنتهى عقد الشركة ودخلت في حيازتنا؛ أبى أصحاب السفن أن يدفعوا ملماً واحداً لنا؛ وساعدتهم دولهم على ذلك، وعجزنا نحن عن إلزامهم بالدفع. ومهما يقل فينا القوالون إننا بناء الأهرام، وأشرف الخلق والأنام؛ فإننا لعجز ونعجز حينئذ عن رد أسطول ألمانيا حينما يريد المرور مثلاً مجاناً».

«فالخطة المثلى الآن للفرد وللأمة هي خطة المصالح. ومصالحنا أن تكون لنا قوة، أو نستند إلى قوة في أستغلال هذه القناة. وليس ثم طريق مثلي لهذا الأستغلال إلا بالاستناد إلى قوة فرنسا وإنجلترا بالاتفاق مع الشركة».

وقد عاش سلامه موسى حتى شاهد تأميم شركة قناة السويس، وإنهاء أمتيازات الشركة الأجنبية. وشاهد نجاح النصريين في إدارتها

وتمصيرها. فلعله تذكر ما كتبه سنة ١٩١٢ في هذا الموضوع، لعله سخر من نفسه. ومن العجيب أن المشروع الذي أجمعت الأمة على رفضه، ينبري بعض الأقباط للدفاع عنه والدعوة إلى قبوله في عبارات تقتل الهمم وتميت العزائم.

\*\*\*

ذكرنا أن المسيحيين قابلوا كتشنر حين قدومه إلى مصر بالحفاوة والترحيب، وعلقوا عليه آمالاً كباراً. وذكرنا أن كتشنر لم يعرهم أي التفاف، وذلك لأن جو السياسة الدولية كان ملبداً بالغيوم، وكانت نذر الحرب العالمية الأولى قد بدأت تظهر في الأفق. فأدرك المسيحيون أنه لا فائدة ترجى لهم من الاعتماد على الإنجليز. وراو الخير كل الخير في الأئتلاف مع المسلمين، وفي حلول الوئام بين أبناء الوطن الواحد محل العداوة والنخاصم. قال رمزي تادرس:

«والشاهد لذلك أن الأحوال العامة في البلاد كانت خلال المدة التي أعقبت المؤتمرين القبطي والإسلامي؛ بمثابة تيار خيالي لا صفة له ولا هيئة سوى تخبط عام تخلل صفوف الأمة كلها دون أن تلحظ أسبابه ونتائجه حتى أنها كانت تدور في دائرة واحدة مرماها التهيج الفكري بلا قصد ولا سياسة اللهم إلا مقارعة بعضها بعضاً مقارعة قولية عنيفة إن لم تؤثر في بنیان الجامعة القومية المتين، فقد أراحت الستار عن الجهل المتفشى بين الأقباط والمسلمين، وأثبتت للملأ أجمع أنه ليس من

حادث وقع في مصر وبرهن على أنها لا تزال في أول أدوار الأرتقاء أكثر من هذا الحادث عينه».

«على أن النتيجة الحسنة التي جاءت مطابقة لأميال العقلاء وكسحت أمامها كل البذور المسممة تثبت لنا أمراً آخر جديراً بالالتفات؛ وهو أن الأنعطاف الطبيعي بين الأقباط والمسلمين لا يمكن أن يزو مهما حدث من الحوادث. ولذا أرى من الضروري أن يعتمد الأقباط في نيل مطالبهم على إخوانهم».

ثم قال: «وبالإجمال فإن مشاهدات الأحوال تدل على أن لا ينطوي هذا العام - ١٩١١ - في سجل التاريخ قبل أن يحمل في جوفه صفحة بيضاء تثبت للذرية القادمة أن الأمة المصرية أمة حية لا تعرف ديناً غير الوطن، ولا مذهباً غير الإخاء، ولا عقيدة غير التسامح والوئام».

وقال صحيفة الوطن في ١٥-١-١٩١٥ «إن الطوائف المسيحية يجب أن تخرج من عزلتها شيئاً فشيئاً، وتندمج بقدر الإمكان في المجموع الوطني، فلا تحرص إلا على معتقدها الديني، وما كان له مساس بهذا المعتقد من الأمور».

\*\*\*

مر بنا أن المسيحيين كانوا يودون دوام الاحتلال البريطاني. ولكن من الحق أن نقول إن المسيحيين لم يكن لهم يد مطلقاً في إدخال الإنجليز مصر. وإنما الذي أدخلهم كما هو معلوم هو الخديو محمد

توفيق والخونة من المسببين. ولم يكن للمسيحيين يد في تمكين الأحتلال من البقاء أكثر من سبعين عاماً، وإنما الذي مكن له سبيل البقاء هذه المدة الطويلة هم الخونة من المسلمين الذين تعاونوا معه بألسنتهم وأيديهم. وتاريخ الوزارات المصرية في عهد الأحتلال معروف. قال حسين<sup>(١)</sup> رشدي باشا رئيس الوزارة المصرية في تصريح له لمندو صحيفة الفارد الكسندري في ٢٤-١٢-١٩١٥ ما نصه:

«بصفتي وزيراً أصرح بأن مصر؛ إذا فرض ولم تكن حاصلة على مساعدة ومعونة أنجلترا؛ لوجب أن تفتش لها على دولة قوية وصديقة مثلها لتكون عوناً لها. وإني أقول مرة أخرى بأننا لا نستطيع أن نعيش وحدنا، ولا يمكن لمصر أن نستقل عن سواها استقلالاً سياسياً، وذلك لأن موقعها الجغرافي، وحدودها الغربية المتصلة بالصحراء، ومركزها بإزاء القنال، وكونها طريقاً للهند، كل هذه العوامل تجعلنا مطمئناً للغير».

«إني أريد أن تكون لمصر حماية تعطي لإنجلترا حق المراقبة المطلقة على القنال، وحق المراقبة المالية أيضاً. ولكني أريد بأن تبقى في مصر حكومة حرة ذات حاكم مستقل، ووزارة وهيئة نيابية مستقلتين كذلك».

ولم يشرح لنا حسين رشدي كيف يمكن أن تقوم في مصر حكومة حرة مع وجود الحماية البريطانية، ومع وجود جيش الأحتلال.

---

(١) (١٨٦٣-١٩٢٨).

وكانت صحيفة المنبر لصاحبها أحمد حافظ عوض تنشر أحياناً ما يؤيد وجهة نظر المسيحيين في تمسكهم بالأحتلال البريطاني. فقد كتبت مقالاً تحت عنوان «ما يقوله المسلمون في الهند يقوله الأقباط في مصر» ونقلت في هذا المقال مثالا مما تنشره مجلة عليكرة لسان حال مسلمي الهند (١٦-٧-١٩٠٨) وهو:

«... على أن الدين الإسلامي يأمرنا في الوقت ذاته أن نطيع أولي الأمر منا. وفوق ذلك فإن الحرية التي نتمتع بها تحت ظل الحكومة الإنجليزية لم نل مثلها قط حتى في أيام ملوك الإسلام. وهناك كثير من إخواننا المسلمين يعيشون تحت ظل حكم ملوكهم أو حكامهم المسلمين، ومع ذلك لا يتمتعون بعشر معشار ما نتمتع به من الحرية».

كان الأدباء المسلمين الذين مدحوا الأحتلال وأطروه، وطعنوا في الحزب الوطني وهجوه قلة ضئيلة مأجورة، تتكلف القول، وتجرى أقلامها بعكس ما تنطوي عليه جوانحها. أما الأدباء المسيحيون الذين سلكوا فكان أدبهم يزخر بالعواطف الصادقة، والمشاعر المتوقدة.

## ٢- مقتل بطرس غالي وأثره في الأدب القبطي

أخذت الحركة الوطنية في مصر تنمو يوماً بعد يوم، وأشدت السخط على الإنجليز أشتداداً عظيماً بعد حادثة دنشواي. وكانت الصحافة تعمل في غيركلل ولا ملل على إذكاء الروح الوطني بين طبقات الأمة، وبخاصة طلبة المدارس الثانوية والفنية والعالية.

وأنتهى الأمر بأستقال لورد كرومر سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون غورست؛ فنهج في سياسته منهجاً أراد به أن يقضي على الروح الوطني قضاء تاماً، غير حاسب حساباً للتغير الزمني، والتطور الأدبي والمعنوي الذي أصبحت عليه البلاد في ذلك الوقت.

وأسندت رئاسة الوزارة إلى بطرس غالي، فكان أداة طيعة في أيدي المحتلين، إذ أنه أصدر قانون المطبوعات الذي ضيق على الصحافة وكمم أفواهاها. وقد ألفت مظاهرات، وألقيت خطب، وأنشدت قصائد تفيض بالإحتجاج والسخط على مسلك الوزارة البطرسية إزاء الصحافة.

وقد أتجهت أنظار المحتلين إلى الحيلولة بين الطلبة والأستغال بالسياسة. فبثوا الجواسيس في المدارس والمعاهد ليتتبعوا حركات الطلاب، ويعرفوا المحرضين على التظاهر. وطفقوا يضعون العقبات في سبيل إنشاء المدارس. قال السير الدون غورست في تقريره عن سنة

١٩٠٩ «وما دامت المدارس نقطة الدائرة التي تدور حولها مساعي المصللين السياسيين، فلا مناص من إبطاء تعليم الشبان المصريين».

فأنت ترى أن سياسة غورست كانت تضييقاً وأرهاقاً على طول الخط. وكان من سوء حظ بطرس غالي أن تولى تنفيذ تلك السياسة.

على أن السبب المباشر لمقتل رئيس النظار؛ هو موقفه في الجمعية التشريعية حين عرض مشروع امتداد أمتياز قناة السويس. فقد دارت مناقشة حامية بين بطرس غالي، وإسماعيل أباطه حول رأي الجمعية: أهو رأي قطعي أم أستشاري؟ فأبى رئيس النظار أن يتقيد بكلمة صريحة. وطال الأخذ والود بينه وبين زعيم المعارضة على غير جدوى. وكان إبراهيم ناصف الورداني حاضراً في تلك الجلسة، وقد ذكر السيد علي الشمسي أنه رأى رأي المتهم وقد أمتقع وجهه، وأشدت حنقه. وأعترف الجاني بأنه صمم على مقتل رئيس النظار منذ تلك الليلة.

والحقيقة التي لا لبس فيها ولا غموض أن مشروع القناة هذا قد أغضب الرأي العام غضباً شديداً وأشتركت الأمة كلها- عدا الأقلية القبطية- في الدعوى إلى رفض المشروع لما يجره على البلاد من الخسائر. وأخذ الكتاب والشعراء والخطباء يحثون الرأي العام على الثورة في وجه الحكومة التي كانت تحتضن المشروع وتدافع عنه.

وقد أنتهت هذه الحملات كلها بتلك الحادثة المؤلمة التي ذهب  
صحيتها بطرس غالي. قالت صحيفة الأهرام بتاريخ ٢١ فبراير سنة  
١٩١٠ ما نصه:

«أمس الأح الساعة الواحدة بعد الظهر أهتزت القاهرة، بل أهتزت  
البلاد كلها، لطلق ست رصاصات من يد شاب وطني على عطفة رئيس  
النظار بطرس باشا غالي، وهو خارج من نظارته يستعد لركوب عربيته.  
أطلقها عليه فتى وطني اسمه إبراهيم ناصف الورداني، لا يتجاوز عمره  
الثالثة والعشرين فقبض عليه في محل ارتكاب الجريمة، وربط بحبل،  
وسجن في إحدى غرف نظارة الحقانية. واستلمه سعادة النائب العمومي  
للتحقيق معه».

وما كاد هذا النبأ ينتشر حتى سرى الرعب وعم الخوف وأفقلت  
المحلات التجارية، وقر الناس في بيوتهم. وذهب الخديوي عباس الثاني  
إلى مستشفى ملتون بباب اللوق حيث كان الرئيس قد نقل إليه لعلاج،  
فأثر هذا العطف في نفوس الأقباط، فقابلوه بالشكر والأمتان. ونوه به  
شعراؤهم وكتابهم. فمن ذلك قول كامل مرقس:

نيران للقط لم يُحمد لها لَهَا      إلا دموعُ أميرٍ، دام مولانا

وقال بسطا شاي منوهاً بعطف الخديو:

وميلكنا المحبوب يُيدي نحوه      عطفَ الشفيق ودمعه محدودُ  
رب الأريكة كم لكم من نعمة      ملاً المسامع ذكرها المأثورُ

أحيا رجاها عطفك المشكور

ماتت نفوس القبط من حزن وقد

ومنها يخاطب الفقيد:

لما تحقق موتك الجمهور؟  
وبدا على الوجه الكريم بُسورُ  
أنت الذي بَحَلَى المليك خبير؟

أعلمت ما أبدى المليك من الأسَى  
سكب الدموعَ عليك وهَيَّ غزيرة  
أزِيدُ علمك بالمليك وفضله

وقد خرجت جنازة الفقيد في مشهد رهيب. وكانت الأجراس تدق  
فتزيد القلوب حسرة، وتذيب النفوس لوعة. وجاءت وفود الأقباط من  
الأقاليم للأشتراك في تشييع الجنازة. ومشى الناس خاشعين مطرقين، وقد  
خنقتهم العبرات، وتصاعدت منهم الزفرات.

\*\*\*

وكان عبد الخالق ثروت - إذ ذاك - نائباً عمومياً. فجد وأجتهد في  
تحقيق الجريمة. وأعترف الجاني بأنه قتل بطرس باشا لأنه خائن لبلاده.  
وقد ذكر أن خيانه تبينت في حادثة دنشواي، وفي اتفاقية السودان، وفي  
تعاونه مع الإنجليز في القضاء على الروح الوطني بإصدار قانون  
المطبوعات، والتصديق على الطلبة حتى لا يشتغلوا بالسياسة، وأخيراً في  
موقفه من مشروع قناة السويس.

وقام عبد الخالق ثروت بمهمته في التحقيق خير قيام. فأصدر أمره  
بتفتيش دار الحزب الوطني. وألقى القبض على البارزين من رجال هذا  
الحزب، وحقق معهم تحقيقاً دقيقاً، كما ألقى القبض على ثمانية من

أصدقاء الجاني بتهمة أشتراكهم معه في الجريمة. وقد جرى التحقيق الأول مرة في تاريخ القضاء المصري بصفة سرية، وأحيط بالكتمان الشديد. فترتب على ذلك رواج الشائعات الكاذبة رواجاً لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد. وتولدت بين المصريين حالة نفسية خاصة سببت متاعب كثيرة. قالت صحيفة المقطم في ١٦ فبراير سنة ١٩١٠:

«نحن لا نشكو من الكتمان التحقيق ما دام الكتمان سهل السيل، ويعين على الوصول إلى كشف الحقيقة. ولكننا نرجو أن سعادة الفاضل النائب العمومي يراعي حالة الهيجان المتسلط على الخواطر والأذهان في هذه الأيام، ويسعف الصحف بتسكينه. ورد المياه إلى جواربها الأولى. وذلك بإعطاء ما يمكن إعطاؤه من الأخبار المحققة التي يرى أن أمرها قد أنتهى، ولم يعد لها شأن في التحقيق حتى ينقي نشرها جو القطر من بعض ما يكدره الآن من الإشاعات الهائلة والأراجيف المثيرة المنتشرة في كل مكان».

ومن أمثلة المتاعب التي جرّها هذا الحادث على الجمهور ما نشرته المقطم بالتاريخ المذكور وهو «... وكذلك سولت النفس الأمانة بالسوء لبعضهم أن يهبط أسعار البورصة أمس. فأذاع فيها أن حضرة عزتلة إبراهيم بك الهلباوي قتل في محطة العاصمة بيد باغ أثيم. وأنتشر خبر السوء هذا بسرعة البرق، فتراكض الناس من البورصة إلى المحطة حيث علموا أن الخبر كان كاذب، وأدركوا قصد الذي أشاعه، ولكن بعد أن

كان الخبر قد طار على جناح البرق إلى بورصة الإسكندرية، وأثر تأثيره فانزل أسعار الأسهم في البورصتين معاً».

هذه هي الحالة الاجتماعية والنفسية التي باتت عليا البلاد في الأيام الأولى لهذا الحادث. رعب وفزع، وهلع وجزع، وشائعات عن مؤامرات تخلق خلقاً، وتلفق تلفيقاً، وتذاع بين الناس. وجواسيس منتشرون في كل مكان، وأعتقال وتحقيق. لقد أظلم الجو وأكفهر، وأصبحت الحالة تنذر بأوخم العواقب.

\*\*\*

أما الأقباط فقد أشد حزنهم، وأرتفع عويلهم، وعظم عليهم الخطب، وأنهكوا في إقامة الصلوات على روح الفقيد، وفي عمل المآتم في سائر جهات القطر. ولا عجب في ذلك فإن بطرس غالي احتل عند الأقباط مكانة لم يصل إليها أحد من قبله، وذلك للأعمال الجليلة التي أداها إليهم. قال رمزي تادرس:

«قل بين رجال الأمة المصرية ونوابغها من خدم أمته كما خدمها صاحب الترجمة. فهو أبو الإصلاح بين الأقباط، ومؤسس دستورهم، ومحبي جامعتهم، ومؤلف شتاتهم، ورسول البر والإحسان بين فقرائهم. فإليه وحده يرجع الفضل في تشكيل المجلس المالي، وتأسيس الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨٢، وتعضيد سائر الجمعيات القبطية والأعمال الخيرية والأدبية فيها».

«ولك تكثف رحمة الله بذلك، بل طبع على إنقاذ المعوزين وتعصيدهم حتى لم يخل عمل خيري من تبرعاته الكثيرة التي أنهالت على سائر الجمعيات الخيرية؟ ومما يؤثر عنه أنه أول رجل في مصر أرشد الأمة إلى أن مساعدة الفقير خير وأبقى من إحياء الحفلات. والقيام بأود عدة عائلات فقيرة بأئسة خير من إنفاق المال على الخمر والمأكل وسماع الألحان. يثبت ذلك انه أبطل إقامة مهرجان لزواج أولاده سنة ١٩٠٦ ليحيى بنفقاته عشرات من البشر. تبرع بثلاثمائة جنية للفقراء بدلاً من المظاهر الباطلة، فأبقى له ذكراً صالحاً ومجداً حقيقياً. بل وضع بعمله هذا المبرور حجر الزاوية في مبدأ كاد أن يتناسى، وهو مبدأ محبة الإنسانية والبر بالفقير والمعدم».

وقد وضع شعراؤهم بهذه المناسبة كثيراً من الترانيل والترانيم المحزنة التي تسيل العبرات. مثال ذلك ترنيمة جاء فيها:

فَلْتَذُبْ مِنْهَا الْقُلُوبُ	ولم—إذا لا تـذوبُ
إِنَّمَا الدُّنْيَا غُرُورٌ	ليس في الدنيا سرورٌ
جَرَّعَتْ بَطْرَسَ غَالِي	غيلة كأس المنونُ
فَلنُعَزِّ اليَوْمَ مَصْرًا	وبنى الأقباط طُـرًّا
وَلنُرَدِّدْ مِنْهُ ذِكْرًا	كلما دالت قرونُ
طِيبِ اللهُ ثَمَرَاهُ	أجزل اللهُ قِـرَاهُ

ومن ترنيمة للقس عيد تادرس:

ثلاث مرات وفد	قائله ولم يجد
في نفسه حولاً وقد	ضاعت قواه واضطرب
فمادَ وهو في ذبول	والوجه منه في ذبول
فظنه الباشا يقول	خيراً، فأمنَ واقترب
قد كان يقتله الرصاص	وهو يفكر في اختصاص
خير البلاد ولا مناص	فأستشهد الله وللب

هذه أمثلة مما كان يترنم به الأقباط في كنائسهم في تلك الأيام حينما كانوا يذهبون للتعبد والصلاة. لقد أسبغوا على بطرس غالي صفة القداسة، ووضعوه في مرتبة الشهداء. وكانوا يرددون هذه التراتيل من قلوبهم أعماق رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً؛ ودلائل على وجوههم بادية.

وقد ذكر صاحب الترنيمة الأخيرة في شيء من التفصيل كيف حاول الجاني تنفيذ ما عزم عليه، وبيان ذلك أنه تردد ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يضطرب وتخونه قواه. وفي المرة الرابعة تقدم إلى رئيس النظار الذي اعتقد أن الورداني جاء يشكو إليه أمراً، فأقترب منه آمناً مطمئناً، فإذا بالجاني يعاجله بإطلاق النار عليه.

\*\*\*

وقع مقتل بطرس باشا على الأقباط وقوع الصاعقة، فأرتفعت أصواتهم بالبكاء والعيول، وأكثروا من لطم خدودهم، وشق جوبهم، وأظهروا حزناً كبيراً، وجزعاً عظيماً. ولبسوا شارات الحداد، وألقوا

مظاهرات، وعقدوا اجتماعات أبدوا فيها سخطهم الذي لا حد له على الحزب الوطني الذي كان القاتل ينتمي إليه. ولقبوه بحزب الطيش والضلال، وشرعوا يكتبون المقالات، ويلقون الخطب وكلها تحريض للمحتلين على تشديد النكير على المصريين وأخذهم بالقسوة المتناهية، والتنكيل برجال الحزب الوطني الذي ينشر الفوضى والأضطراب، والذي حرض على قتل بطرس باشا. وطعنوا في صلاحية المصريين أجمعين للحكم الذاتي والنظام الدستوري. وهذه برقية نقدمها كمثال لما كانوا يرسلون من برقيات: «أقباط السلمية بنجع حمادي يندبون حظهم، ويذرفون الدمع على الذين يريدون إعطاء المصريين الدستور، ويشيرون على عموم الأقباط بتحديد يوم لأجتماعهم فيه للإلتجاء إلى عموم الدول الأوروبية للنظر فيمت آلت إليه حالتهم».

وكتب أحدهم مقالاً جاء فيه: «... مصر تصيح مولولة قائلة: ألا شلت يمينك أيها الولد المسموم بسموم المتهورين؛ الذين ملأوا رأسك الطائش، وقلبك المرن بسخافات يحلو لك بإتمامها الموت، حتى تفرظ كما قرظ ذنجرا من قبلك. لقد جريتم على البلاد مصائب هائلة، ونكبات متكاثرة؛ منها الأزمة المالية، وزيادة الحامية البريطانية التي كنت أبغضها، فصرت أرحب بها اليوم».

وكتب ميخائيل فانوس المحامي مقالاً جاء فيه: «... رأى- أرى الله- أقواماً ماكرين، لهم نيات شريرة، وتدابير شطانية، فجعل هذا الحادث درساً ليفقه أصحاب السلطة، ويتنبهوا حتى يضعوا الشيء في

محلّه، فلا يتركوا الحبل لينفقه أصحاب السلطة، ويتنبهوا حتى يضعوا الشيء في محلّه، فلا يتركوا الحبل على الغارب للمهيجين الأذنياء الخ...».

وترى آخر يكتب فيقول: «أنطلب الدستور والأمة غارقة في بحار الجهل وسوء التربية؟ أنطلب الدستور والسواد الأعظم لا يميز الثمرة من الجمرة. إن وجدنا النواب أمامنا فلا نجد الأكفاء الذين يرشحونهم الخ...».

\*\*\*

لا شك في أن هؤلاء الكتاب قد أخطأوا خطأ كبيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً. ووجه ضلالهم: أنهم أخذوا المصريين أجمعين بجزيرة فرد واحد. والوجه الثاني: أنهم نظروا إلى الموضوع نظرة عنصرية خالصة. فأعتبروا القتل عميدهم وزعيمهم ورئيسهم. وأعتبروا المسلمين متعصبين ضد الأقباط؛ لذلك قتلوا زعيمهم تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً. والذي قرأ ما كتبناه عن موقف الأقباط من الحركة الوطنية ١٨٨٢-١٩١٩ لا يعجب مما صدر من كتاب الأقباط بمناسبة مقتل بطرس غالي.

لقد وقعوا عامدين متعمدين في خطأ فاحش؛ فإن بطرس غالي لم يقتل على أنه رئيس طائفة، بل قتل على أنه رئيس حكومة. ولو كان بدله مسلم لما عصمه إسلامه من أيدي الطائشين. وقد شهد بذلك السير الدون غورست في تقريره الصادر في مارس سنة ١٩١٠ فقال: «أما

الباعث على ارتكاب الجريمة فسياسي. ولم يكن للقاتل ثأر شخصي على القتل، ولا كان مدفوعاً بعامل التعصب الديني إلى ارتكاب الجريمة».

وقد بذل الخديو عباس حلمي الثاني ما في وسعه للتخفيف من وقع هذا المصاب. فزار عائلة الفقيد، وعين الأبن الأكبر نجيب باشا غالي وكيلاً لوزارة الخارجية. كما بذل عقلاء الأقباط جهوداً مشكورة في وضع الأمور في نصابها، وإظهار الحقائق للسواد الأعظم من أبناء الطائفة القبطية. ونخص بالذكر في هذا المقام: مرقس فهمي باشا الذي ألقى جملة خطب كان فيها مثلاً للنزيه المنصف، والوطني المخلص. فمن إحدى خطبه التي نشرت سنة ١٩١٠ قوله: «.. إذا قتل الورداني متعصباً وحده، أو مع شركائه؛ فليس ذلك دليلاً على أن كل المسلمين أرادوا هذا القتل لسببه، ولا على أن المسلمين يريدون أن يقتلوا المسيحيين تعصباً».

«بلادنا بلاد الهدوء والسلام، تدعوننا إلى السكينة والصفاء والوفاء، ذلك عاش المسلم أخاً للمسيحي. إذا حصل بينهما خلاف؛ فإنما يكون خلافاً سريع الزوال، لا يلبث أن ينقضي».

«إذا كان كل خلاف بين الفريقين ضاراً بكل منهما، فتلك دلالة قاطعة على أن فائدة كل منهما لا يمكن أن يكون لها وجود في الواقع إلا بالاتفاق والاتحاد الحقيقيين».

«إن هذا التضامن هو روح الوطنية، وروح كل اجتماع. فلا وطن بدونه، ولا مسلمين بدونه، ولا أقباط بدونه».

وكيف نصيف المنقبادي مقالاً طويلاً جاء فيه: «... ومن الواضح المحسوس الذي يلمس باليد، ويرى بالعين، ولا ينكره إلا الذين أعمى الجهل أو سوء النية بضيرتهم؛ أن الورداني لم يقتله لأنه قبطي، بل لأنه رئيس الوزارة، ولأنه ظن أنه خان مصر وأضر بها، فأستحق القتل. ولو كان محلله مسلم، وظن فيه ما ظن لقتله أيضاً. فلماذا- والحالة هذه- هاج بعض الأقباط وأرعدوا، وأمطروا تلغرافات الاحتجاج، وتظاهروا، وكل هذا بصفتهم أقباطاً؟ ألخ...».

\*\*\*

وهكذا أنقسم الأقباط إلى فريق: فريق العقلاء المخلصين؛ وهؤلاء كانوا يكتبون عن عقيدة طاهرة، وينطقون بالحق الذي لا ريب فيه. تحركهم روح وطنية ساميو، وعاطفة قومية نبيلة. فوقفوا موقفاً مشرفاً في وسط هذا الليل الدامس. وطفقوا يبصرون ويرشدون، ويعظون وينصحون. أنا قصار النظر فكانت في الغالب تحركهم أيد خفية. فلم يراعوا لبلادهم حرمة، ولم يقيموا لوطنهم وزناً، فأنطلقوا بولولون ويصوتون؛ حتى ملأوا الجو صياحاً وعويلاً، وأسرفوا في الاتهام، ونادوا بالويل والثور، وعظائم الأمور؛ ناسين أو متناسين أن التسامح والتواصل شعار الديانة المسيحية.

فإذا تركنا الأقباط إلى شعرائهم؛ وجدنا أن هؤلاء الشعراء لم يتعدوا  
 طور الحزن والبكاء. أجل! لقد كان الشعر القبطي في ذلك الوقت خير  
 تراجمان للحالة النفسية الحزينة الباكية التي أضحت عليها تلك  
 الطائفة. فإذا قرأت ما نظمه شعراء الأقباط؛ فإنك لن تجد غير الدموع  
 والعيول، والندب ولطم الخدود، وشق الجيوب، والسخط الشديد على  
 القاتل المجرم الأثيم. والدعاء عليه بأن تشل يمينه. ولكن ما الفائدة من  
 الدعاء عليه بأن تشل يمينه في الوقت الذي كان حبل المسنقة ملتفاً حول  
 عنقه بإحكام؟

مثال ذلك قول تادرس وهبي:

ما رأينا كمثلَه من وزير	بَلَّغَ القَطْرَ سَعِيَهُ المَأْمُولَا
أَنْشَأَتْهُ كِنَانَةَ اللّهِ شَهْمَا	ذَا يَدٍ فِي سِيَاةِ المَلِكِ طُولِي
نَازَعْتَنَا فِيهِ اللّيَالِي وَوَدتْ	لَوْ جَادتْ بِهِ القُرُونُ الأوْلَى
أَصْطَفَاهُ العَبَاسُ لِلْمَلِكِ ذَخْرًا	فَامْتَطِي غَارِبَ المَعَالِي ذَلُولَا
وَأَرْتَضَاهُ إِذْ لَمْ يَجِدْ مِنْ سِوَاهُ	فِي صَعَابِ الأُمُورِ قُطْبَ بَدِيلَا

هكذا وقف الشاعر يعدد مآثر الفقيد، وينوه بمناقبه وفضائله. وقد  
 أسهب في ذلك الوقت لينفي عن بطرس باشا تهمة الخيانة التي وجهها  
 القاتل إليه، وجعلها سبباً لتبرير جريمته. وأستخدم الشاعر ألفاظ  
 وعبارات ذات إيحاء خاص، مثل قوله: «واصطفاه العباس» وقوله:  
 «وأرتضاه إذ لم يجد من سواه بديلاً» فكيف يكون خائناً من أصطفاه

العباس وأرتضاه لرياسة الوزراء! ولكن هل كان أمر اختيار رئيس النظار  
والنظار بيد الخديو عباس؟

وقال:

كيف حللت قتله تحليلاً؟!  
فلك الله خائناً مردولاً  
كان فيما يلي قنولاً فعولاً  
أو يسوم البلاد وقراً ثقيلاً

يا حليف الشقا دنيا وأخرى  
لست منه ولا قلامه ظفر  
علم الله أن بطرس غالي  
لم يحاول أمراً يضر فريقاً

ومنها:

منه نلوا التوراة والإنجيل  
ما حيناً أعماله ترتيلاً  
ولظنُّقَبَّلَ رفاتَه تقبيلاً  
من بنى مصر فوقه إكليلاً  
في دم بات مهدرأً مطلولاً  
وهو نص لا يقبل التأويلاً

وُلُتُردَّدُ تأبينه وكأننا  
ولنرتل كل آن وأين  
ولنزر دائماً مقاما حواه  
وليضع ل عارف بعلاه  
ولنعول على الأمير المفدى  
فإذا أقنص فالقصاص حياة  
وختمها بقوله:

مات وأمصر بطرس مقتولاً

ثم أنشد بين القبور وأرخ

وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يوجه اللوم والسخط الشديد للقاتل  
الذي وصفه بأنه حليف الشقاء في الدنيا والآخرة. وذلك لأنه خسر  
الدنيا بما سيلقى من الجزاء؛ وهو الإعدام. وخسر الآخرة لأنه ذاهب إلى

جهنم. ثم أخذ يخاطب القاتل ويذكر له أن بطرس باشا بريء مما اتهم به من الخيانة. وأنه لم يسبب ضرراً لبلاده أو لأمته ثم أخذ الشاعر يرتفع بشخص الفقيه إلى مراتب القديسين فدعا الأقباط إلى أن يحجوا إلى قبره، ويقبلوا ضريحه، ويحملوا إليه الأزهار والورود تكريماً للفقيه وتحية له. ثم دعا إلى التغني بمآثر بطرس، وترديد مناقبه وفضائله كما تردد التوراة والإنجيل. وهذا تقديس ليس بعده تقديس. ثم أتجه إلى الخديو، وأعرب عن رجاء الطائفة القبطية في أن يوقع القصاص على المجرم، وأن تأخذ العدالة مجراها. وأشار إلى آية ١٧٩ من سورة البقرة وهي «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» وقال إن هذا النص واضح المعنى بحيث يؤخذ على ظاهره. والذي دفع الشاعر إلى طلب إعدام القاتل هو الشائعات التي روجها بعض الناس عن محاولات تبذل عند الخديو ليعفو عن القاتل، وربما قام بعض المصريين بكتابة عرائض وإرسالها إلى الخديو طالبين فيها الصّفح عن الجرم.

وقال بسطا بشاى:

مُدَّتْ إليه بالأذى يد سافل	شَلَّتْ يمينك أيها المغرورُ
أدريت أي جناية أحدثتها	في مصر يتلوها أذى وثبور؟
أدريت أي خسارة ألحقتها	بالقطر، كم في طيها تأخير؟

والشاعر هنا بعد أن دعا على القاتل؛ أخذ يشير إلى ما عسى أن يصيب البلاد من جراء هذا الحادث. فالفتنة التي وقعت بسببه بين

المسلمين والأقباط لم تكن في صالح المصريين، بل كانت في صالح المحتل. وكان الخير كل الخير أن ينصرف المصريون أجمعون إلى كفاح الإنجليز الذين هم أساس الداء، وأصل البلاد.

والشاعر هنا يخاطب القاتل ويقول له: إنك قتلت بطرس باشا لتخدم وطنك، ولكنها جلبت له الضرر والبلاء من حيث لا تعلم.

ومنها:

قد كان هذا البعد يدعو ربّه	أن لا يُلمَّ بشخصك المحذورُ
فأصوغ للأوطان درّ تهاني	تزهو بنظم العِقد منه نحورُ
فأبى الردى إلا أعتالك عاجلا	وعدا على المدح الرثا المسطورُ
فنظمته من أدمعي إذ خاني	فيك النظام وعقني المنشورُ

وهذا نوح وبكاء يسوقه الشاعر وقد أذابت الحسرات نفسه، وفتت الحزن كبده، وفاضت دموعه على خديه. وأنظر إلى قوله (والخطاب للخديو).

ماتت نفوس القبط من حزن وقد أحيا رجلها عطفك المشكور

فهو يقول إن القبط ماتوا من شدة الأسى، وفرط الحزن على هذا المصاب. وأن الخديو رد إلى هذه النفوس الميتة الحياة، وبعث فيها الأمل بما أبداه من عطف على عائلة بطرس باشا.

## وقال جرجس البياضي:

نور عيسى في وجهه يتجلّى  
دقّ الناقوس حزناً عليه  
وجرى الحزنُ في الصليب فأمسَى  
حملته الآباء وهو حزين  
إن قتل الوزير فينا فداءً  
نبأ رَوْعَ الخلائق جمعاً  
كهلال يلوح فوق السماء  
دقة القلب من جوى البرحاءِ  
مُطْرِقاً بالغلامة السوداء  
فسرى الحزن بعد في الأبناء  
للخطايا، أكرم به من فداءٍ  
لته لم يكن من الأبناءِ

وهذه الأبيات تمتاز بجو ديني مهيب أسبغه عليها الشاعر. فأنت ترى نور عيسى متجليا في وجه بطرس باشا. وعيسى هو الله في نظر هذا الشاعر. فكأنه يقول إن نور الله تجلى في وجه بطرس غالي، ولاح كما يلوح الهلال فوق السماء. وهذه أعلى مرتبة يصل إليها القديسون والشهداء. ويقول الشاعر إن الناقوس دق حرنا على بطرس، وكانت دقاته تشبه القلب الذي أشتد عليه المرض. واصليب أطرق أسفا عليه، وجلل بالسواد من أجل هذه المصيبة. فكل شيء بدا حزينا باكيا. وهذا الصليب الحزين المجلل بالسواد قد حمله الآباء من رجال الدين؛ فسرى حزنه إليهم، وأنتقل من الآباء إلى أفراد الطائفة جميعاً. فأصبح الحزن عاما شاملا. ثم جعل مقتل بطرس باشا فداء ما أرتكبه الأقباط من الخطايا والآثام. فكأن بطرس غالي بالنسبة لأقباط مصر كالفادي (المسيح) بالنسبة لجميع المسيحيين في العالم.

وقال أحدهم على لسان بطرس باشا:

لقد قذفوا الرصاص عليّ زعماً  
وقد جاءوا بها خمساً شداداً  
وما فطنوا وقد سلبوا حياتي  
أضاعوني وأي فتى أضاعوا  
بأني خائن أهلي وقطري  
تزق مهجتي وتشق صدري  
إلى ما فيه سرُّ نجاح مصر  
ليوم كربهة وسداد ثغر

وهذا كان لسان حال الأقباط، فهم يبرثون القتل من كل شائبة،  
وينزهونه من كل عيب. ويقولون إنه كان يعمل لخير البلاد وسعادتها.  
والآيات مؤثرة إلى حد بعيد، لأن القتل هو الذي يدافع عن نفسه،  
وكانما نسمع صراخه وأنيبه.

قال شاعر قبطي آخر:

لو أحل الأقباط قدرك منهم  
وأقاموا لك التماثيل في دار  
لم تُفوا قدرك اعتباراً ولكن  
إنما أنت خير كنز رأينا  
طلسم المجد فوق يمينك سطر  
فقليل عليك قولي إذا  
مهجة القلب أو حدق العيون  
وديّر، وبيعة للدين  
وضعوا الكنز في المحل الأمين  
ونراه على ممر السنين  
ليس للقبط غيرها من مُعين  
أنسك يوماً إياي تنسى يميني

فأنظر إلى هذا التقديس والتبجيل، وأنظر إلى ما كان يتمتع به  
بطرس غالي في نفوس القبط من الجلالة والمهابة، والأحترام والحب  
الذي لا حد له. إن الأقباط لم ييکوا على أحد من عظمائهم بقدر ما  
بکوا على بطرس غالي. ولعل الكيفية التي ألقى بها حتفه كانت سبباً في

أسبغ عليه من قدسية. والمتأمل في هذه الأبيات يلمح بوضوح وجلاء مبلغ الخسارة الجسيمة التي حلت بهؤلاء القوم. فالشاعر يقول إن القتل كان خير كنز لأبناء طائفته، يفيض جوده عليهم، ويغمرهم بكرمه ليل نهار.

وقد تضمن البيت الاخير آية من كتاب المزامير وهي «إن نسيتك فلتنسني يميني مز ٢٢٥: ١٢٧».

\*\*\*

إن مقتل بطرس باشا الذي هز البلاد هزا عنيفا؛ لم يهز خواطر الشعراء المسلمين، ولم يحرك وجدانهم؛ فألتزموا الصمت التام. ولم ينطق أحد منهم ببيت واحد يترجم فيه عن شعوره إزاء هذا الحادث. فما السر في ذلك؟ ألام هذا الحادث من الحوادث التافهة التي تقع كل يوم فلا تحرك خاطرا، ولا تولد إحساسا؟ كلا، بل كان أول حادث من نوعه في تاريخ البلاد. أجل! حتى شوقي شاعر الأمير لم يحرك خاطره هذا الحادث، ولم تحرك خاطره دمعة الأمير التي ذرفها على بطرس غالي. وشوقي كان صديقا حميماً للفقيد، وهو القائل:

في منازل غالي                      فزنا بصفو الليالي

لقد وفر علينا مرقس فهمي مئونة البحث عن السر في جمود كبار الشعراء إزاء هذا الحادث، فقال في إحدى خطبه:

«... تنازعنا في نسبة بطرس باشا: من منا خسره؟ أو من الذي كان يملكه؟ هذا يقول: بطرس للأقباط. ذلك يقول: إنه مسلم، لأنه بصفته ناظرا في الحكومة المصرية مدة خمسة عشر عاما؛ كان شيخا للأزهر في كل هذا المدة. ولم يمن له أي وظيفة شرعية عند الأقباط، فهو مسلم حكما وعملا، بل هو شيخ المسلمين!!».

«قسمت هذه المناقشة البلد إلى شطرين: أقلية تدعي أنها وحدها التي أصيبت في شخص الفقيد، فهي التي عز عليها المصاب، وهي التي يجوز لها أن تطالب بالعقاب. وهي التي يحق لها أن تراقب أعمال التحقيق، وتلاحظ عليه. وهي التي تتألم لكل حركة تعتقد أن فيها إهمالا لتقدير ذلك المصاب الجلل، أو جمودا في شعور الأكثرية، أو سكوتا لا يتفق مع أهمية الحادث. أما الأكثرية- يعني المسلمين- فماذا كان موقفها؟».

«أخبرني صديقي منها أنه صمم على تأبين الفقيد يوم الأربعاء، معتقدا أن هذا أقل واجب يؤديه. فلما رأى هذه المناقشة خشى أن يحسب الناس منه ذلك نفاقا ورياء؛ فعدل عن قصده نهائيا».

«هذا أحسن تفسير لذلك الشعور الذي قام في نفوس المصريين أمام هذه الجلبة التي لا تفهم».

«قالوا في نفوسهم: بطرس ليس لنا، ولا هو منا. إذن لا يهمنا موته. لذلك جمدت قلوب الشعراء أمام هذا الحادث، وليس أسرع من تحركها أمام أصغر الوقائع أقلها تأثيرا».

لا شك في أن مرقس فهمي قد أصاب كبد الحقيقة، وكان منصفاً نزيهاً في قوله. ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أنه لم يقف شاعر مسلم واحد في حفلة الأربعين ليؤبن الفقيد.

وقد وجه الأقباط لوماً شديداً، وعتاباً مرا إلى شاعر الأمير. قال مرقس فهمي من خطبة له:

«... بل كان هذا الخطأ - أي القتل السياسي - نفسه شيئاً جديداً تلتهب له غيرة شاعرنا الوطني، فيلقي على النفوس المتألقة للقتل والوطن تسلية بشعره الهاديء النقي، ويطلب إلى القلوب المتنافرة أن تتألف، وإلى الصدور المجروحة أن تتصافى».

«لم يفعل بل جمد وجدانه، وسكت لسانه؛ لمجرد أن فئة قالت: إن الفيد لها، لا للأكثرية».

وكتب قبطي آخر يقول: «لعمرك لقد خان شوقي نفسه وهو يقول إنني رجل أخدم الوطن كلما عرضت حال، في خطابة إلى روزفلت. يكذبك الحال يا شوقي. وقد مر عليك موت عظيم مصر بطرس باشا غالي، وقد جمد إحساسك، وجف شعورك في مقام العزاء لمصر. أو لم تذكر صفو لياليك حيث قلت:

في منازل غالي                      فزنا بصفو الليالي

«عجبا لك يا شوقي! تذكر صفو الليالي، ولا تذكر كدر الأيام!».

وقال كامل منصور معرضا بالشعراء المسلمين:

إن يُحجم القوم عن نظم الرثاء له  
وإن تحفّ دموع في عيونهم  
وإن دعاه الألي طاشت هقولهم  
هل حافظ قد عصته فيه قافية  
أين القصائد يا شوقي مدبّجة  
هل القصائد عزيز أن تدبجه  
أم الدماء التي سالت تروق لنا  
دم البريء ينادينا الا أجهدوا  
فقد رثاه النّهي والعلم والأدب  
فمدمع المجد مُنهلّ ومنكسب  
بظالم فأيادي عدلِه قُشِب  
أم ابن هاني عراه الخوف والرّهْب؟  
من كل ضافية ما إن لها سبب؟  
في فقد من في الملا آراؤه شُهْب؟  
دم البريء قلوب حوله تجب؟  
لا تغمضوا الطرفَ حتى ترفعَ الحُجْب

وقد أضطر شوقي إلى نظم قصيدة قصيرة جاء فيها:

بنى القبط، إخوان الدهر رويدكم  
حملتم لحكم الله صلب ابن مريم  
وولله لو لم يطلق النار مطلق  
تعالوا عسى تطوي الجفا وعهده  
فلا ينكم عن ذمة قتل بطرس  
هبوه «يسوعا» في البريّة ثانيا  
وهذا قضاء الله قد غال غاليا  
عليه لأودي فجأة أو تداوبا  
ونبذ أسباب الشقاق نواحيا  
فقدما عرفنا القتل في الناس فاشيا

وشوقي هنا يخاطب العقل، فيدعو إلى ترك العواطف الهوجاء  
ويقول إن لكل مخلوق أجلا معلوما. ويطرس لم يمت قبل أنقضاء أجله.  
ولو لم يقتله الورداني لفضى نجه فجأة أو بعد فترة من المرض والعلاج.  
فإذا سلمتم بذلك يا معشر الأقباط، فلا داعي - والحالة هذه - إلى ذلك

الصياح والعيول الذي ملأتم به أجواز الفضاء. وأنتم قديما رضيتم بحكم  
اللع في عيسى وهو الصلب بعد العذاب الشديد، فكيف لا ترضون بما  
حكم الله به على بطرس؟

وأخذ يهون عليهم الأمر، فذكر أن القتل من الأمور الفاشية  
المألوفة منذ القدم. ولعله أراد أن يشير إلى قصة قابيل وهابيل.

وقد نظم شوقي قصيدة رائعة في الأحتفال بالذكرى السنوية لبطرس  
غالي، جاء فيها:

قبر الوزير تحية وسلاما	الحلم والمعروف فيك أقاما
ومحاسن الأخلاق فيك تغييت	عاما، وسوف تُغَيَّب الأعواما
قد كنت صومعة فصرت كنيسة	في ظلها صلى المطيف وصاما

وقد ظل الأقباط مدة من الزمن يحتفلون بذكرى بطرس غالي،  
وينظم شعراؤهم القصائد الطوال بهذه المناسبة. فمن ذلك قول نصر لوزا  
الأسيوطي:

ما للجموع حيال القبر تزدحم؟	هل ساقها مأرب في ذاك أم قسم؟
أم ذاك حج، نعم شدوا رحالكُم	هنا الشهيد، وهذا قبره الحرم

وقد أوردنا بتمامها في المختار من شعره. وله قصيدة أخرى نذكر منها:

مضى العام مشئوم الليالي على الورى  
فيأمن تلاقي قبره أخشع مكبرا  
أبطرسُ إنا مذ رمتك يد الردى  
نقيم بلييل من فراق مظلم  
عيون بنى مصر عليك تفرحت  
ومن يخدم الأوطان مثلك دائبا  
بكى النيل من فرط المصاب وهكذا  
أمصر أحفظي ذكرى الفقيد على المدى  
وصوني أسمه بين الفراعن من مضوا  
رؤيدك لا تجزع إذا قيل قد قضى

فليست بسوسُ الشؤم منه بأشأم  
وصل على رب الضريح وسلم  
بكيناك بالدمع الهتون وبالدم  
ونصبح في هم من البين مؤلم  
وفاضت على الدنيا بدمع مسجم  
يُجمد وإن ذاق الممات ويكرم  
على فقهه نالت جبال المقطم  
ولا تبخلي في كل عام بماتم  
فما رمسين المشهور منه بأعظم  
قتيلا، كذا مات المسيح ابن مريم

وقال جرجس البياضي في رثاء الفقيد:

أي بدر خبا وأي بناء  
قل لناعي الوزير للخلق مهلا  
ومر الشمس أن تغيب عن الأف  
ومر السحب أن تمر جهاما  
ومر الليل أن يدوم طويلا  
بلد خانة الزمان فأمسى  
ذهب اليأس بالنفوس فمن لي  
أين من هذب الزمان وأحيا  
غاله خائن يرى القتل ديننا  
الخ...

فوضته في الدهر أيدي الفضاء  
وترفق بتلكم الأحشاء  
ق فلسنا في حاجة للضياء  
كم سحاب أرسلته من بكائي؟  
لنرى مصر في ثياب الشقاء  
كيتيم أوفى على لؤماء  
برجاء بعد احتجاج الرجاء  
سننا أعجزب نهى الحكماء  
وطريقا إلى مراقى العلاء

وإلى هنا ينتهي الكلام عن مقتل بطرس غالي وأثره في الأدب

القطبي.

### ٣- ثورة سنة ١٩١٩ وأثرها في الأدب القبطي

لما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية في ديسمبر سنة ١٩١٤ أنهالت مظالم البريطانيين على المصريين أجمعين، ولم تفرق السلطات البريطانية بين مسلم ومسيحي. فكان أشتراك العنصرين في تحمل هذه المظالم عاملاً قوياً في تقريب المسافة بينهما، فتحطمت الحواجز والفواصل التي فرقت بين أبناء الوطن الواحد مدة من الزمن. وتهيأت الأذهان لقبول فكرة الأتحاد والتضامن للتخلص من العدو المشترك، وتحرير البلاد من سيطرته.

حقاً لقد أرتفعت قبل سنة ١٩١٤ بعض أصوات تدعو إلى أتحاد العنصرين، وخطب بعض علماء المسلمين في الكنائس، كما خطب بعض رجال الدين المسيحي في المساجد. ولكن هذه الحركة كانت محدودة جداً، ولم يكتب لها النجاح أما ثورة سنة ١٩١٩ فكانت حداً فاصلاً بين عنصرين مختلفين بالنسبة للمجتمع المسيحي والأدب القبطي. فقد أندفع المسيحيون منذ قيام ثورة ١٩١٩ للأشتراك في الجهاد الوطني والكفاح القومي في حماسة منقطعة النظير. ولم يدخروا وسعاً في العمل من أجل الأستقلال وتطهير البلاد من أدران الأحتلال. فكتب كتابهم وخطب خطبائهم، ونظم القصائد الطويلة شعراؤهم، وكلها تزخر بالعواطف الوطنية الملتهبة.

قال نصر لوزا الأسيوطي:

الصيح لاح فلا عذر لوسنان  
 ما ذقتُم من حزازات وأضغان  
 مدى الحياة فلا تُقَصِّم بأزمان  
 يسطيع تفريقكم بهتان إنسان  
 بمسلم لم يُطق ضيما ونصراني  
 يدعو إلى الله في سر وإعلان  
 آباؤهم مثل فرعون وقحطان  
 دانت لهم كل أمصار وأوطان  
 على الأعادي زماناً صبر عُبدان  
 هيهات يخشى العَفْرَنِي صولَ دُؤبان  
 فكيف نصير في ضيم على الجاني؟!  
 دوى صداها بقاصي الأرض والداني  
 ورذاً وفي قلبه تبريح ظمآن

حتى متى النوم في ذل وإذعان  
 آل الهلال ويا آل الصليب كفى  
 أخوة جمعتم تحت رايتها  
 قد لم شملكم الله العليُّ فهل  
 عيسى وأحمد قرأ في خلودهما  
 كلُّ بمسجده، كل بيعته  
 هل يقبل الضيم منكم معشر نُجَبْ  
 بالسيف قد فتحوا الدنيا غطارفة  
 من الحرام بنى الأحرار صبركم  
 هم الذئاب، فهل تخشون حولهم  
 على الكنانة قد طالت جنائتهم  
 قد ثرتم ثورة بالبغي مريدة  
 فلا سقى النيل نفسا هاب صاحبها

لا شك أن كل كلمة من كلمات هذه القصيدة تعبر عن روح وطنية سامية. وإذا قرأنا هذه القصيدة، وقصيدته التي نظمها في مدح الملك جورج الخامس، فإن العجب يتملكنا من التبدل الأساسي الذي طرأ على المشاعر الوطنية للأقباط.

وله من قصيدة في رثاء سعد زغلول سنة ١٩٢٧ :

بك في الجهاد تصافح الإخوان  
 رفعت أهلتها مع الصليان  
 مصر لنا والدين للديان

أتباع أحمد والمسيح تصافحوا  
 وبك المساجد والكنائس خشعا  
 كم صحت في وجه المفروق قائلا

ألفت ما بين السرائر فأمحى بهداك ما فيها من الأضغان

\*\*\*

ولما أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وأحتفظوا لأنفسهم بحق حماية الأقليات؛ عرضوا على المسيحيين أن يكونوا ضمن الأقليات المحمية فرفضوا رفضاً باتاً، وفضلوا الانضمام إلى الأكثرية الإسلامية، والاندماج فيها. ثم شرعت الحكومة في سنة ١٩٢٢ تعمل على إقامة الحياة النيابية، فأجتهد الإنجليز في دس الدسائس للترقية بين العنصرين. فأوعزا إلى الكاتب المسلم محمود عزمي بأن ينشر في صحيفته «الأستقلال» مقالات يطالب فيها بحق التمثيل النسبي للأقلية المسيحية في المجالس النيابية. وكانت مقالات محمود عزمي أول ما كتب في هذا الموضوع.

ثم أعقبه توفيق دوس فنشر مقالا طويلا في الأهرام جاء فيه:

«أرى أنا أنه من ضمن ما قد يؤخذ عذراً تبني عليه حماية الأقليات عدم تمثيلها في المجالس النيابية. وهناك خطر شديد ألا تمثل مطلقاً إذا لم يوضع نص يضمن ذلك التمثيل».

«أريد أن أقفل هذا الباب، فلا أدع مجالاً لأن تقوم إحدى الأقليات لتشكو ما تدعيه- ولو خطأ- من حيف إذا هي لم تمثل في مجلس النواب. والإنجليز يدعون حق سماع هذه الشكوى وحق الفصل فيها، بل هم أدعوه من زمن».

«إن أغلبية الأمة الساحقة بما في ذلك غالبية الأقلية من الأميين، وأخشى كثيراً إذا لم يوضع لهم نظام يتضمن حق تمثيلهم، ثم لم ينتخب منهم أعضاء للمجالس النيابية أن يشعروا بأنهم قد هضم لهم حق».

«أخشى أن تلك الأقليات أو إحداها أو بعض الأفراد منها يرمون بأنفسهم في أحضان الإنجليز، وهؤلاء يتلمسون مثل هذه الفرصة».

وما كاد المسيحيون يطلعون على هذا المقال حتى هاجوا ضد توفيق دوس، وعقدوا اجتماعاً في الكنيسة المرقسية، وأعربوا عن استنكارهم لما جاء في المقال المتقدم، وهتفوا بسقوط كاتبه، ووصفوه بأنه صنيعه من صنائع الإنجليز.

وكتب سلامه موسى مقالا جاء فيه:

«لست موافقاً على رأي الأستاذ دوس في تخصيص كراسي للأقليات، لأنني أعتقد أن معالجة الموضوع من هذه الناحية لا تؤدي إلى الغرض المقصود. وذلك لأن الأقلية ما دامت أقلية في البرلمان بحيث لا يكون لها أمل في أن تكون يوماً ما أكثرية فلا فائدة منها مطلقاً، لأن نظام البرلمان هو في الواقع نظام الحكم بالأكثرية. فإذا فرضنا أن للأقباط عشرين كرسيًا قد حفظتها لهم الحكومة أو أجلستهم عليها بعد أن فشلوا في الانتخابات، فلا فائدة تعود على الأقباط من هؤلاء النواب إذا كانت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم في مشروع ما من المشاريع المعروضة امامهم

..«

ورد عبدالحميد بدوي على توفيق دوس بمقال جاء فيه:

«إن المجلس النيابي ليس مجلساً دينياً، وإنما مجلس سياسي. فالجمع فيه بين المنازع السياسية بحسب قوتها الصحيحة طبعي ومفهوم. ولكن الأقلية الدينية من حيث هي مجموع مشترك في دين غير دين الأكثرية لا يمكن القول بأنها مذهب سياسي قائم بذاته، بل هذا هو الذي يجب تجنبه».

«الواقع من جهة أخرى أن النظرية التي قوم عليها المعنى النيابي تنافي كل المنافاة تمثيل الأقليات الذي يقترحه توفيق بك دوس، لأن النائب يمثل الأمة كلها. أن تقسم التمثيل النيابي على هذه الصورة التي تميز بين أقلية وأكثرية يحيي فكرة التعصب التي نرجو كلنا أن تمحي نهائياً».

«نريد سياسة قومية خالصة لا تلتفت في طريقها النبيل إلى الأديان والمذاهب، ولكنها تتجه دائماً إلى مصلحة الوطن. فدعوا الناخب حراً يتفقد الناس وينتقدهم، حتى إذا أصاب الكفاء قدمه للنيابة غير ناظر إلى دينه».

\*\*\*

أنتهى الأمر بترك الحرية للناخبين. ولما ظهرت الأحزاب السياسية أنضم المسيحيون إلا أقلهم إلى حزب الأغلبية، أي حزب الوفد. فكان الناس يسألون عن الحزب السياسي الذي ينتمي إليه المرشح، لا عن

دينه. وهكذا أختفت العصبية الدينية وحلت محلها العصبية السياسية. وقد حاولت أحزاب الأقلية أن توقد نيران العصبية الدينية ولكنها لم تفلح. كما أن الإنجليز حاولوا بعد وفاة سعد زغلول أن يفرقوا بين العنصرين فباءت محاولاتهم بالفشل.

ففي سنى ١٩٢٨ تناولت صحيفة «مصر» موضوع الموظفين المسيحيين، وزعمت أنهم مضطهدون ومظلومون. ونشرت أمثلة من هذه المظالم المزعومة وقد أتضح بعد البحث أن ما نشرته الصحيفة المذكورة لا أساس له من الصحة، وأنبرى للرد عليها بعض المسيحيين. فصرح مكرم عبيد لمندوب الأهرام بقوله:

«إنى لا أعرف وأكره أن أعرف أن هناك موظفين أقباطاً ومسلمين. فإن الموظفين الذين خلدت وطنيتهم وتضحياتهم في كتاب النهضة المصرية هم الموظفون المصريون، ولا أعرف سواهم. ومن الحرام أن تتار مسألة مسيحي ومسلم بعد أن قبرناها وغسلنا ما خلفته من أرجاس بدماء شهدائنا الزكية. وإنى أحمد الله أن القائمين بهذه الحركة هم نقر قليل يعيدون على الأصابع، ولا يمثلون طائفة ولا فريقاً ولا رأياً».

وكتب وديع صلب في صحيفة «البلاغ» مقالا تحت عنوان: «القومية المصرية» جاء فيه:

«قامت جريدة مصر في هذين اليومين بضجة أدهشت الخاص والعام. فقد خصصت أعمدها لرفع شكوى موظفي إدارة الأموال المقررة

من الأقباط، قائلة إن هؤلاء الموظفين مضطهدون من رؤسائهم المسلمين بسبب دينهم. ونحن لا نتعرض لهذه الظلامة المزعومة في موضوعها، بل نقول لجريدة مصر إن القومية المصرية أقدس من أن تتصدع في سبيل الأفراد».

«أصبحت هذه القومية قذى أعين المستعمرين خصوصاً وقد أحاطها المصريون جميعاً بسياج من الإخلاص. وما كنا نظن بعد ذلك أنه يوجد مصري يتعرض لهذه القومية بأذى، ولكننا نرى اليوم جريدة مصر تحمل معولا وتحاول تصديع هذه القومية في سبيل أفراد تقول إنهم ظلموا واضطهدوا».

وكتب زكي عبدالبسيد مقالا في صحيفة «البلاغ» تحت عنوان «كلمة صريحة» لصاحب جريدة مصر جاء فيه:

«إنني رجل قبطي أرثوذكسي أغار على ديني وأحب أبناء وطني عموماً؛ وأبناء طائفتي خصوصاً حباً شديداً. وإنني من قراء جريدة مصر».

«والذي أقوله هو أنه ثبت لي بعد البحث والتدقيق أنكم ترمون فيما كتبتموه وتكتبونه إلى غرضين اثنين: (١) رواج جريدتكم. (٢) فصم عرى الأتحاد وتمكين المحتل من تثبيت قدمه في بلادنا بحجة الدفاع عن الأقليات وحمايتها».

«فإن كنتم تقصدون رواج الجريدة فهناك طرق شريفة مشروعة، وإصلاحات عديدة يمكنكم إدخالها على جريدتكم، وبذلك تروج وتكسبون رضى الأمة وعطف الجمهور. أما التضليل والكذب فلا يجديان نفعاً».

«أما إن كنتم تقصدون فصم عرى الأتحاد الذي سفكنا فيه الدماء الغالية، وأرواح أبنائنا البررة؛ فعملكم جريمة شنعاء في حق الوطن المقدس. وأنتم تستحقون النبذ والأحتقار، لا أكثر ولا أقل من جميع طبقات الأمة المصرية على أختلاف نزعاتها ومذاهبها».

وكتب سينوت حنا في صحيفة البلاغ مقالاً طويلاً تحت عنوان «الوطنية دينناً، الأستقلال حياتنا» جاء فيه:

«لا قبطي ولا مسلم. وإنما كلنا أمام الوطن مصريون. وما هذه الضجة التي ثارت في الأيام الأخيرة بأسم الأقباط المضطهدين في بعض الوظائف إلا إثماً في حق الوطنية، وحق الحكم الدستوري، كما هي إثم في حق الواقع».

«وإنه ليكفي أن يذكر الإنسان أولئك الشهداء الذين جادوا بأنفسهم مسلمين وأقباط فداء للوطن المصري، لا للوطن المسلم، أو الوطن القبطي، حتى يشعر بما في ذلك من الجلال والسمو، ويشعر في الوقت نفسه بما في الضجة التي يقيمها الآن نفر قليلون بأسم الموظفين الأقباط من الضعة والمهانة. ولكن ليطمئن المصريون جميعاً، فإن

الجريدة التي تصيح الآن بأسم الموظفين الأقباط لا تجد بينهم من يؤيدها أو يرضى عنها، بل هم جميعاً، والموظفون منهم خاصة يستنكرون فعلتها، ويرأون غلى الوطن منها».

«ليذكر كل منها أو وحدتنا هذه كانت وما تزال أعظم ما تألم منه الخصم. وأنه حاول غير مرة أن يفصم عراها فلم ينجح. فهذا الخصم يرضى الآن من غير شك عن السعي بتلك الوحدة، ويغتبط بكل معول يوجه إليها، ولو لم يكن في مقدوره أن ينال منها ويؤمل أن تجتمع حول الصوت الشاذ أصوات، وأن يقتدي بالخارج خارجون. وذلك وحده يرشدنا إلى الجهة التي لها مصلحة في هذا الشذوذ، وحسبنا أن نقول هذا فلا نزيد».

«فيا أبناء وطني، إن في الجو دسائس تأتمر بالألفة التي تمت على عهد زعيمنا الفقيده بين أحزابنا وهيئاتنا، وتضرب بمعولها لو أستطاعت في أساس وحدتنا».

«إن في الجو دسائس لا يروقها أن يشمل الوفاق أبناء مصر، وأن يذكروا الوطن وحده لينسوا فيه كل عوامل الخلاف، ويغلق على أعدائه أبواب الفتنة والشقاق».

«فمن ذا الذي تسول له نفسه أن يكون هو دسيسته تضاف إلى تلك الدسائس التي لا تنى عن الكيد لنا، والتفريق بين صفوفنا؟ وأين هو المصري الذي ينقاد إلى ذلك الأحمق المأفون أو الخائن الأثيم؟».

وحدث في سنة ١٩٢٨ أن ذهب المبشر الأمريكي زويمر إلى الجامع الأزهر وجلس في حلقات الدروس. ثم تناول كتاباً من أحد الطلبة، وبعد أن طالع فيه قليلاً دس بين طياته بعض كتب من تأليفه محشوة بالمطاعن القبيحة في الدين الإسلامي، وأنصرف.

وقد قابل رجال الأزهر هذا العمل بالهدوء، وكتبت الصحف مستنكرة هذه الأعمال، وقال إنها من دسائس المحتلين لإثارة الخواطر، وأتهام المسلمين بعد ذلك بالتعصب، وا يتبع ذلك من تدخل سافر في شؤون البلاد. وأخذ بعض كتاب النصارى يحملون على المبشرين حملات عنيفة. فكتب «كليم أبو سيف» في صحيفة «البلاغ» مقالاً تحت عنوان «المبشرون» جاء فيهك

«أمر هؤلاء المبشرين عجيب. فهم - رغم أنني أستطيع أن أقسم بأنهم لا دين لهم - ما يزالون يرتكبون بأسم الدين كل المنكرات والمحرمات التي ينهاهم عنها الدين. وهم ما يزالون يتمادون في صفاقتهم وتحديدهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تمادياً ما أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء والأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسؤوليته».

«قوم نزحوا إلى مصر فأكرمت متواهم، وقابلتهم كريمة جوادة سخية كما تعودت أن تقابل غيرهم من الضيوف النازحين إليها من شتى بلاد العالم. وفتحت لهم ولغيرهم خوان صدرها، وأسكنتهم القصور، والله

يعلم أين كانوا يسكنون قبل أن يجرى القدر بمجيئهم إليها. فماذا كان جوابهم؟ وماذا عملوا رداً لهذا الجميل؟».

«كان جوابهم إنمأً وجحوداً، وكانت أعمالهم خزيماًً يكفي لتسويد صحائف الأمم إلى الأبد. وهكذا ح مصر أبدأً عاثر، فهي تحسن وينكر إحسانها».

«هناك فئة تطلق على نفسها أسم المبشرين. وهؤلاء يقولون إنهم جاءوا إلى مصر لينشروا فضائل الدين المسيحي بين مختلف الطبقات. قلنا: أهلاً وسهلاً لكل دين فضائل. ونشر تلك الفضائل فضيلة مهما كانت الأحوال. فالدين الإسلامي يحض على الفضيلة، وكذلك الدين المسيحي. فانتم حين تنشرون فضائل دين معين إنما تنصرون الفضيلة من أحد وجوهها».

«فهل تدري اذا كانت فضائل المسيحية في نظرهم؟ كانت في التغير بالغير، وأشتعمال طرق الأحتيال لتنصير الناس. وهل أمرتكم المسيحية بذلك؟ لا. وهل من قواعد الدين المسيحي أن يغرر بالصغار تغريراً حقيراً ليعتقوه؟ لا. وهل أمركم المسيح أن تتخذوا حبال الغرام تنسجونها بسوء نية بين الناشئين والناشئات لكي يعتنقوا المسيحية؟ لا. إذا أنتم لستم مبشرين تحثون الناس على التحلي بالفضيلة، إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لأركاب المنكرات وأنتم تعلمون».

«وأنتم لا أكثر من جواسيس للأستعمار أتيتم إلى هذه البلاد لنشر فضيلة ودين معين، بل لأتباع سياسة معينة موحي بها من جهات معينة. ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين، والشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة».

إن هذه المقالات التي كتبها كتاب مسيحيون في الرد على صحيفة مصر، وفي تسفيه أعمال المبشرين تحمل ظواهر طيبة لم تكن معروفة قبل ثورة سنة ١٩١٩. والحق إن هذه الثورة قد قلبت الأتجاهات السياسية للأدب القبطي رأساً على عقب. فبعد أن كان هذا الأدب يتجه إلى محاربة الدستور أصبح في مقدمة المدافعين عن الدستور.

وبعد أن كان يتجه إلى إطراء الإنجليز والتسبيح بحمدهم؛ أصبح في طليعة المبغضين لهم، والحاقدين عليهم. وأصبح من أهدافه الدعوة إلى جهاد المحتلين وكفاح الأحتلال. قال نصر لوزا الأسيوطي من قصيدة طويلة في الأحتفال بإحياء ذكرى يعد زغلول سنة ١٩٢٨ :

قم وأنظر الدستور كيف تقوضت	منه المعالم حائطاً ودعاما
شيدت بالمهج الغوالي سوره	وتركته فوق السُّهى يتسامى
لما بعدت عن النواظر سرهم	أن العريضة لن ترى الضرغاما
نقضوا عهدك في هوى مصر ولم	يرعوا يميناً للحمى وذماما
كم حاولوا أن يرغوها عنوة	لكنها لم ترتض الإرغاما
هم أقسموا أن يحرسوا دستورهم	حتى قضيت فضيعوا الأقسامما
يهنيك في جنات ربك أننا	نسعى إلى أستقلال مصر كراما

دام العَلِيُّ على الحمى قَوَّامَا  
أضحى له كل الورى اخصاما  
ويعود بدرأً للعيون تاماما

هيهات أن نخشى من الأقدار ما  
من يستعين بالله ينصرُهُ ولو  
والحق مثل البدر حيناً يختفي

\*\*\*

ولما مات سعد زغلول سنة ١٩٢٧ بكاء شعراء الأقباط وكتابهم  
بكاء مرأً حتى ليمن أن يقال إنهم لم يبكوا على زعيم مسلم قط كما بكوا  
على سعد زغلول، بل إنهم رفعوه إلى مراتب القديسين. قال نصر لوزا  
الأسيوطي من قصيدة طويلة:

تزهو بها من نورك الأسطارُ  
في الخلد يتلو أيها الأبرارُ

يا سعد جاورت الإله بصفحةٍ  
عصماء ناصعة البياض نقية

وأنظر إلبع حين يقول معزياً أم المصريين:

وتلا كذكري مريم ذكراكِ  
عبرت كما عبق الأريجُ الذاكي  
والجدُّ والإقدامُ بعض خُلاكِ

ودعا لكِ الرحمنَ في صلواته  
ذكري يفوح المسك من نفحاتها  
إن المهابة والجلالة والهُدَى

ونحن نعرف مكانة السيد «مريم» عند المسيحيين. تشبيه ذكرى أم  
المصريين بذكرى السيدة ريم فيه تقديس كبير.

وأنظر إليه حين يقول في رثاء سعد:

في المعضلاتِ بسرّه الروحاني  
آياته وَخِيٍّ من الرحمن

فكأنما الله العَلِيُّ أمدّه  
وكانه في كل قول مُلهمٌ

قُدْسِيَّة الرَّحَبَاتِ وَالْأَرْكَانِ

فَأَنْزَلَ بِجَنَّاتِ النِّعِيمِ مَنَازِلًا

وهذا منتهى التمجيد والتقديس، وإنه لتعبير عن أصدق العواطف،  
وأطيب المشاعر.

وقال قسطندي داود من قصيدة في رثاء سعد:

ناضلتَ عنا ما ونت لك همة  
قد كنت كوكبنا الذي بضائه  
قد كنت قائدنا الجريء وهل لنا  
وحسامٌ عزمك ما عراه فُلُولُ  
نحو الفلاح لنا أستبان سبيلُ  
من بعد سعد قائدٌ ودليلُ؟

وأصبح شعراء الأقباط وكتابهم بعد ثورة سنة ١٩١٩ يعبرون عن  
آمال البلاد وأمانيتها، ويفرحون لفرحها، ويحزنون لحزنها. مثال ذلك قول  
فيليب عطا الله في تمثال<sup>(١)</sup> «نهضة مصر»

تمثال نهضة مصر زال ستارُهُ  
ظهرت معاني وصفه فأتى كما  
من مهجة الشهداء ألف طينه  
هو كعبة الآمال أو محرابها  
أنهض أبا الهول العظيم فرأسك الـ  
أنهض وحدثنا عن الزمن الذي  
هيّا أبا الهول انتصب متهاديا  
لا تحفلن بناضب أو غاضب  
فتألأت لما بدا أنواره  
بعد الجهاد اختاره مختارُهُ  
ومن الدماء تركبت أحجارُهُ  
حجت إلى أعتابه زوارُهُ  
عالي أستقر على النهوض قرارُهُ  
وَلَى وَلِم يعلق عليك غبارُهُ  
إن الزمان تغيرت أطوارُهُ  
كف الظلوم تقلمت أظفارُهُ

(١) البلاغ في ٢٣-٥-١٩٢٨.

حيّ المليم وخلّ رأسك عاليا

\*\*\*

فقد أستقلت بالمليك دياره

يا روح زغلول أظهري وتفرجي  
زغلول أول من توقد قلبه  
بجهاده شهدت له أعداؤه  
ما البدر في الإشراق إلا نوره  
قد زار نهضة مصر يوم نهوضها  
ما كان أعذبه لسانا عندما  
روح الإباء تجسدت في شخصه

وتمجدس فالحق بأن مناره  
والى بلاد الغرب طار شراره  
عدلا كما شهدت له أنصاره  
والشمس في الإحراق إلا ناره  
بل عاش في تمثالها تذكاره  
كانت تغص بزائريها داره  
وعن الرياء تنزهت أفكاره

## مجتمع الأقباط وأثره في أدبهم

كان المسيحيون فيما مضى يعتبرون أنفسهم أمة قائمة بذاتها، لها كيانها وشخصيتها، وآمالها وأمانيتها، وأفراحها وأتراحها، وأعيادها ومواسمها، وتقاليدها وعاداتها. وقد ظلوا محتفظين بهذا الرأي إلى ما قبل سنة ١٩١٩.

وألّفوا كتباً كثيرة تتناول تاريخهم وتاريخ كنيستهم، وتراجم عظمائهم مثل «الأقباط في القرن العشرين» لرمزي تادرس. و«تاريخ الأمة القبطية» ليعقوب نخل رفيلة. و«نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر» لتوفيق إسكاروس. وألّفوا كتباً كثيرة تتناول حياة شهدائهم وقديسيهم.

وأقاموا الجمعيات الخيرية، والأندية الثقافية والملاجيء الخاصة بهم. وظهرت صحف ومجلات كثيرة دينية وأدبية تعالج الشؤون القبطية.

وشرع كتابهم يحررون المقالات والفصول في البحث عن أسباب تأخر الأمة القبطية. ويصفون ما أنتابها من علل وأمراض اجتماعية، وما فيها من عيوب ونقائص. ويشرحون خير الطرق لعلاج هذه الآفات.

فمن الموضوعات الاجتماعية التي كتب فيها أصحاب الرأي من المسيحيين موضوع «الزواج المتأخر» قال (١) رمزي تادرس:

«إذا شبهت هذا النوع من الزواج - يعني الزواج المتأخر - بالمعول الذي لا يهدم كيان الأمة ويكثر اليتيم ويضعف التناسل، فإنني لا أكون مبالغاً خصوصاً إذا أضفت إليه قول مدير الإحصاء في سنة ١٩٠٧ من أن النسبة المئوية لليتامي بين الأقباط أكبر منها بين المسلمين.

وقد لوحظ أن ٣٠% من أولئك الأزواج يموتون عقب اقترانهم بسنوات قليلة ويتركون أيتاما يتعرضون إلى الشقاء والبؤس والفقر المدقع. قال رمزي (٢) تادرس: «من منا لم يروعه منظر أطفال صغار يجوبون مع أمهاتهم الطرقات والمنازل طلباً للكفاف بعد أن كانوا في سعة؟ من منا لم يسمع بأن الفقر دفع يتيماً على الإجرام وساقه إلى الجريمة؟ بل من منا لم ير أطفالاً كانوا متوقدين ذكاء فحولهم اليتيم إلى جمود وعقم؟ فشبوا جهلة فاسدين تحط بوجودهم الأمة التي تلعنهم فيلعنونها، لأنها هي الجانية عليهم».

«إن الملاحيء الخيرية لو فتحت، والإحسانات لو توالى لتحسين حال اليتامي لا تكفي لتجفيف دموعهم، وإخماد شجونهم، بل تذكرهم بالشقاء الذي هم فيخ يهيمون، فتصغر نفوسهم، وتضعف مواهبهم.

(١) الأقباط في القرن العشرين ج ١ ص ٦٢-٦٥.

(٢) الأقباط في القرن العشرين ج ١ ص ٦٣-٦٥.

ولكن الذي يرفه هذه التعاسة هو العدول عن الزواج المتأخر؛ هو تمنع الآباء عن ترويح بناتهم بالمسنين ليخففوا الويل عن اليتامى والمذلة عن الأرامل».

وكتب قبطي آخر<sup>(١)</sup> مقالاً بصحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ تحت عنوان: «خطر يهدد الأقباط» جاء فيه:

«وأما الزواج فأرى إجحاماً كبيراً عنه، ولكن مهلاً أيها الشباب القادر على الزواج ولم تتزوج. إنك تخالف وصايا إلهك القاتل في كتابه المقدس: «لا تزن»»

«ظغتك تجني على أمتك شر جنانية؛ وهي انقراضها من الوجود. إنك بهذه الحالة لا تعد مخلصاً لها، ولا تستحق أن تنتسب إليها لأنك لا تعمل على نموها وازدهارها ولا تجتهد في إكثار عددها».

«فإذا أردت أيها الشباب أن تبرهن برهاناً حسيماً بانك مخلص محب لأمتك فعجل بالزواج، وقدم لها أبناء يذودون عن حوضها وينفعونها عند الملمات».

«ومن رأيي أن تؤسس جمعيات بكافة أنحاء القطر يكون غرضها الوحيد وشغلها الشاغل الحث على الزواج، وتذليل الصعوبات التي تعترض الفقراء وتمنعهم منه، كما تساعد الفقيرات في الزواج».

---

(١) الوطن في ١٩٠٩/٩/٨.

«وجدير بالأغنياء أن يساعدوا مثل هذه الجمعيات التي تزوج البنات الفقيرات اللواتي لا يقدم عليهن أحد إلا عند علمه بمساعدة مالية من الجمعية. فعليكم أيها الأغنياء بذل يد السخاء في تزويج الفقيرات والفقراء، وصرف بعض من عنايتكم لهذا العمل حتى يأتي الوقت الذي يكثر فيه النسل».

فكثرة عدد الأيتام عند الأقباط جعلتهم في حاجة ماسة إلى الإكثار من إنشاء الملاجيء التي تعني بتربية هؤلاء الأيتام من بنين وبنات، وتخفف عنهم آلامهم. وجعلتهم في حاجة ماسة إلى إنشاء الجمعيات الخيرية التي تمد يد المساعدة للنسوة المترملات. وإلى المشاغل التي يتعلم فيها الأيتام بعض الصناعات الخفيفة التي تمكنهم من كسب قوتهم. وجعلتهم يقدرون الإحسان والمحسنين. فإذا مات عظيم من عظمائهم الأغنياء المعروفين بالبذل والسخاء بكوا عليه بكاءً مرأً، وأعتبروا موته خسارة لحقت المجتمع القبطي، فلبسوا عليه ثياب الحداد، وراثه شعراؤهم وخطباؤهم رثاء حاراً. ونوهوا بفضائله ومناقبه، وبره وإحسانه، وعطفه وحنانه.

ولما كان الأنبا كيرلس الرابع قد أدى إلى أبناء طائفته خدمات كبرى فقد ظلوا يحتفلون بذكراه أكثر من نصف قرن. وألفوا في تاريخه الكتب، ودبجوا في مناقبه المقالات، ونظموا القصائد. فمن ذلك قول إسكندر قزمان في الأحتفال بمرور خمسين عاماً على البطرك المذكور في ١٩١٢/١/٣٠:

ويدوم ذكر الفضل ما دام القمر  
 فبنفعتها طالت على رغم القصر  
 كي يُزْدَرَى من عابديه ويُحْتَقَرُ  
 عدوه ذنبا في السورى لا يغتفر  
 حسبه سيئة بمثلك يفتخر  
 عما يزول بما يدوم ويدخر  
 عن ظلها يتأون مع كل الحذر  
 حتى غدت حرماً يُحَجُّ ويعتمر  
 لتقيمهم منها مقاما يعبر  
 كأس الحمام ورحت لم تبلغ وطر  
 يحدو مطايا العزم من أهل الفكر  
 لك لم يفه في العمر عنك بقول شر  
 ندرى إذا قسناه أيكما أبر  
 ح، بك الرقي وفي المعاد به الظفر  
 وخط المشيب وخفت يفجأني السفر  
 ولعل صبري بالقضاء وبالقدر  
 أني نثرت الدمع مع هذى الفقر

خمسون قد مرّت وفضلك مُدْكَرُ  
 ولئن غدت منك الحياة قصيرة  
 ودعوته صنما وقلت أهْدُهُ  
 وأثار هذا سخط بعضهم وقد  
 فاليوم طراً أدركوا أن الذي  
 أثنوا على بذل به عوضتهم  
 شدت المدارس حينما كان السورى  
 ولها أستلمت قلوب قومك دائبا  
 قالوا سموت بحهم نحو العلا  
 فكرعت في هذا السبيل تطوعا  
 أخلق به حمداً يريح ثراك بل  
 هذا سميك ذو الرياسة شاهد  
 لكليكما برُّ به يمتاز، لا  
 تدعى أبا الإصلاح وهو أبا الصلا  
 ولئن أتيت أليك حقك بعدما  
 فلقد صبرت على أحرّ من اللظى  
 فأصفح بفضلك عن قصوري سيما

وهذه القصيدة جيدة الأسلوب، متينة التركيب، رائعة المعاني،

محكمة المباني.

وقال إبراهيم حنا عطايا من قصيدة طويلة:

ليك من قلبنا تُهْدِي التحيات  
 قد خلدته الأيادي. والمبّرات

يا داعي الفضل تحيي ذكر بطرنا  
 قمنا لإحياء ذكرى ريس بطل

وعزمننا للأأت منه النريات  
لكنه علم حقتَه رايات  
تقاصرت عن كمال الفضل سادات  
لا غرو أن سقت الأرض السموات  
ففي طلابك للأيام إعنات  
تلق الإفادات تتلوها الإفادات  
أيام عزت رجال والبنيات  
ويدد الظلم فأنجابت محاباة  
فإنه خير خبر في الألى ماتوا

شعورنا قد أضاءت منه أفئدة  
هذا كرلس في التراب رابعهم  
تقاصرت عن معاليه الدهور كما  
سما على الخلق فأستسقوا مواهبه  
لا تطلبن من الأيام مشبهه  
طالع مآثره واقراً نفائسه  
بنى كنيستنا الكبرى ومدرسة  
كم ذاد عن شعبه من جور محتكم  
يا رحمة الله وافيه مثلثة  
ألخ...

وسبق أن رأينا كيف بكى أدباء الأقباط على بطرس غالي بكاء مرأً،  
وكيف نظموا ونشروا في رثائه القصائد والمقالات والخطب.

وقال بسطا بشاى يرثى جرجس بك حنين مدير الأموال المقررة في

١٩١١/٦/٢٤ من قصيدة طويلة:

عادي الحمام، وكم أقلت عثارا  
وتدير عينك لا ترى أنصارا  
لفدك منا أنفس تتبارى  
من مسلمين تألموا ونصارى  
بين البرية بالنبوغ فخارا  
عند أرتحالك قدمت أعمارا  
ولقد قضيت وما قضت أوطارا

رب المآثر ما أقالك عثرة  
أعزز علينا أن يناهضك الردى  
لو يقبل الموت الفداء لبادرت  
خسرتك مصر فعم رزؤك أهلها  
تبكيك أمتك التي أكسبتها  
لو تستطيع جزاء ذاك وخُبرت  
كانت لها الآمال فيك كبيرة  
ألخ...

وقال فرنسيس العتر يرثي يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩ .

ولّى فألبسنا الأسي من بعده  
أبكي بعاصمة البلاد كنائسا  
من لليتامى والأيامي؟ من ترى  
ذي بيعة العذراء تبكي فخرها  
وكنائس القديس مرقس كلها  
أطفالنا ونساؤنا ورجالنا  
ألخ....

\*\*\*

ومن الطبيعي أن يمدح شعراء المسيحيين وكتابهم المحسنين  
ويطرونهم، ويشيدون بكرمهم وسخائهم، كما أنهم عرضوا بالبخلاء،  
والذين ينفقون أموالهم إشباعاً لشواتهم وما يجلب لهم اللذة كالخمر  
والنساء؛ متجاهلين الفقراء من أبناء دينهم، وكان الشعراء يستدرون عطف  
المحسنين بشرح أحوال الفقراء وما يلاقونه من قسوة الحياة؛ وما عليه  
من جوع وعرى، وما يجري على خدودهم من دموع. ويدعون الأغنياء  
إلى التخفيف من آلام هؤلاء البؤساء، ويذكرونهم بثواب الله ونعيمه الذي  
أعدده للمحسنين. وعقابه الذي ينزله بالبخلاء الذين كدسوا أموالهم  
وأخذوها أصناماً يعبدونها من دون الله.

ويذكرون أن هؤلاء البخلاء سيموتون ويتركون أموالهم، لم ينتفعوا  
بها في الدنيا ولا في الآخرة. ويقولون إن الأعمال الصالحة هي التي

يجب أن يدخرها المرء لينتفع بها في الحياة الأبدية. وأفضل هذه الأعمال الإحسان إلى المحتاجين.

وقد مر بنا شعر كثير يحمل بين طياته الأهداف المتقدمة.

\*\*\*

ومن المشاكل الاجتماعية التي بحثها المفكرون المسيحيون، وأكثرها فيها القول مشكلة نشر التعليم بين أبناء طائفهم بحيث يكون لهم التفوق في النسبة العددية حتى تتم لهم السيطرة على مرافق البلاد الحيوية. قال رمزي تادرس<sup>(١)</sup>:

«إذا قارنا نسبة الزيادة بين العنصرين في خلال الأربع سنوات الأخيرة باعتبار ذات الزيادة المتواصلة بين عدد المتعلمين لعادات نسبة الأقباط خمسة أسباع عدد المتعلمين. ويفرض حصول الزيادة بين المتعلمين على النسبة نرى حالاً أن عدد المتعلمين منا سيصبح بعد عشر سنوات، أي في سنة ١٩٢٠ خمسة أتساع مجموع المتعلمين. وهنا يجب الالتفاف إلى أن عدد المتعلمين من إخواننا- يعني المسلمين- آخذ في النمو والأزدياد كلما تخطوا رقاب الأعوام» .

«وسيكون من شأنه بالرغم عن عدم توقف سير الزيادة المطردة بيننا تقليل نسبتنا إلى ما هو دون النصف. وهذا لو حصل لأخل سير الموازنة

---

(١) الأقباط في القرن العشرين ٢٩/١.

الطبيعية الحاضرة، وأستدعى من باب الحيطة أن ندأب من الآن على ترقية التعليم وجعله إلزامياً ومجانياً في مدارسنا لتبقى نسبتنا حافظة دواما لمكانتها».

«والأمر الثاني الذي يسترعى الأنظار هو أن إحصائية المتعلمين في المدارس العالية تدل على أن نسبتنا أقل بكثير من نسبة إخواننا- يعني المسلمين- بل آخذه أيضاً في التناقص من سنة إلى أخرى. فإنها بعد أن كانت تعادل في سنة ١٩٠٦ نحو النصف؛ تناقصت في هذا العام- ١٩١٠- إلى جزء من خمسة أجزاء من مجموع المتعلمين، وستعادل في سنة ١٩٢٠ على هذا القياس جزءاً من عشرة أجزاء».

«وهذا التقدير التقريبي الذي لا يتناول طبعا الستمائة طالب الذين يتعلمون من إخواننا في كليات أوروبا؛ يدل على أن أفتقارنا إلى التعليم العالي أشد من افتقارنا إلى التعليم الإعدادي بكثير. ويؤيد رأي الذين ذهبوا إلى أن عنصرنا لا يزال بعيداً عن بلوغ المنزلة التي يستطيع بها المنافسة مع إخواننا- أي المسلمين- أو الدخول معهم مداخل التنافس والتسابق في ميدان الحياة العملية حفظاً للتكافؤ، وأستبقاء للوجود الذاتي».

«ومع ذلك أترانا ألتفتنا حوالينا ونظرنا إلى هذه الحركة العلمية؟ كلا! إنا لم نلتفت ولكننا شعرنا شعوراً ذاتياً بعدم ضمانة مستقبلنا أمام تلك النهضة العالية التي أخذت تتسع وتنتشر في صفوف إخواننا- يعني

المسلمين - حتى أوجدت جيلاً راقياً منهم. ولا حاجة بي إلى ذكر ما آل وسيؤول إليه أمرنا قبل وبعد هذه الحركة العظيمة، إنما غاية ما يمكن ذكره هو أن نستبدل السكون بالحركة، والقعود بالسعي المتواصل لكي نسير وإياهم جنباً إلى جنب في إنجاح البلاد، وإسعاد العباد، ولكي يتفوق عددهم على عددنا».

«ولقد يحسن بنا - والحالة هذه - أن نتساءل أو نسأل أنفسنا: ما هي النتيجة إذا أستمروا إخواننا يعززون قوميتهم بالتعاليم العالية، وبتخريج الأخصاصيين في كل علم وفن؟ لا نتيجة سوى أن ننحل ونفقد وجودنا ونسقط في الهاوية التي أعدت لأمثالنا من الخاملين».

فبهذا الإحساس أندفع أدباء المسيحيين إلى نظم القصائد وتدبيح الخطب، وتنميق المقالات في الدعوة إلى العلم والتعليم. كان غرضهم التفوق على المسلمين والتغلب عليهم. وكانوا يرون في انتشار التعليم بين المسلمين خطراً يهدد كيانهم. ويؤذن بزوالهم. وقد أثبتت الأيام خطأ هذا الاعتقاد وفساده. فمدارس الحكومة مفتوحة أمام المصريين أجمعين، وكذلك الجامعات، والعبرة بالمجموع الذي يحصل عليه الطالب دون نظر إلى الدين.

\*\*\*

ولما كان الطلاق من الأمور المتعدرة عند الأقباط؛ فقد أهتم مفكروهم ببحث أسباب النزاع بين الرجل وامرأته. ورأوا أن من أهم أسبابه جهل المرأة قال رمزي تادرس<sup>(١)</sup>:

«على أنه لو أنصتنا إلى العائلة القبطية في مجتمعاتها الخصوصية لسمعنا صوت الشقاء يصرخ بين أفرادها، والتعاسة موجودة بينهم بكثرة لا يدركها العقل. موجودة بين الزوج وزوجته، وبين الأخ وأخته، وبين الأم وأولادها، لأن المرأة القبطية جاهلة».

وقد قام الشعراء في الدعوة إلى تعليم الفتاة بواجبهم خير قيام فنظموا القصائد الطويلة في بيان مزايا الأم المتعلمة، ومضار الأم الجاهلة. ورأوا أن الفتاة المتعلمة أسرع زواجا من الجاهلة. وعلى ذلك فتعليم البنت يساعد على حل أزمة الزواج عندهم، وبذلك يزداد عددهم وتتسع دائرة نشاطهم، ويمكنهم الوقوف في وجه الأغلبية الإسلامية. قال نصر لوزا:

العلم فرض على الجنس اللطيف كما	قد صار فرضاً على شبابنا النجيب
الأم تحتاج علماً يستضيء به	أبنائها مثلنا يحتاج خير أب
ربو الفتاة ترةً أمماً مؤدبة	تعلم الطفل ما يحلو من الكتب
البنت إن هُذبت صارت لنا ملكاً	يجشو لها كل مخلوق على الركب
البنت ريحانة والعلم زخرفها	إذا هي أرتشفت من مائه العذب
فئاتنا اليوم أم للرجال غداً	فهذبوها تنالوا منتهى الأرب

(١) الأقباط في القرن العشرين ٤٩/١.

ولو غدت من بنات العز والحسب  
يغى الزواج بذات المال والتسب  
بل يتغيها فتاة جملة النشب  
إلا وأجله المقدور بالطلب  
جزءاً من الأرض مع جزء من الذهب  
فلا تميز بين الدر والخشب  
وعيشة الزوج لم تهنأ ولم تطب  
وبات يحسد دوماً عيشة العزب  
وليس من علّة فيها ولا سبب  
من ربة المال لا من ربة الأدب  
تلين إن قومت عفواً بلا تعب

لا خير في امرأة في البيت جاهلة  
لي صاحب طالما ألفتته عجا  
لا يتغي زوجة بالعلم راقية  
ما زال مجتهداً في نيل بُغيته  
أعطى له امرأة من أهلها ورثت  
لكنما عقلها بالجهل ممتليء  
حتى إذا ما مضى من عرسها سنة  
تكدر الزوج من جهل بزوجته  
فلم تطل مدة إلا وطلقها  
هذى مغبة من يغى قرينته  
البت غصن رطيب في حدائقها

ولم يحدث بين المسيحيين اختلاف حول وجوب تعليم الفتاة كما  
حدث بين المسلمين، وذلك لأنهم كما ذكرنا كانوا مهتمين بتدعيم كيان  
العائلة، ورأوا في تعليم الفتاة ما يدعم هذا الكيان، ويزيل أسباب  
الشحناء.

\*\*\*

وقد دعا كتاب المسيحيين إلى تحرير المرأة من الحجاب، وقالوا  
إن المرأة القبطية لم تكن تعرف الحجاب، وإنما الذي فرضه عليها هو  
أحمد بن طولون. وذكروا أن الحكم الإسلامي كان السبب في تأخر  
المرأة القبطية وتخلفها عن نساء العالم. وأن الدين المسيحي نهى عن  
الحجاب، وعن تغطية وجه المرأة بالبرقع، وعن لف جسمها بالحبرة أو

الإزار. وقالوا إن المرأة القبطية طبعت على العفة والطهارة، وأن هذه الصفات طبيعي فيها منذ عصور الوثنية. وكانوا يوازنون دائماً بين بنات الفرنجة وهن مسيحيات، وبنات الأقباط اللاتي يشاركنهن في العقيدة، ومع ذلك فالفرق بينهما عظيم. قال نصر لوزا:

وذى بنت مصر وقتها ضائع سدى	تُضَيِّع بنت الغرب في الدأب وقتها
وأخراهما لا تنشي خشية الردى	فأولاهما لا تعرف الضيم نفسها
إلى غيرها الاحوال لا ترهب العدى	تضيق عن الأولى البلاد فتمتطي
من البيت سجننا في الحياة مؤبدا	وترحب للأخرى فتختار دونها
أبوها جنى لمأ لم يكن متمعدا	وما الذنب ذنب البنت في مصر إنما
لكي تلتقي من رؤية البدر مشهدا	يغار عليها إن أطت من الحمى
يغار فيبقى قربها مترصدا	يكاد إذا صلّت إلى الله ربها
	ألخ...

\*\*\*

وتناول بعض الكتاب سوء الحالة الصحية بين شباب الأقباط تحت عنوان «خطر يهدد الأقباط» فما قاله:

«ضعف في الصحة، وذلك ناشيء من سوء الغذاء، وعدم استعمال الألعاب الرياضية. ولست أعلم سبباً لهروب التلاميذ الأقباط من الألعاب الرياضية حتى ليندر وجود أقباط بين لاعبي الألعاب الرياضية في مدارس الحكومة مع كثرة عددهم».

وكتب آخر تحت العنوان المتقدم:

«إن مسألة عدم اهتمام أبناء الأقباط بالألعاب الرياضية يعرضهم  
لأمراض فتاكة تجعلهم في خطر، وتقصف أعمارهم وهم في مقتبل  
الشباب. وإني آسف- واسم الحق- عندما أنظر إلى الشيب القبطي  
فأجده آية في الذكاء ولكن إما أن يكون مصفر الوجه، أو نحيل الجسم،  
أو منحني الظهر، أو مضضع البصر. وذلك على ما أرى من كثرة  
انكبابه على الدرس والمطالعة، وعدم تخصيص وقت للرياضة ولعب  
الجمباز».

فكانت هذه الحالة من أسباب اهتمام الأقباط بإنشاء المصححات  
الخيرية التي تتولى علاج فقرائها بالمجان، وإنشاء المستشفيات  
كالمستشفى القبطي، ومستشفى جمعية التوفيق القبطية وغيرهما.

ويزعم بعض المسيحيين أنهم توارثوا عن أسلافهم علوم الطب  
وعلاج بعض الأمراض بحيث لا يستطيع أحد أن يناقشهم فيها. قال  
جندي إبراهيم من قصيدة في رثاء المعلم «برسوم المجبر»:

توارث القبط هن أسلافهم حكماً	خُصَّ الليب بها إذا غاب أغرارُ
فكان برسومنا مستودعاً حسناً	للسر إذ خشعت للوحي أبصارُ
كم من كسير أضعاع الطب حيلته	وكم عليه سطا فظ وجَّارُ
يبتز أمواله مُبداً ومُحْتَمِماً	وهل يُجيزُ الفتى فأس وبتشار؟
يغدو الكسير طريحاً لا يرى فرجاً	إلأك يا نابغاً فينا فيختار
والمنهل العذب جذاب لذي ظمأ	والشهد حلو لذيد الطعم بشتار
حتى الطبيب الأمين اختصه ثقة	وما تشبه بالقوم الألى غاروا

ألخ...

وأما مطلع القصيدة فهم:

مات المجبر والتجبر أسرار      أعيت أطباء هذا العصر فأحتاروا

فالشاعر يقول إن التجبر من الأسرار الطبية التي ورثها المسيحيون  
عن آباؤهم وأجدادهم، وأنهم متفوقون في هذا النوع من العلاج الذي لا  
يستطيع الطب الحديث أن ينهض به.

وإلى هنا ينتهي الكلام على أهم نواحي مجتمع الأقباط وأثره في  
أدبهم.

## الحب الإلهي وأثره في الأدب القبطي

يصف المسيحيون الله بأنه أبوهم الذي في السموات. فالعلاقة التي تربطهم بالله هي العلاقة التي تربط الولد بوالده، وهي تقوم على الحب المتبادل بين الطرفين. فهم يحبون الله حباً جماً لأنه أبوهم الذي يخصصهم بيره وعطفه، وكرمه وإحيانه، ويقولون إن الخطيئة التي ارتكبها آدم حين أكل من الشجرة المحرمة، والتي أستوجبت طرده من الجنة؛ ظلت عالقة بأبنائه، فأراد الله أن يزيل عن كاهل البشر وزر هذه الخطيئة فأرسل ابنه الحبيب عيسى ابن مريم ليدعو الناس إلى الإيمان بالله، والدخول في طاعته. وليهديهم إلى طريق الخلاص من هذه المعصية التي أقترفها أبوهم آدم. ولذلك يصفون المسيح بأنه المخلص. ويقولون إن المسيح تقبل الصلب ليفتدي العالم بنفسه، ويكون دمه المسفوك مطهراً للجنس البشري، ولهذا يدعونه بالفادي الحبيب.

وأتخذوا الصليب شعاراً لهم يرسمونه على أذرعهم، ويعلقونه فوق صدورهم، وفي داخل كنائسهم وخارجها. وينظمون الأناشيد والتراتيل والقصائد التي يتغنون بها في صلاتهم تقديساً للصليب، وتمجيداً في المسيح، وفي أمه مريم العذراء البتول. مثال ذلك قول رفاثيل نخلة تحت عنوان «ملكة السماء والأرض».

فنتتْ فؤَادَ الله حين رآها  
قد عم آدمَ والسلالة سخطه  
قد بُشِّرَتْ بقدمها لخلصنا  
عذراء قد حبلت بقوة ربها  
أمُّ الإله، أيا ملائكة أذهلوا  
منذ الولادة شوّهتنا وصمة  
الأرض قبلك يانقية عاطل  
لأرض أنتِ وللسماء مليكة  
ألخ...

فاقت خلائقه بفرط تقاها  
فافتر عن حلم لدى مرآها  
حواء في الفردوس بعد غواها  
وهبت حياة للذي أحيها  
قد كونت مولاكم بحشاها  
ما ناب مريم عارها وأذاها  
وبك استبّت ربّ الجمال خلها  
عقلُ النوابع في جلالك تها

وقال مناجياً للصليب تحت عنوان «يا صليب الرب».

يا صليب الرب، يا أسمى خطيب  
مذ طلى عودك فادئ الحبيب  
باسطاً كفيه في حبّ عجيب  
والفؤاد أنحل من فرط الوجيب  
لم أجد مثلك وعظماً يصيب

مرشداً نفسي الصلّول الخاطية  
بقطار من جروح دامية  
لجماهير الشعوب الغاوية  
في هواه للنفوس الغالية  
بسهام اللوم روحي القاسية

يا صليب الرب، يا أسمى خطيب

وقال نصر لوزا من قصيدة عنوانها «آية الصليب»:

صليب العار صرت لنا فخارا  
فإن خشباً تكن فلأنت تحوى  
كبار البأس والجبروت ليسوا

نلوذ بظّله نحن النصارى  
معاني تزدري الذهب الثصارا  
أمامك خُشَّعاً إلا صغارا

فتلبس فوق تاج الغار غارا  
وكنت الركن فيها والجدارا  
خشوعاً للمخلص وادُّكارا  
لناظرها فتعششه وقارا  
من الفادي يصون لها الدُّمارا  
عليها الليل يسهر والنهارا  
حجاب الهيكل أنشق اندحارا  
يد الشيطان ترهقها إسارا  
فليس تضيرك الأحداث نارا

ملوك الأرض تلبسك أعتزازا  
بيوت الله قد شيدت صروحا  
يراك بأفقها الساري فيعنو  
تؤذّن للصلاة بغير صوت  
كأنك فوقها ملك كريم  
كأنك للعناية ذيِّدبانً  
شقت لنا طريق النصر بينا  
وحررت النفوس فدّى وكانت  
تلاقي كالخليل النار بردا  
ألخ...

وهكذا شخص الشاعر الصليب وأخذ يخاطبه، ويخلع عليه من الصفات ما شاء، فهو ملك كريم يدفع الأذى والضرر عن الناس. وهو حارس قوي ينهض بواجبه في الحراسة ليل نهار، لا يغفل ولا ينام، وهو الذي تعتن به الملوك وتضعه فوق تيجانها.

وقال نصر لوزا من قصيدة في الحب الإلهي:

ولا نبث لغير الله شكوانا (١)  
تحت الصليب أباه الضيم شجعانا  
قلوبنا تنعب الأحداث غيرانا  
وفي الجوانح يزكو الشوق نيرانا

إن رابنا الدهر لا نجزع لريته  
ونحمل الخطب يوهى المرهقين به  
تشدو البلابل من أفواهنا وعلى  
تركو الرياض بعؤفٍ من قرائحنا

(١) إن رابنا الدهر: إن أصابنا وقسا علينا (٢) يوهني: يضعف: المرهق: المثقل من التعب والألم.

(٣) غربها: حدتها وقسوتها.

عزائمنا تنهضُ الثُّؤامُ شباننا	وإن مفارقنا شابت فإن لنا
كم شدة بهداه غرئها لانا	إن شدة عرضت فادع المسيح لها
باءت عواقبها غبنا وخسرانا	من باع أخراه بالأولى فصفقته
فلاقه غافراً واحذره ديانا	يا للمخلص غفاراً ومنتقماً
تعد منه مسيحياً ونصراناً	من لا يحب المسيح الناصري فما

والحق إن هذه الأبيات قد أستكملت جميع العناصر الفنية للشعر الممتار، وأستوعبت عائم الإجادة التي ينهض عليها الإبداع الفني.

\*\*\*

وقد أتخذ أدباء النصارى الأدب وسيلة للوعظ والإرشاد، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق التي تقرب الإنسان من الله، وتجلب له المحبة الإلهية، وتدخله - على حد تعبيرهم - في ملكوت الرب تقديس أسمه، وتمجد في سمائه. وكذلك أتخذوه وسيلة للدعوة إلى التأمل في الكون، والتطلع إلى آثار ما صنع المليك، وما أبداع من الكائنات التي تشهد بوجوده، وتنطق بقدرته. مثال ذلك قول نصر لوزا من قصيدة تحت عنوان «العلم والبلاد».

وتدوم بعداً صفحة الأعمار	العمر يمضي كالخيال وينقضي
بالصالحات وطيب الأفكار	فتمكنوا يا قوم من تخليدها
قدمين من ليل الدُّجى ونهار	هذي حياة الخلق سائرة على
فنعيمها كدّر من الأكدار	فالحر من لم يغترر بنعيمها

الكون سفر علومنا وسطوره  
فتأملوا في ذي السطور فإنها  
الشمس تخبر عن بديع فعاله  
والبحر والبئر العظيم وما حوى  
الكل قائلة بصوت واحد  
من روضه وجماله وبحار  
لسطور سفر الواحد القهار  
بجميل ما تبدي من الأنوار  
حتى الطيور وهن في الأوكار  
الله أكبر ذاك خلق الباري

وهذا شعر جيد تغذيه عاطفة دينية ونفحة روحية. وقوله «الواحد القهار» لا يتنافى مع العقيدة المسيحية، فالله عندهم واحد في ذاته، مثلث في صفاته.

\*\*\*

وقال إسكندر قزمان في تهذيب النفس وإصلاحها، وتقويم الأخلاق والسمو بها:

وإذا الفتى لم تعتلد آماله  
ومتى تفاجئه الحوادث ينهزم  
ولربما بالراح عالج هممه  
ولئن مضى العام القديم ولم يزل  
أفلا علاج يُستطبُّ به وهل  
حاشا فأدواء الحياة لها مرا  
للناس جهازها طيب قادر  
ما مدّ يمناه الكريمة مشفقا  
خال الهناء بذي الحياة مكثلا  
ولقد يظن بأعزل إن يفشلا  
أو بالضلال إلى النجاح توّسلا  
يصليك من بلاءه أحمى مُصْطَلَى  
يرضى المهين أن تضام وتخذلا؟  
هم وهى أنجع ما ينال المئلى  
أضحى بتخفيف العنا متكفلا  
إلا شفت دنفنا وحلّت معضلا<sup>(١)</sup>

(١) الدنف: المريض.

يهدي الأساة إلى الوقاية والدوا  
يدعو إليه المتعبين جميعهم  
قد قال قدما وهو أصدق قائل  
فجبل قوته اعتصم من قبل أن  
وعناك أدنى لو أمت رحابة  
وإذا حبال الخير رقت واعتدى  
وإذا نبا دهر وكاد لك العدى  
فاصبر ودع مولاك يُجري عدله  
وتغاض عن هفوات من عاشرتهم  
ولعل خيراً في همومك كامن  
فأشكر كريماً قد أنالك من فدا  
وأحفظ عفافك من شبابك تَلْفُهُ

ء لأنه رب الملائك والملا (١)  
لُيَقَرَّ مضطرباً وينجد مُتقبل  
لا يُخذلنّ فنى على توكلنا  
تستقبل العام الجديد المقبلا  
مما تقدّره وأيسر محملا  
بالغش من عاملته مُتسرلا (٢)  
وجفك من تهوى وذمك من قلا (٣)  
أفلا تُنلّه مهلة كي يعد لا؟  
كم مرتد بردائه بعد البلى  
لولا همومك ما أتاك مجملا  
هُ ومن ندهاه ومن رضاه وأجزلا  
دراً لرأسك في المشيب مُكَلَّلاً

هكذا وقف الشاعر واعظاً ومرشداً يدعو إلى التمسك بالأخلاق  
الفاضلة التي يقوم عليها المجتمع الصالح. ويدعو إلى التسامح والإخاء  
ونبذ الأحقاد والضغائن، وترك العداوة والخصومة، ونشر روح المحبة  
والإخلاص والوفاء. وفي قوله «يدعو إليه المتعبين أ...» إشارة إلى ما  
ورد في العدد ٢٨ من الإصحاح الحادي عشر من إنجيل متى وهو  
«وتعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم».

(١) الملا: الناس.

(٢) متسرلا: مرتدياً.

(٣) قلا: أبغض.

وتمتاز هذه القصيدة كغيرها من شعر إسكندر قرمان بجودة الأسلوب، ومتانة التركيب، وقوة العبارة، وبراعة الإشارة. كما تمتاز بالقوة الروحية والعاطفة الإنسانية.

\*\*\*

وقال ميخائيل منصور مشيراً إلى الرهينة والتنسك، وأعتزال المجتمع والتفرغ للعبادة:

جعلوا الصحارى جنة واستوثقوا	بالله لا بالمال والأعوان
فَقَصَّوْا لُبَانَةَ رَبِّهِمْ إِذِ قَوَّضُوا	باسم المسيح عبادة الأوثان
وصليبه أتخذوه أصدق شارة	حتى دعوهم عابدي الصلبان
وتبتَّلُو متنسكين لوجهه	متقربين إليه بالقربان
ودَعَّوْا نفوساً للخلاص فكلهم	راع وحقل حصاده الثقلان
يَبَعُّ وأديار بمصر ونوبة	مزدانة بالطُّهر والرضوان
يا مصر شعبك بالمسيح مبارك	يا منبت النساك والرهبان
ساروا وقد رفعوا بموكب نصره	أعلام إنجيل على الحبشان
فغدت كنيسة مصر مقصد آمل	تُرْتَاد من عرب ومن رومان

\*\*\*

وكثيراً ما نجد في الأدب القبطي بهذا الباب صوراً إسلامية مثل: التلبية، والأعتمار، والطواف، والحج، والقبلة والإمام. كما نجد إشارات إلى آيات قرآنية. مثال ذلك قول كامل منصور في حفلة تدشين كنيسة:

لا غرو إن لبيتها وحجبتها  
وعلى مناسكها وقفت جناني

فالتلبية من الشعائر الإسلامية

وقول إسكندر قزمان في ذكرى كيرلس الرابع وفيه إشارة إلى ما بذله من جهد في أفتتاح المدرسة القبطية:

ولها أستملت قلوب قومك دائماً حتى غدت حرماً يُحجُّ ويُعتمَرُ

فالحرم والأعمار؛ ومعناه زيارة الحرم الشريف؛ من الشعائر الإسلامية. وقوله:

أتلومني أنني أنبتُ وقد غدا شرع المهيمن قبلتي وأمامي؟

فالقبلة والإمام من الأمور الإسلامية.

وقال نصر لوزا:

فلمثلهم جعل الإله نعيمه من كل فاكهة بها زوجان  
يدعوهم جبريل فيها قائلاً ثوموا أدخلوا بسلامة وأمان

وفي البيتين صور إسلامية في وصف الجنة. فقوله «من كل فاكهة بها زوجان» فيه اقتباس لما جاء في سورة الرحمن آية رقم ٥١ وهي «فيها من كل فاكهة زوجان» وقوله «قوموا أدخلوا بسلامة وأمان» نظر فيه إلى آية ٤٥ من سورة الحجر وهي «أدخلوها بسلام آمنين».

وقوله:

الدين أول شيء صان صاحبه يا حبذا من بحبل الله يعتصم

وفيه إشارة إلى آية ١٠٣ من سورة آل عمران وهي «وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

\*\*\*

وهناك شعراء أقباط أوردوا في شعرهم معتقدات إسلامية مقرونة بالعظيم والأحترام، ونوهوا بذكر الشعائر الإسلامية متناسين معتقداتهم القبطية. فمن هؤلاء تادرس وهبي الذي يقول من قصيدة في مدح الخديو عباس حلمي الثاني:

وحسبه أن مليك الورى متبوعه ظلُ الإلهِ الظليلُ

ومعناه أن السلطان عبدالحميد الذي هو أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، متبوع الخديو؛ هة ظل الإله الذي ينشر على الأرض فيظل أهلها يسوسهم، ويحكمهم نيابة عن الذات الإلهية. وهذا لا يتفق مع معتقدات المسيحيين.

وقال تادرس وهبي مهناً الخديو عباس بقدمه من الحج:

ولقد رددتَ الدينَ والدنيا إليّ  
وسعيتَ للحرم الشريف مؤدياً  
ودخلت مكة محرماً لله لا  
فتهللت أم القُرى وسمأوها  
عهد الرشيد وهاته الدولاتِ  
لله فرض الحج في عرفاتِ  
تبغي سوى مرضاته بالذاتِ  
جادت على بطحائها بهباتِ

وأصبت أفئدة العُدَاةِ بما رمت  
قم أنثيتَ إلى زيارةِ روضةِ  
ووقفتَ نَمَّ مصلياً ومسلماً  
يُمنَى يمينِ عُلاكٍ من جَمَرَاتِ  
مطلولةِ بسحائبِ الرِّحَمَاتِ  
ولثمتَ قبراضمِ خيرِ زُفَاتِ

فلو أن شاعراً مسلماً أراد أن يمدح الخديو في هذه المناسبة لما جادت قريحته بأفضل من هذا الشعر. فلا شك في أن تادرس وهبي قد تجاهل معتقداته تجاهلاً تاماً في هذه القصيدة. وأنظر إلى البيتين الأخيرين وما فيهما من مدح للنبي محمد عليه السلام. وأنظر إلى المام الشاعر القبطي بمناسبة الحج الإسلامية من السعي، والطواف، والإحرام، ورمي الجمرات، وزيارة الروضة النبوية، وإيرادها في عبارات تدل على عظيم احترامه لها.

وقال مهنتاً الخديو عباس بعيد الفطر، وبنجاته من مؤامرة شبرا التي دبرت لإغتياله سنة ١٩١٢:

مولاي عيد الفطر عاد مجدداً  
واردد إلى الإسلام سابق عهده  
خسرت تجارة شانتيك بأسرهم  
فكأنهم حَمَالَةُ الخُطْبِ التي  
وكانما نكَبُوا لِتُجْزَى أجر ما  
فأستقبل الآمال فيه مَسَدداً  
حتى يتاح لك الفخار مؤيداً  
من بعد ما شَرَوْا الضلالة بالهدى  
آذت إمام القبلتين محمداً  
أرضيت ربك صائماً مُتَّجِهًا

هذه الأبيات ليست في حاجة إلى التعليق.

\*\*\*

ومن شعراء الأقباط الذين تجاهلوا معتقداتهم الدينية عزيز بشاى،  
ومن قوله تحت عنوان «سيرة الشريف الرضى».

والناس في الدنيا بها بُشْرَاءُ  
كرم لديك وذمة ووفاء  
يسعى بها الشرفاء وأحنفاء  
حق عليك وحرمة وقصاء  
سمحاً تطوف يحوطك السُّمَحَاءُ  
والكائنات هداية وولاء  
خللا عليها رونق وبهاء  
هل بعد ذلك في الوجود ثناء؟

دُهْمٌ وَكُدْرٌ بالنفوس صفاء  
واهتزت الدنيا وغاض الماء  
في قبره والسدرة العصماء  
بمحمد أركانها النَّصْرَاءُ  
وتطيب من آبائها الأبناء  
في بيتكم واخضرت الغبراء  
حتى التقى الخُصَاءُ وَالشُّرَفَاءُ  
عبق يجوز عليكمم وضاء  
في القول لا غرض ولا أهواء  
شرفا وكم شرفت به الأسماء

وإمارة للحج قد وُلِّيَتْهَا  
لما سمعت نداء ربك لم يضق  
وقِيَّتَ للدين الحنيف فريضة  
وقضيت لله الحقوق وللثَّقَى  
وسعيت بالبيت الحرام مجللاً  
ومشيت بالإسلام والدنيا تُثْقَى  
ولبست من خلل الخشوع معي التُّقَى  
أثني عليك الدين والدنيا معا  
ومنها:

يا يوم عاشوراء فيك تقوضت  
لما «الحسين» نعوه قامت ضجة  
وبكته «فاطمة» وناح «المصطفى»  
وفخرت بالإسلام لما رَطَّطَتْ  
بيت النبوة أنتم أبنائوه  
زكت الفروع وأورقت بأصولها  
لما نُعِيَتْ دعاك جدك في الثرى  
وطويتما والظهر في بُرْدِيكَمَا  
أقسمت أني لم أكن متحزبا  
إن قمت قبطيناً لأمدح مسلماً

وعلى الرغم من قبضته التي أعلنها في البيت الأخير إلا أن  
العواطف الدينية الإسلامية تجلت في القصيدة كلها. وهو يقسم أنه فيما  
قاله من مدح للشريف الرضى، وللمصطفى وليت النبوة؛ لم يكن مدفوعاً  
بدافع مصلحة ذاتية ولا منتظراً جزاء ولا شكوراً، وإنما كان مدفوعاً بنوع  
من العاطفة والشعور العميق الممتليء بالحب.

## خاتمة

أنتهينا الآن من دراستنا للأدب القبطي. ويمكننا أن نقول إن النصوص الأدبية التي صادفناها من بدء ظهور الأدب على يد ابن بطريق إلى نهاية العصر العثماني كانت من الأدب الديني الذي يهدف إلى خدمة المعتقدات المسيحية بتمجيد الله وتقديسه، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق، والتنويه بالأعياد القبطية.

ولما قامت النهضة المصرية اتسعت دائرة الأجب القبطي، وتشعبت أغراضه، وتنوعت أهدافه داخل الإطار القبطي، وفي حدود المصالح القبطية. فكانت مهمته الأولى خدمة أبناء الطائفة في شتى الميادين، والعمل على بناء مجتمع قبطي، قوي الدعائم، متين القوائم.

وكانت الصحف اليومية القبطية مجالاً واسعاً لكتاب الأقباط وشعرائهم ومفكريهم، فأكثروا من كتابة المقالات، ونظم القصائد على نحو ما مر بنا. وقد كانت الفترة التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ غنية جداً بالأدب القبطي، فزخرت بعدد وافر من شعراء القبط وكتابهم، كما زخرت بعدد من دعاة الإصلاح القبطي.

\*\*\*

وبعد ثورة سنة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق شيئاً فشيئاً. فأختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة، والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني. وأتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام بعد أن أتحدت الأغراض، وتوحدت الاتجاهات.

وكذلك أخذت دعوة الشعراء والكتاب إلى إنشاء المدارس وتشجيع التعليم والحض على طلب العلم تفقد أهميتها بعد أن أقبل الناس من كل صوب على طلب العلم من تلقاء أنفسهم، وبعد أن كثرت المدارس كثرة هائلة.

ولم يبق من الأدب القبطي إلا الأدب الديني، وتقترن به عادة الدعوة إلى البر بالفقراء والمحتاجين، وذلك لأن الترغيب في الإحسان ركن من أركان الأدب الديني.

\*\*\*

وكان الشعر القبطي الذي نظم في القومية الفرعونية يستند إلى عاطفة القرابة وصلة الرحم التي تربط الأبناء بالآباء والأجداد. ولم يكن أمام الأقباط من تراث يفخرون به سوى التراث الفرعوني.

أما الشعراء المسلمون الذين تغنوا بالآثار الفرعونية فلم يحملوا بين جوانحهم تلك العواطف الحارة التي يحملها شعراء الأقباط، وذلك لأن الأمجاد الإسلامية كانت تجذبهم إليها بقوة، والتغني بعظماء المسلمين

كان مستوليا على عواطفهم. ولا يمكن أن يجمع الإنسان بين عاطفتين مختلفتين في موضوع واحد: عاطفة فرعونية وعاطفة إسلامية. ويلاحظ أن اختلاف الأقباط عن أجدادهم من الناحية الدينية لم يؤثر في شعورهم بصلة القرابة التي تربط بين الأبناء والآباء.

\*\*\*

وإذا نظرنا إلى مرثي الأقباط لعظمائهم لاحظنا أن هذه المرثي تختلط دائما بالدموع، وينبعث منها صوت البكاء والعيول؛ لأن الأقباط أقلية، وتعويض خسارتهم في هذا العظيم قد يكون متعذراً، فهم يجدون فيه عوناً وحماية لهم ورعاية لمصالحهم. فبهذا الشعور يرثون عظماءهم، وينوون بخدماتهم التي أدوها لأبناء طائفتهم.

ويمتاز الأدب القبطي بوجه عام بجودة الأساليب، ومتانة التراكيب. فهو أدب عربي متين، يستمد صره وأساليبه من الأدب العربي، ويقوم على الثقافة العربية، ويتأثر أحياناً بالروح الإسلامية.

ويمتاز كذلك بصدق العواطف، وتدفق المشاعر، وتوقد الاحاسيس فهو بعيد عن التكلف كل البعد، إذ هو انعكاس لمشاعر الأقباط، وتصوير لما تنطوي عليه جوانحهم من أفراح وأحزان وآمال.

## بعض شعراء الأقباط

## ” تادرس وهبي ” ١٨٦٠-١٩٣٤

ولد تادرس وهبي بحارة زويلة بمدينة القاهرة عام ١٨٦٠. وفي الخامسة من عمره ألتحق بمدرسة الأرمين بدرب الجينية بحي الأزبكية فتلقى فيها مبادئ اللغة الفرنسية ودرس اللغة الأرمنية. وفي العاشرة من عمره ألتحق بمدرسة الأقباط فتعلم فيها اللغتين العربية والإنجليزية. ثم تقدم للامتحان النهائي وكان يرأس لجنة الأمتحان رفاة رافع الطهطاوي. قالت صحيفة الوقائع المصرية بالعدد ٤٤٦ في ٥-٣-١٨٧٢ «صار أفتتاح الأمتحان الذي ميز فيه تادرس أفندي وهبي بين الأقران، وأشير إليه فيه بالبنان. وكان أمتحان هذا التلميذ في اللغة العربية والمنطق والبيان، واللغة الفرنسية والإنجليزية، والهندسة واللغة الطليانية فأحسن في كل هذه الإجابة، وظهرت عليه إشارات النجابة.» وكان رئيس لجنة الأمتحان رفاة رافع الطهطاوي ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس».

وبعد أن أدى هذا الأمتحان تعين مترجماً بقلم الترجمة بنظارة المعارف، وألتحق بالجامع الأزهر ليأخذ بخط وافر من علوم اللغة العربية. فحفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الحديث والفقه. ونشر مقالات وقصائد بمجلة روضة المدارس. ثم ترك خدمة الحكومة وأشتغل بالتدريس في مدرسة الأقباط ثم عين ناظراً لها وبقي إلى ١٩١٦ حيث أعتزل العمل بتلك المدرسة.

وله مؤلفات كثيرة مطبوعة نذكر منها:

- ١- التحفة الوهبي في تقريب اللغة الفرنسية.
- ٢- الأثر الجليل في رثاء إسماعيل.
- ٣- الأثر النفيس في تاريخ بطرس الأكبر ومحاكمة الكسيس.
- ٤- عنوان التوفيق في قصو يوسف الصديق.
- ٥- الخلاصة الذهبية في اللغة العربية.
- ٦- مرآة الظرف في فن الصرف.
- ٧- رواية تليماك.
- ٨- كتاب في اللغة القبطية.

\*\*\*

وأمتاز أسلوب تادرس وهبي بكثرة ما فيه من المحسنات اللفظية ولا سيما الأقتباس من القرآن الكريم. مثال ذلك قوله على لسان الكسيس<sup>(١)</sup>:

«ولقد تجاوزت حدود الأدب في ميدان السيئات كراً وفراً.  
وأرهقني كل ذي أرب من أولياء السوء طغياناً وكفراً. فلو كنت أويت إلى

---

(١) الأثر النفيس ص ٩٧ ط بولاق سنة ١٩٠٤.

ركن ركين لما وقفت اليوم موقف المرتاب، ولما أوشكت أن أذبح بغير  
سكين ولكن أجل كتاب».

«وهذه قرينتك التي جعلتها مناط آمالك، وأعضاء أسرتك يتقلبون  
على الجمر، تقول في ولدك ما قال مالك في مضار الخمر. ولعمري إنك  
لو علمت ما أنا فيه في سري ونجواي لأسيت فؤادي الملموم، ولأيقنت يا  
مولاي بأن الكسيس مظلوم وأي مظلوم. ولسوف تكاشفك الأيام بكل  
سر مضمّر فلا يبقى لك لسان صدق في الآخرين. فيا أبت أفعل ما تؤمر  
ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

وقال على لسان بطرس الأكبر «... ومن ثم تعلم أنني لو أبقيت  
عليه لكانت له في ارتكاب السيئات اليد الطولى واني لفي شك منه  
مريب. فلا تؤاخذني إن نبذت رجاءك في هذه المسألة التي نسج فيها مع  
سواه من الأغبياء على أقبح منوال، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما  
لهم من دونه من وال».

\*\*\*

وكان تادرس وهبي في مقدمة الكتاب الذين تغنوا بأمجاد الفراعنة.  
فمن ذلك قوله.

«إن لمصر في التاريخ لشأناً دونه الفرقدان، وفخرأ يرويه عنها من  
أبناء الزمان قاص ودان. لأنها البقعة المباركة التي ضربت فيها سرادقات  
العمار، والكعبة التي كان بها للطائفين أعمار. ولكم يؤمها الآن حريص

من العلماء على مشاهدة آثار القدماء فيتهيب أني جاء تلقاء أبي الحجاج  
والهرمين تهيب جماعة الحجاج ساعة زيارة الحرمين».

\*\*\*

وقد نظم تادرس وهبي كثيراً من الأناشيد الدينية التي ظلت ترتل في  
الكنائس مدة طويلة. ومن الأناشيد التي نظمها ليرتلها طلبة مدرسة  
الأقباط بمناسبة الذكرى الأولى لمقتل بطرس غالي سنة ١٩١١:

إلام نحاول طول البقاء  
فواحر قلباه حُمَّ القضاء  
وتنشب فينا سهام المنون  
وعم البلاء فأدمى العيون  
بفقد الرئيس دفنا الفخار  
ةوكان لدينا المكين الأمين

\*\*\*

فياراثيا هام في كل واد  
ووال البكا من صميم الفؤاد  
نَعَاءِ الوَوزِيرِ الخَطِيرِ  
فإن المصاب به مستطير  
وعج إن مررت بقبر الحبيب  
دعوناه ألفا فلم لا يجيب؟  
لقد طال منه زمان السكوت  
به الويل قد عمنا والشور  
أرضتكَ بعد القصور القبور  
على يوم نكتبه قد مر عام  
فيهذا الوَوزِيرِ الهمام

\*\*\*

أما والذي جر فينا الزمان  
فأني يُرَجَى المريد الأمان  
لقد أزفت بعدك الآرافات  
ومن عاش مات ومن مات فات  
وما من مَرَدٍّ لما قد أراد  
بك أستأثر الله رب الجلال

لأنك جاهدت خير الجهاد  
إله كريم رءوف رحيم  
يذكرنا بالفقيد العظيم

وقد كنت فينا أبر الفعال  
أمد عليك ظلال الجنان  
ولا زال فضلك في كل آن

\*\*\*

وقال في الذكرى السنوية الأولى لوفاة بطرس غالي سنة ١٩١١:

وقد أشتد ساعد الحدثان  
فكأنما خصمان يختصمان  
فأسغنا ما ليس في الإمكان  
وهو ثبت الجنان رسل العنان  
ولتذرنا ما بين ناع وعان  
برعمسيس أو أزور تازان  
في اغتيال النفوس كالأفعوان

من مجيرى من جور هذا الزمان  
كل يوم يجرح حربا عوانا  
جرعنا خطوبه الصبر مُرًا  
فلكم جد بالقرون فبادت  
فلترعنا بما تشاء الليالي  
سل أبا الهول عن زمان تولي  
وأعد نظرة فهذى شَعُوبٌ

\*\*\*

فاندباه أيها الثقلان  
من يد قوضت بناء الأمان  
إذ هما أوجدا صنوان  
بات مشوى لمأثرات حسان

غدرت بالوزير بطرس غالي  
عاجلته يد الزمان فتبت  
قد دفناه والعلامة منذ عام  
فلنعدد حلاه فوق ضريح

وخلال عنوانها الفضل والفضل ملاك المعروف والإحسان

قد روى ما رواه عن لقمان

ولنفاخر به عليمًا حكيمًا

ولنعز العلياء فيمن فقدنا

ولتعز الدنيا بني الإنسان

\*\*

\* رب كن لي فيما أحاول وأحلل  
يا خليلي لا تلوما محبا  
واذكرا فضله وإن جل شأننا  
ليس يغني السلوان عني شيئاً  
أنا أرثي ولو رآني راء  
مات من أعظم المصيبة فيه  
وبكت من بعد ذا عين شمس  
وغدا النيل راثياً لعلاه  
فلتذب حسرة عليه القوافي  
ولأسود بيض الصحائف حتى  
ولأردد ذكراه حتى رأني  
ولأقلد جيد المراثي عليه  
وغير أني هيهات أوفيه حقاً  
أجزل الله أجره وحباه  
وسلام عليه يسرى برها

حين أرثيه عقدة من لساني  
مع فرط الأسي الذي تكتمان  
ودعاني أشكو الزمان وشاني  
قضى الأمر فيه تستفيان  
نضو حزن ولوعة لراثني  
من بتي الملك كل قاص ودان  
ونعته منفيس والهرمان  
مستثيراً لواعج الأشجان  
ولتعان الأسي عليه المعاني  
أستمد المداد من أجفاني  
من كفات الرفات في أكفاني  
من قريضي قلائد العقيان  
ولو أني أنتحلت شعر ابن هاني  
رجمة منه في رياض الجنان  
ه نسيم معطر الأردنان

\*\*

\* يا لقومي وقد دجا ليل خطب  
كان للنازعين فيه إلى الشـ  
أكبرته الأهواء ما أنزل

بين آل الإنجيل والفرقان  
رَّ كما يعلم الإله يدان  
الله بهما من سلطان

كل ندب على الهدى معوان  
ولنشيد دعائم العمران  
بمراعاة شرطه أخوان  
من شئون الدين للديان

فليوال الإرشاد والنصح فينا  
ولنفذ النزاع، والصلح خير  
ولنمکن عهد الإخاء وأولى  
ولندع كل ما أجد خلافاً

\*\*

وقال مهنتاً بطرس غالي حينما تولى رئاسة الوزارة سنة ١٩٠٨:

والشيء بالشيء يذكر  
على الرئاسة أقدر  
حاز الفخار المؤزر  
أن المجتهد ميسر  
عليك ما شاء أنكر  
صار الوزير الأكبر

في سلاله مينا  
لقد رآك الخديو  
فكنت خير وزير  
فأستخدم الجند وأعلم  
وأقرع صفاة حسود  
بشراه بطرس مصر

\*\*\*

ولما مات تادرس وهي سنة ١٩٣٤ رثاه عزيز بشاي بقصيدة مطلعها:

\*\*

وعهد شبابي الغض والمرح الجم  
وكنت دواء القلب والروح والجسم  
تكفكف من دمعي وتدفع من هممي  
إذا حل ذو حرب وأجبر ذو سلم

\* زميل الصبا ودعت فيك صابتي  
لقد كنت لي عند الملمة شافيا  
دعوتك في الدنيل فليت صاغراً  
وقياً إذا قل الوفاء وصاحباً

## إسكندر قزمان

وله قد أنشدها في نادي المسيحيين سنة ١٩١١:

لو كنت تدري غايتي ومرامي  
وأخترت ما خالفني في حبه  
أتلومني أني أنبتُ وقد غدا  
وتهش في وجه الضلال وجيشه  
من كل من تخذ الشيبية عذره  
وجدت به شهواته طبعاً لأن  
لامتد بينك والملام مرامي  
وعدلت من عدلي إلى إكرامي  
شرع المهيمن قبلتي وإمامي؟  
فيما عظيم البطش والإقدام  
في اللهو والإغراق في الآثام  
يطأ الثرى والدين بالأقدام

\*\*\*

أتلومني أني أتصلت بفتية  
ضنوا بوقت ينقضى هذراً على الـ  
ونضوا على جند التجارب والهوى  
عرفوا الشيبية أنها زمن التـ  
ومخافة الرحمن مرقاة العلا  
ومن أتقى رب السماء سما بأمد  
نذروا التعفف عن خنى وحرام؟  
حانات في لهو ورشف مدام  
سيفاً من الصلوات غير كهام<sup>(١)</sup>  
أهب للمعالي لا زمان غرام  
حقاً وما الدنيا بدار مقام  
ته لاعمال تدوم عظام

\*\*\*

يا فتية النادي أذكروا الأقباط من  
أقرامكم ذكرى ذوي الأرحام

(١) السيف الكهام: السيف الذي لا يقطع، والمراد أنهم يديمون الصلوات.

خل ولكن في أسدّ كلام  
كسحاب صيف راحل وجهام  
ب تناولت تضميد جرح دامي  
منا على رحب ورعى ذمام

\*\*\*

هبوا فهل ترجى العلا لنيام  
غير الفتى ذي اليقظة المقدم  
وتخيروا ليناه خير دعام  
رأت الفضيلة أس كل نظام  
أو يهدمون رواسي الأعلام  
عنه الجدود بغابر الأيام  
وبعصركم تبدو بدور تمام

\*\*\*

وفخاركم بالله ذي الإنعام  
ة سلامة الأبواب والأجسام  
وسمّوها حارت ذوو الأفهام  
هذا التقدير المنعم العلام؟

\*\*\*

من أروع وسميدع وهمام

وأدعوهم بأحب ما يدعى به  
فمن الكلام محبب لكنه  
ومن الكلام مسدد كيد الطيب  
وقولوا لهم هيا بني الام أنزلوا

يا طالبي العلياء طال منامكم  
هيهات يسلم من فخاخ شبابه  
جدوا لما فيه علاء يلاذكم  
وأجل ما يعلي البلاد شبيبة  
جاءت تهدم ما عليها ينبنى  
أخلق بكم أن تبلغوا ما قصرت  
فبعصرهم بدت العلوم أهلة

فخروا بآيس ولم يك منعما  
فهو الذي أولاكم بعد الحيا  
وفداكم بطريقة في كنهها  
هلا عرفتم قدر نسبتكم إلى

يا فتية النادي ومن لاذوا به

بقيت لدي نصيحة شهدت لصحتها العلوم وخبرة الأعوام

ولى اليقين بأنكم مني بها  
لكننا نحتاج لذكري ولو  
لا يرفعن لواءكم إلا شبا  
راض اعتدال الدين فطرة سنهم  
نلتهم مناكم من هدى أقرانكم  
الله أسأل أن يوفقكم لما  
ولمثلته يبيقيكم في صحة  
ما أشرقت شمس الصلاح وفي حيننا

وبكل خير أعرف الأنام  
كانت معارفنا كبحر طامي  
ب منكم أهل أعتدال سامي  
فتملكوا معه الهدى بزمام  
ومع الهدى أجراً وحسن ختام  
فيه رضاه لكم بهذا العام  
والعيش في ثغر لكم بسام  
حيها الشفاء لذي ضنى وسقام

وقال في احتفال مدرسة جامعة المحبة للبنات سنة  
١٩١٣/١٠/١٧:

هل ذا نشيدم أم ترنيم أملاك؟  
وهل حباننا بهذا الوشى مقتدر؟  
إن فقت يا ابنة رمسيس فلا عجب  
كم شدت في مصر صرحاً للرقى وما  
لئن رأيت فتاة الغرب عنك علت  
كم مبطء نال بالإدمان غايته  
وعؤود مجدم ميسور بأكمله  
جدى فلو باعتدال دمت راقية  
جدى افاد بك المولى وأولادك  
فكم عركت بجنيك الأذى ولكم

وذا خطابك أو ما الله أملاك؟  
من حاكة الغرب أم ذا صنع يمتاك؟  
عن أمهاتك في طيبا وآباك  
علياء غيرك إلا بنت عليك  
جداً وفاقت مزايها مزايك  
فعز مسعاه عن نيل وإدراك  
لمن على المنهج المأمون رباك  
لسوف تحسد بنت الغرب مرقاك  
فما أحقك أن ترقى وأولاك  
نزجي الأسى نحن لكن فيه نلحاك

وكم صبرت على الهجران مغضية  
وزدتنا يوم فحصك تر  
مهلا فما أستدعت الترحاب هممتنا  
بل لو غدا الباب عنا اليوم ممتعاً  
حتى نرى عن يقين هل هديت إلى  
إن لم تكن بلغت ذا الحد غيرتنا  
أليس عاتقك الواهي إليه يعو  
لله أم عطوف في اسمها نظمت  
كم مشبه لك فاضت بالمحبة كاب  
لكنَّ نسبة هذى الأم «جامعة»  
تغذو عقول يتامانا بلا عوض  
حشاك ما عشت أن تنسى مودتها  
قد زار اليوم قوم لا يطيب لهم  
يروقهم أن يروك اليوم فائزة  
لحسن مرآك يصبو العوض جهدهم  
لكن محبيك حقاً ليس يشغلهم  
ولا يشينك نقص المال عندهم  
فخير قومك من راسوك فاضلة  
حاجات عصرك لا تحصى كفاك إذا  
وخير حاجك نفعاً حسن تربية  
هل هو قومي سبق أختك في  
صبراً وإن يك مطوباً على جزع  
صبراً عسى نهضة لاحت طلائعها  
صبراً عسى نظرة مالغيث نرقبها

\*\*\*

لم تسألني لم لا بلا ذنب هجرناك  
حيباً ونحن من الهجرام زدناك  
بل حقه لك منا حيث نلقاك  
ما عابنا السمع من طاق وشباك  
أجلَ قصد له الرحمن أحياك  
كنا ألد عدا مصر وأعداك  
د حمل أعبائنا يوماً وأعباك  
ما قد تفرق في مألوف أسماك  
سنة أخت وأم نحو قرياك  
من «المحبة» معنى فاق معناك  
وما تعدى غذا أبنائك ثدياك  
فلمست ممن يعوق الأم حاشا  
مثل التحدث في مأنوس أبنائك  
كما يروقك يوماً فوز أبنائك  
وربما فيه بلواهم وبلواك  
اوصاف حسنك عن آيات حسنك  
لكن يشينك نقص في سجايك  
لا من غناك أرادوا أو محياك  
فازت بأنفعها في مصر كفاك  
لمن رزقت وتدبير لمغناك  
نعمى المعارف فأهتموا بنعماك  
عسى بعقباه نجزي حسن عقباك  
تسري فيحمد بالإصلاح مسراك

سراة قومي ارفعوا شأن الفتاة نتك  
فتانكم أصبحت والحاج تعوزها  
فإن عهدتم بإصلاح معاهدها  
لله كلية كاد الفقير بما  
فليت أيديكم يوم النداء لها  
لورد لي زمني عهد الشيبية يو  
زان جيدك منى كل جوهرة  
فيا شباب تولوا نصر أختكم  
لا ترتجوا الأجر من أيدي الأنام ولو  
قدكم جزاء ضمير مادح ورضى  
وهو الجزاء الذي ما أنفك يؤثره

ممن بهم نيظت الآمال ترعاك  
فوها مصائب منها قد بكى الباكي  
تحكي الأسيرة قد شدت بأشراك  
تنشط وتصيح مناراً وسط أحلاك  
له يشيد منها كل مدماك  
تندى فتنسخ ذكرى كل إمساك  
م الشعر دأبى وتحلو فيه ذكراك  
عصماء يبدي سناها صدق دعواك  
كلاكما فرع مصر الزاهر الزاكي  
كانت نصائحكم أقطاب أفلاك  
مولى درى حجة المشكو والشاكي

ذو عفة وحجى سام وإدراك

وقال تحت عنوان «الأم الفاضلة» سنة ١٩١٢ :

يا طلعة ليس لي في غيرها أرب  
سناك لا في الضحى شمس تقاس به  
حكى البهاء الذي عاد الكليم به  
حكاء طهراً ولكن ذا تقرب به  
علام أثنى وهل تحصى صفاتك أو  
على حنانك أم إنكار نفسك أم  
على اصطبار وتسليم ومغفرة  
على السهاد وعين الكل مغمضة  
على أعتناء وتدبير وتريية

لولاك كما كان لي أنس ولا طرب  
عندي ولا في الدجى بدر ولا شهب  
من قمة الطور قدما وهو منتصب  
عيني وناظر نور الطور يرتعب  
يفي الثناء سجايا كلها عجب  
على يد لا تداني جودها السحب  
على التلطف في إرضاء من غضبوا  
على ظهور الرضى والقلب مضطرب  
على العزاء لمن خابوا ومن نكبوا

على أهداء عقوق كم بسطت له  
فصار براً ولكن في الشباب قضى  
الله حسبك يا ذات الحنان فلن  
لله حبك ما أصفى موارده  
لو كان في المهد هذا الحب خير حمى  
نحو الداية كم دارت بمجتمع  
لكن قلبي الذي يأبى الهدى وإذا  
كم كاد منصرفاً بي عن هداه وكا  
مذكتُ طفلاً تعلمتُ التيسم من  
فكرري اليوم هذا التيسم كي  
ودمتِ فينا مفدأةً مكرمةً

كيفك ضارعة والدمع ينسكب  
من بعد ما تك فيه اللطف والأدب  
يضيع ما كان عند الله يحتسب  
والحب في الناس ممذوق ومنقلب  
وهو الذي دام يهديني لما يجب  
رحى الحياة ودلت أنك القُطْبُ  
للشر تجذبه الأهواء يجذب  
د جبل بودك بالعصيان ينقضب  
مراكِ باسمه لي حين أكتب  
تحى فؤاداً لئيل الصبح رتقب  
يُهدى إليك الثنا ماكرتِ الحقب

وقال يرثي عطية وهبي رئيس جمعية التوفيق القبطية سنة ١٩١٣ :

تبكي الشبية قد أصيب إمامها  
سل فتية التوفيق كيف توفقت  
تبكي الأسيفة أمة الأقباط من  
آماله انقطعت نهار وفاته  
ما تلك أول نكبة نكبت بها  
فكم ابتلتها النائبات بمثلها  
أسفاً عليها أمة قد فوجئت

وتنكست لمصابه أعلامها  
ف عهدته وتحققت أحلامها  
ثكلته وهو نصيرها وغلامها  
وبدى الوفاة تواصلت آلامها  
ولئن تلظى في القلوب ضرامها  
كم مثله أخنى عليه حمامها  
برحيل نفس يستحب مقامها

\*\*

أكذا يغيب البدر ليل تمامه  
ويصاد من أحيائها ضرغامها

وهل السما تهوى كذا أجرامها  
يا مبكياً عين الرياسة بعده  
من للرياسة يوم تعترك الشئو  
من ذا يقود إلى الصواب يراعهم  
إلا نصائحك التي أعتصموا بها  
فأرحل كما رحل الربيع مخلفاً

والأرض تهبط في الشرة أعلامها  
وله عنا بعد الجموح زمامها  
ن وبالكياسة يرتجى إبرامها  
كيلا تطيش من القسى سهامها  
وجرت على سنن الهدى أحكامها  
خِدماً يفوح من الزمان خزامها

## ”نصر لوزا الأسيوطي” ١٨٨٧

يعتبر نصر لوزا الأسيوطي أعظم شعراء الطائفة القبطية، وأبرع من نظم القريض من أبناء النصارى في الديار المصرية. وهو لسان المسيحيين الناطق، وقلبهم الخافق، والمترجم عن آمالهم، والمتغني بمفاخر أسلافهم، والمعبر عن مشاعرهم الدينية وعواطفهم المسيحية، وعقائدهم النصرانية. والداعي إلى تخفيف آلام فقرائهم والإحسان إلى بؤسائهم. ولو كان الأقباط يهتمون بالأدب لكتبوا شعره بماء الذهب ولعلقوه على الجدران، ولزيناوا به الحيطان. ولجمعوا له الجوع، وأوقدوا له الشموع، فهو يسوع شعرهم الذي لا يباري، وينبوع أدبهم وإنه لا يجارى. ولو تبرع كل قبطي بنصف مليم لأمكن إخراج ديوانه في أحسن تقويم.

ولد نصر لوزا بمدينة أسيوط سنة ١٨٨٧ م ودرس بكلية الأمريكان بها وأنتهى من دراسته سنة ١٩١٠ وكانت العلوم كلها تدرس باللغة الإنجليزية ما عدا اللغة العربية. وقد نشأ منذ صباه ميالا إلى الشعر فقرأ بعض دواوين كبار الشعراء القدماء. وحفظ لامية العجم للطغرائي هو في العاشرة من عمره.

ثم حضر إلى مدينة القاهرة وأشتغل محرراً بصحيفة النظام لصاحبها محمد مسعود ولكنه لم يبق بها سوى شهر قلائل إذ أنه أصيب بمرض اضطره إلى العودة إلى أسيوط حيث أشتغل مدرساً للغة العربية.

وفي سنة ١٩٣٦ عين بتفتيش إنتاج أسيوط وبقي إلى أن بلغ الستين من عمره سنة ١٩٤٧ حيث ترك خدمة الحكومة.

\*\*\*

وقد أصيب الشاعر بوفاة أمه سنة ١٩٤١ فرثاها بقصيدة طويلة جاء فيها:

وأشكو لمن شَفَّنِي فيك من غَمِّ  
إذا مَسَّنِي همٌّ تمزَّق من همِّ  
لأفتك بالأحشاء من نافع السمِّ  
إلى تردُّ منى إلى الجسم  
ليعهد منك البعد «نصر» ولا «فهمي»  
من الوجد والبلوى غريقين يمِّ؟!  
فما كان منك البعد إلا على الرغم  
عليك نجيعاً من محاجرنا يهمي  
بظلك لم نشعر صغيرين باليتم  
إلا وحيدك الحبيبين في الحلم  
ولم تطربي في العيش كاسميها لاسم  
فنلت المنى محمودة الجهد والعزم  
مسالك بيضا في حوادثها الدُّهم

أقول لمنْ أمي سواك أيا أمي  
ومن لي بقلب مثل قلبك مشفق  
جرعتُ عليك الحزن صابا وإنه  
لقد مت من شوق فهل منك نظرة  
أطلت على ابنيك البعاد ولم يكن  
أهانَ علي اليوم أن تتركيهما  
على الرغم من قلبي إليك عتابه  
سلى كبدينا من هوّى كيف ذابتا  
من الأب ذقنا اليتيم قدما وإنما  
مولهة إن تحلمي الليل لا ترى  
فلم ينقطع ذكراهما عنك لحظة  
بذلت قصارى العزم جهداً عليهما  
وعبّدت والأيام حالكة الدجى

ومثلتِ أدوارَ الأمومة كلها

مناظر عطفٍ لممٍ يُمَثَّلْنَ من أمّ

\*\*\*

مضى حافلاً بالخير عمرُك طائلاً

مبارك ما بينَ البداءةِ والختمِ

صوتِ إلى الإيمان والزهد ما انقضى

لك العمرُ إلا في الصلاةِ وفي الصومِ

تنعمتِ فردوساً بفردوس ربنا

بما شئت من ربحٍ مقيمٍ ومن غنمِ

وعوّضتِ عن وهمِ الحياة حقيقة

غنيتِ بها في الخلدِ عن عالم الوهمِ

نظمتُ دماء القلبِ فيك مراثياً

بأمثالها صُنَّتْ يَدُ النثرِ والنَّظْمِ

عليك سلام الله أمّاه مازها

نهار بشمسٍ أودجا الليل بالنَّجْمِ

وهذه القصيدة تمتاز بصدق العاطفة وخالص الوفاء والبر وحب

الإبن لأمه التي سهرت على تربيته بعد وفاة والده.

وفي سنة ١٩٤٥ أصيب الشاعر بوفاة زوجته «نرجس» فبكى

عليها بكاءً مرّاً، ونظم في رثائها جملة قصائد، منها قصيدة تحت عنوان

«وازوجتاه» نشرها بمناسبة مرور عام على وفاتها، ومما جاء فيها:

عودي لزوجك بعد طول فراقٍ

يخمدُ سعير فؤاده المشتاق

ما أستطعت حمل نواك باللُّقياً فهل

أستطيعُ أحمله بغير ثلاثٍ!؟

الخطبُ أزهقني فكدتُ وجيعة

وجوى أروحٍ ضحية الإرهاقِ

والهفَ قلبي إذا سبقت ولم أكن

لك اُنسى الأيام بالسَّباقِ

تمضي السنون وجرح قلبي المبتلى

بنواك مُنْفَعِرٌ كما هو باق

ما مدمعي ماء يسيل عليك بل

هو من خشائِ، من الدم المَهْرَاقِ

صور الحياة جحدتُ إلا صورةً

لك في الحشا منى وفي الأحداقِ

سَمُّ المصابِ سرى بجسمي ماله

إلا ابتسامة فيك من تريقِ

أترك عالمة بحالي بعد ما  
بالله قومي أدركيني إنني  
أثنين ما كنا ولكن واحدا  
ذُقا المنى والأنس والتعمى به  
حتى تفرق شملنا والهفتى  
ما أنت يا قلبي أتخفق بعدما  
حتم بالشكوى تدق وبالأسى  
أبكي شبابك مثل روض ناضر  
أبكي خلائق نادرات فيك قد  
أبكي محاسن فيك من قمر الدجى  
حزت النفيسين اللذين براهما  
حملوا الكمال مجسما والحسن إذ  
وتساءلوا هل غيبت شمس الهدى  
سحقاً أيا عام الأسى لك غلنتي  
هل أنت عام أم جحيم أن رحي  
أم أنت صاعقة نزلت بحادث  
أم أنت طم حوادث زخاوة  
أم أنت عزيرل لروحي قابض  
أبحد أحزاني الزمان ونكتي  
فأبكي بكائي يا كواكب وأندبي  
يا أم «ناجي» أو «سمير» بنوك في  
يا خير أم هل بطوقك تركهم  
يا طول شوق بنيك محرومين يا  
يا طول شوقهم لصدرك حانياً

عجز الطيب بها وحر الرأقي؟!  
بضنى النوى في آخر الأرماق  
عشنا بظل محبة ووفاق  
من عذب كأس الغرام دهاق  
بغراب شؤم بالنوى نعاق  
أودي الحام يالفك الخفاق  
لا كنت بعد الحب بالدقاق  
بشذا المنى يا نرجس عباق  
كن المثال لقدرة الخلاق  
أزهى سناً في الهدى والأشراق  
باريك من خلق ومن أخلاق  
حملوك في نعش على الأعناق  
صبحاً من التواري في أطباق  
في نرجسي بقضائك السحاق  
نار تدور عليّ بالإحراق؟  
جلل عليّ مروع صعاق؟  
تطغي عليّ بلجة الإغراق؟  
بيد الشقاء معاول الإزهاق  
من غير حد ترتجى ونطاق  
قمري أصيب من الردى بمحاق  
حلم من الأحداث غير مطاق  
عانين ما شبوا عن الأطواق  
أماه منك لقبله وعناق  
بالحب والتدليل والإشفاق

بأجل خالدة وخير تلاق  
زمن بغى مفعم ونفاق  
من علقم البلوى سقاني الساقى  
عمري الفجعة أيما إخلاق  
لك كان للمعروف من إغداق  
بك في الفرادس لي أعز لحاق  
وأبشك المأثور من أشواقى؟

لاقيت مريم أخت مريم فأنعمي  
يُعرى الصراحة والهدى أستمسكت في  
من كوثر الخلد أحتسيت وإنما  
جددت في الخلد الحياة وأخلفت  
لك أغدق الله النعيم جزاء ما  
هيئات أرضي الصبر لولا أننى  
فمتى أرك فتستقر خواطري

والقصيدة كلها تزخر بالحزن وتفيض بالأسى وتصور الحالة المؤلمة  
للشاعر، والصدمة الموجهة التي صدمته بوفاة زوجته. فأخذ يبكي وينوح  
ويندب حظه وحظ أولاده الصغار الذين حرموا عطف أمهم وحنانها.  
وأشاد بالذكريات الجميلة، والأيام السعيدة التي مرت بهما، وما كانت  
عليه زوجته من محاسن الأخلاق، وما ساد بينهما من وفاق، وما تمتعا به  
من حياة طيبة قوامها الحب والإخلاص والوفاء.

\*\*\*

وقد أثرت هذه النكبة في صحته فأخذ يشكو مما يعاني من الآلام،  
وما ألم به من الأسقام التي أنحلت جسمه وأنهكت قواه. قال:

أُبْعِيْدُ فِيكَ أَخُوهُمْ  
نِضْوٌ كَخِيَالِ هَيْكَلِهِ  
فقد الأنفاس سوى نفس  
خاض الأهوال طغت بحراً  
مقروح الجفن مسهدُهُ  
لا تعرفه إذ تشهدُهُ  
بزفير الشوق يرددُهُ  
مَرغى الدمع ومزبدُهُ

يوهي الأَجْبَالَ تجلُّدُهُ  
يا رب خلافك يُخْمِدُهُ

حمل الأحداث أخا جلدٍ  
جَمْرٌ في المهجة ليس له  
وقال:

بما يوهي من الظهر الفقارا  
تذوب جوى وتخفق مستثارا  
طغى بركانها العاتي وثارا  
يعزُّ على هواهم أن نضارا  
فيالك روضة حالت قفارا  
ولست كما عهدت ترى الديارا  
وتأبى من سواهم أن تزارا  
وما أحلى حمى الفادي جوارا  
ويخمد نار وجدك والشرارا

دهتك بنات دهرك يا ابن جنبي  
فيالك واهياً لأقل شيء  
أحمال الحمل صبرت حتى  
لقيت الضير من ذكرة حمول  
بكوثر حبهم قد كنت تروي  
فلم ترهم سوى أطياف نوم  
تهيم بزورة في الحلم منهم  
غداً بجوارهم في الخلد تحظي  
يكفكف من عيونك كل دمع

ومنذ أن ماتت زوجته سنة ١٩٤٥ لم يعد الشاعر ينظم إلا في  
الأغراض الدينية كعيد الميلاد، وعيد القيامة، وعيد النيروز. ثلاث قصائد  
ينظمها كل عام في الأغراض المتقدمة وينشرها في مجلة «رسالة  
المحبة».

## مختارات من شعره

- ١ -

قال في الأحتفال السنوي لمقتل بطرس باشا غالي سنة ١٩١٢ :

ما للجموع حيال القبر تزدهم؟ هل ساقها مأرب في ذاك أم قسم؟  
أم ذاك حج، نعم شدوا رحالكم هنا الشهيد وهذا قبره الحرم  
هنا العظيم، هنا «الغالي» الذي شهدت بجل أفعاله الأفراد والأمم  
تمضي العظام ويبقى بعدها أثر كذاك آثارك الأمجاد والشيم  
كم مانت ظهرت من فعله همم وعائش ما له فعل ولا همم  
ميزان كل الملا للحكم منتصب في كفته مقام الناس والقيم  
بعض لهم حسنات يذكرون بها وآخرون لهم من فعلهم ندم  
اليوم نذكر فرداً كلما ذكرت أعماله عنت الأعناق واللمم  
صنيعك الجود فينا غير منكم وهل سناء شعاع الشمس ينكم؟  
متعت في جنة الرحمن فاقض بها حقاً عليك ففيها تصدق الذمم  
عامان مرّاً على الآفاق وانصرما وذكركم لمدى الآباد منتظم  
ذكر كحظ الضحى والشمس طالعة كأنه بين أرباب النهى علم  
حاشا لشعري أن يحصى مناقبه في حصرها يخطيء القرطاس والقلم  
أسست جمعية خيرية وكفى بها فخاراً فمنها تتبع النعم  
كنت السراج وكنا نستضيء به إذا أدلهت أمام الأعين الظلم

نعم الجميل الذي في القلب يتسم  
وصاحب الفضل محبوب ومحترم  
لهذه الناس فوق القبر تلتئم؟  
وللزيارات حق ليس يهتضم  
منك السلام ودمع العين منسجم  
إن كان يعيبك في أركانه الكلم  
من للجياع إذا ما مسهم ألم  
من للحزانى إذا يكون من لهم؟  
وأنت غيث ونار الفقر تضطرم  
تساقطت كثمين اللؤلؤ الحكم  
كم فاض من راحتك الجود والكرم  
إنّا لسان وأيام الزمان فم  
فكيف ضمك لحدّ عَرْضُهُ قَدَمُ؟  
لا الطفل من شر بها ينجو ولا الهرم  
ولو أحاطت بنا الآجام والأكم  
كي يخلب الطرفَ حيناً ثم ينتقم  
أين السلاطين والأبطال أين هم؟  
كذلك المرء بالأفعال يَحْتَكُمُ  
لكلِّ عامٍ مضى من عمره عَدَمُ

يا غالي القدر أوليتَ الجميل لنا  
لم ننس معروفك الميمون طالعه  
الله أكبر ما هذا الضجيج وما  
جاءت إليك لتقضي حق زورته  
يا قبر إن جاءك المشتاق مبتغيًا  
رد السلام سقاك الغيث وابله  
من للمساكين يعطيهم مآربهم  
من للفقير صديق واليتيم أب  
أنت الدواء لداء البؤس تبرئه  
وكنت إن فهت بالأقوال غالية  
كم أمّ بابك محتاج ومبتئس  
يا مُسَيِّغَ البرِّ إحسانا وتكرمة  
كانت تضيق بك الدنيا على سعةٍ  
كأس المنيّة حول الخلقِ دائرةٌ  
وضيغم الموت يعدو ثم يلحقنا  
الدهر كالسيف ييدي ضَوْءَ شَفْرَتِهِ  
أين الملوك الألي سادوا بحزمهم  
مَضَوْا ولم يتركوا إلاّ فعالهم  
والمرء إن عاش في الدنيا بلا أمل

فاعمل لنفسك إن الجسم منصرم  
يا حَبِّذاً من بحبيل الله يعتصم  
من الوداد قلوبا ليس تنفطم  
يتلو الصلاة بها البطريق والخدم  
من هيبة الله مَنْ قد مسَّهُ الصَّمم  
إلى العبادة إذ قد هزها القرم  
هناك كل فؤاد مُطْرِقٌ وِجْم  
بالنيل أو علا في أُفْقِهَا الهرم

جسم الفتى للشرى والنفس خالدة  
الدَّيْنُ أول شيء صان صاحبه  
يا بطرس أمكت جوار الله إن لنا  
هذى كنيسة الغراء زاهرة  
تدوى نواقيسها فيها فيسمعها  
جبريل بالباب والأماك صاغية  
والناس فوق أديم القبر خاشعة  
قارقد فمِصْرُكْ لن تنساك ما رَوَيْتْ

## العلم والبلاد

تليت في حفلة جمعية الراعي الصالح القبطية سنة ١٩١١

يا مصر إنك جنة الأمصار  
يجري بماء كالزلال على الرُبى  
يا مصر إنى قد وهبتُ لكِ الحشأ  
كم قد نظمت لك القريض وإنها  
إنى لأطرب إذ أراك سعيدة  
وأرى بِنِيكَ على السلام تحالفوا  
وأرى لواء العلم يخفق بيننا  
هذى أمانِي الكبارِ وأنها  
يا مصرُ لم يبق الزمان لنا سوى  
الناس تفتخر بالعلوم وبالْمُهَي  
حدث شعوب الأرض عصر سعودنا  
دارت كواكب مجدنا وتحجبت  
العمُرُ يَمْضِي كالخيال وينقضي  
فتمكنوا يا قوم من تخليدها  
هذى حياةُ الخلق سائرة على

يسقيك نيل سَيِّدُ الأَنْهار  
ويفيضُ فيك بَمَسْجِدٍ وَنُضَار  
يا مصرُ حُبُّكَ مذهبي وشعاري  
أشعار ذكرك أحسن الأشعار  
بين البلاد بعزَّةٍ وفخارِ  
وأرى ديارك خيرَ كلِّ ديار  
ويلوح للأوطان والأمصار  
ليست على نيل المنى بكبارِ  
جزء من الآيات والآثار  
وبنوكِ بالأطلال والأحجار  
واليوم نحسد سالف الأعصار  
وكذاك شأن الكوكبِ الدُّوَار  
وتدوم بعداً صفحةُ الأعمار  
بالصالحاتِ وطيبِ الأفكار  
قدَمين من ليل الدُّجى ونهار

فالحر من لم يفتَرِ بنعيمها  
الكون سفرُ علومنا وسطورهُ  
فتأملوا في ذي السطور فإنها  
الشمس تخبر عن بديع فعاله  
والبحر والبرُّ العظيم وما حوى

فنعيمها كدرٌ من الأكدار  
من روضه وجباله وبحاره  
لسُطورُ سفر الواحد القهار  
بجميل ما تُبدي من الأنوار  
من أهل ودفادٍ وقفار

## على سفح الأهرام سنة ١٩١٢

وللنفس شوقٌ نحوها وهيامٌ  
سلامٌ على أهرام مصر سلامٌ  
وحيث مكانٌ ثمَّ ليس يُرامُ  
ولم تذرْها الأهوالُ وهىَ جسامُ  
على رغمِ أنفِ الحادثاتِ دوامُ  
تشامخِ أقوامِ بَنوكِ كِرامُ  
لهم في حمى الذكر الجميلِ ذمامُ  
وإن وقفوا فالنائباتُ قيامُ  
ولم يقتدرْ مثلَ الفراعينِ حامُ  
إلى أن محا نورَ النهارِ ظلامُ  
يُرينا ضياءَ الوقتِ كيفِ يُسامُ  
كأن السكوتَ المستديمِ كلامُ  
أمام من الخر الأَصمِ إمامُ  
لدرسك تلميذ هنا وغلامُ  
ولا كل غيم في السماء جَهاُمُ  
وقد سرنى بين الصخور مَقامُ  
طوى أهلها تحت الرموسِ حمامُ  
وخوفو وأبناءُ العظامِ عظامُ

شخصت إلى الأهرام والقلب خاشع  
فقلت لها عند اللقاء مُرَجَّباً  
علتُ مثلما الجوزاء في الأفق تعتلى  
فلم تَمُخَّها الأجيالُ وهىَ عديدةٌ  
وبات لها بين التواريخ في الورى  
شَمَخَتْ على بطش العصور وهكذا  
فراعنةٌ لم يُنَجِبِ الدهرُ مثلَهُمُ  
إذا جلسوا فالخيرُ يجلس ماثلاً  
فمثل غلاً الأهرام لم يبن يافثُ  
وقفَتْ عليها لا أودُ فراقها  
وبان لنا بدر الدَّجَنَةِ ساطعا  
تعلمت من صمت الحجارةِ عبرةً  
كأنى من فرط المهابةِ عابِدُ  
أفدت أيا أهرام في النصحِ إنى  
فما كل من يُهدي النصيحة ناصح  
وقفنا أجيل الطرف في عرصاتها  
فلله ما أحلى الوقوف بأربع  
تذرت منها منفتاح وجيشه

وجال بفكري رعمسيس وغيره  
إذا ذكروا يوماً أشارت يد العلا  
وإن ذكروا يوماً فإن بمثلهم  
وإن ذكروا يوماً فإن لذكرهم  
وإن ذكروا يوماً فإن قلوبنا  
وإن ذكروا يوماً فإن مديحهم  
وإن ذكروا يوماً فمن فرط مجدهم  
أولئك كانوا للزمان مناره  
فلم تبق إلا في التراب جماجم  
رغام إليه الناس سارت بأسرها  
فكم في دجى الأحداث حي بفعله  
أبا هرمى مصر العريزة إننا  
أنفتخر الأجداد بالعلم والنهى  
فكم وطئت أرضيكما أرجل الملا  
كأن ترى الأهرام تُربُّ مقدس  
يؤمنونه من كل فجّ وجوههم  
يحجون أرضاً أصبحت بك كعبة  
لك الله من فخر لمصر كأنه  
فللنفس يا أهرام مصر كما أرى  
فطمنا النفوس العاثرات عن الهوى  
تمنيت لو طال الوقوف حيالها  
ولو أننى عُيِنْتُ بالقُرب حارساً  
أقول لحادي الإبل أرخ زمامها

فراغنة لم يذمموا ويضاموا  
إليهم وخرت في الوجود لمأم  
بطون نساء العالمين عقام  
سُجود جميع السامعين لِزَام  
تحن إليهم والحنين هيام  
بكل لسان مبدأ وختام  
وهيبتهم صلى الأنام وصاموا  
وها هم بأجواف التراب نيام  
ولم تبق إلا في التراب عظام  
وأصل جميع العالمين رغام  
وكم بين أحياء الحياة رمأم  
أنا ممات في الوجود زوام  
ونحن على طول السنين نُضام؟  
وكم راقهم من ذي الأكام أكأم  
حواليه من كل الشعوب زحام  
عليهم من فرط الحياء لثام  
كأنك بيت للحجيج حرام  
على صدر أسرار الفخار وسام  
إلى سلسبيل المكرمات أوأم  
ولا بد أن يُجدي النفوس فطام  
ليُسعِدنا من ذي العظات مرأم  
تضم حطامي في الفلاة خيام  
وهيهات أن يُرخى لهن زمام

يَسْرَن إِذَا أَبْصَرْتَهُنَّ بِسُرْعَةٍ  
فَلَمَّا هَمَمْنَا بِالْقُفُولِ إِلَى الْحَمَى  
وَأَنْشَدْتَهَا بَعْدَ التَّحِيَّةِ قَائِلًا

كَأَنَّ النَّقَا مَرَّمَى وَهِنَّ سَهَامُ  
شَخَّصْتُ فِي طَيِّ الْفَوَادِ ضِرَامُ  
سَلَامٌ عَلَى أَهْرَامِ مِصْرٍ سَلَامُ

## ”فرنسيس العتر” ١٨٨٢

ولد فرنسيس العتر بدرب الجينية بحي الأزبكية سنة ١٨٨٢ بمنزل والده القمص بطرس العتر. وبعد أن تلقى مبادئ القراءة والكتابة في أحد الكتاتيب درس اللاهوت فحصل على شهادة اللاهوت والفلسفة سنة ١٨٨٦، وأجاد اللغة القبطية إلى جانب اللاتينية والفرنسية.

ثم تردد على حلقات الشيخ محمد عبده التي كان يعقدها مساء كل يوم بالجامع الأزهر وذلك سنة ١٩٠٢.

وأشتغل بالتدريس في عدة مدارس أجنبية. وبدأ ميله إلى نظم الشعر في الأغراض الدينية فنظم كثيراً من الأناشيد والتراتيل التي يترنم بها الأقباط في الكنائس. ومن قوله في مدح الأنبا لوكاس مطران قنا سنة ١٩١٢:

ملاك الربِّ في أفق التهاني  
ينادي بالمسرة والرفاء  
ومنها في مدح المطران المذكور:  
تحلى بالعلوم فكان نورا  
تنزه عن عيوب الحلق طرا  
فحقاً ليس من طين وماء  
إذا أحصوا كواكب في السماء  
مكارمه على الأقباط تحصى

إله العز أعطاه مزايا

فأحرزن السنن من ذا العطاء

ومنها:

كرارة مرقس ازدانت ببدر

زها فيها فأبهر كل راثي

كرارة مرقس ظلت قروناً

تنوح على بنيتها الأوفياء

إلى أن جاءها أنباء لوكاس

فعاد زمان سكان القلاء

أعاد بطهره التقوى فكانت

سراجاً ات يضاهي في الضياء

وأرجع بالنشاط العلم حتى

توارى الجهل في طي الخفاء

فيادار افرحي فرحاً عظيماً

فقد شرفت في هذا المساء

ننعم شرفت يا دار بحجر

يولي شعبه خير الولاء

تناول ذا العظيم وحل فينا

كماء فاض في أرض خلاء

ومنها:

وهذا اليوم ضم مع الأخلاء

سراً القوم من نُدسٍ وطائي

رءوس كلهم لا عيب فيهم

سوى الإقدام ساعة الأقتضاء

يلبون النداء بلا توان

وخير الفضل تلبية النداء

شذاهم عطر الأرجا وأمست

بهم ذي الدار تزري بالسما

فياري أدمهم في صفا وام

نحن لوكاسنا طول البقاء

وأبق لما كرلسنا ليحمي الـ

كرارة من فحاخ ذوي الرياء

ووحده قبط مصر يا وحيداً  
وأنهجهم مناهج الأرتقاء  
لتجذل بنت صهيون وتشدو  
بمجدك في ابتداء وانتهاء

### وقال في مدح المطران المذكور:

هذا الذي أسر القلوب بلطفه  
مَنْ أُمَّهُ أَمِنَ النوائب والعنا  
لوكاس رب الفضل من عزت به  
أعلى الكنائس وهي واسعة البنا  
مطراننا لا ريب بحر علومها  
وبعلمه قد بلغت فوق المنى  
أبقاك رب العرش ربي دائماً  
ما زالت الأنوار تزهو في قنا

### وقال يرثي يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩:

رمز المكارم قد غدا تحت الثرى  
فصفاء مصر عليه حال تكدرا  
ذاك الذي بلغ العنان بحبه  
لله والأوطان وأحتل الدُرى  
ولّي ففاض الجفن دمعاً أحمر  
قد كان فيها حارساً ومدبراً  
أبكى بعاصمة البلاد كنائساً  
من للمجالس والمدارس بعده  
من لليتامى ولأيامي؟ من ترى  
ولي الذي زان الوزارة حقبة  
ذي بيعة العذراء تبكي فخرها  
من للمجالس والمدارس بعده  
من لليتامى ولأيامي؟ من ترى  
ولي الذي زان الوزارة حقبة  
ذي بيعة العذراء تبكي فخرها  
وكنائس القديس مرقس كلها  
النيل يبكي من بنيه سيديا  
أطفالنا ونساؤنا ورجالنا  
يبكيه بطريق ومطران وقس  
يبكيه أقباط وأحباش وقد  
ذرفت دموع المسلمين تحسرا

تبكيه أمته الأسيفة كلها  
عم البكاء ذويه إذ في غفوة  
الكل يبكي قاضياً زان القضا  
لكنه شغفاً برؤية ربه  
في مقدس الأبرار قام مسبحاً  
طوبي لقبر ضم جسم عميدنا  
طوبي لفردوس النعيم فقد غدا

تبكي وفاء نادراً متعذرا  
قهروا فواروا في التراب الجوهر  
يبكي الجميع العدل فيمن أدبرا  
حث المطى إلى العلاء مبكرا  
رب الملا مسترحماً مستغفرا  
قبر بدا بين القبور مصدرا  
بفضائل الضيف العظيم معطرا

## روفايل نخله

### ١ - موعظة الأهرام

يا فخر وادي النيل، يا أهرام  
ترقى إلى حيث أستقر غمام  
ستين عاما شادها الأقوام  
أفتهم الأتعاب والأسقام  
حيث النسور بملكهم قد حاموا  
بسواك جرّت ضعفه الأعوام  
ضربت، فغطى الأرض منك ركام  
مهما أعتلت بإزائك الأكوام  
أخنى عليها الدهر فهي رغام  
كشهود عرّ إن يضع فحرام  
كالبحر يُدحر موجّه المقدام  
لا عز فيك على هواه يضام  
وبسرّ خلدك ما لها إمام  
يحدو إليك ألوفهن هيام  
من فرطه قد ربعت الأفهام  
ولك الوقوف مهابة وسلام  
فلدي جلائك؟

فيكنّ قد راعتني الأجرام  
لم ندر قبلك أن أكوام الصفا  
لم ندر قبلك من رموس عواهل  
آلاف آلاف بنوك وألحدوا  
منك الرءوس على الصعيد منيفة  
قرعتك أعصار فلم تلحق أذى  
ما حط من عظم يزينك إنها  
هو منك شبه قطيرة من خضرم  
قا عاصرتك من الصروح بدائع  
وبقيت وحدك، لا تمسك عاهة  
حمل الزمان على جلالك فانتنى  
لا مجد فيك على وغاه حائل  
فكأنما الأعصار حولك جندلت  
قد حجك الأوفاد من أقصى رجا  
نظر الشعوب إلى جمالك خشعا  
وقفوا حيارى والعيون رواق  
مهما سمت قبل العيان ظنونهم



طمّت مراقـد موتكم  
ما عزّت مُنيتم ذلّة  
عظمت كذلك منكم الأجرام<sup>(١)</sup>  
سيديمها أخلاقكم ما دام

## ٢- غنى، أيا أجراس فصح القاهره

يوم عيد الفصح تزهو القاهره  
بقيامه القادي تكامل سعدها  
فسمأؤها زرقاء صافية خلّت  
وبها على شجر الشوارع زهره  
كل القلوب اليوم تحفق بهجة  
ومئات أجراس الكنائس كلها  
قام المسيح إلهنا من مدفن  
فأرى النصارى كلهم في شخصه  
غنى، أيا أجراس، إن شقاءنا  
غنى، يا أجراس، أنت أذلي  
غنى لوالدتي نشيدا مطربا  
غنى لها فتخدري آلامها  
غنى لها نغم الرخا فإنها  
غنى لها فتذكريها سنة

من فيض أنوار الربيع الباهره  
وبدت بشارات السرور النادره  
من دكنة السحب العبوس الماطره  
يجبو المدينة بالحليّ الفاخره  
بألوف دور بنى المسيح العامره  
غنت أغاني الجبور الجاهره  
ألقت فيه ذنوبنا المتكاثره  
إن الصليب ينيل مجد الآخره  
درب لأفراح السماء الطاهره  
من أرخم الألحان رنت ساحره  
بجماله تنسى الكروب الحاضره  
كم ليلة غنت بقربي ساهره  
عطشت إليه في البلايا الوافره  
تجد السلام إذا وعتها الذآكره

(١) الأجرام: الجرائم.



## الفهرس

المقدمة .....	٥
البابُ الأول: الأدب القبطي من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني .....	٩
البابُ الثاني: الأدب القبطي في العصر الحديث .....	٣١
البابُ الثالث: القومية الفرعونية وآثرها في الأدب القبطي .....	٥٢
الباب الرابع: اختلاف الأقباط فيما بينهم وآثر ذلك في أدبهم .....	٧٠
الباب الخامس: العلاقات بين المسلمين والأقباط وآثرها في الأدب القبطي .....	٨٢
البابُ السادسُ : الحركة الوطنية وآثرها في الأدب القبطي .....	١٣٩
١ - من سنة ١٨٨٢ - ١٩١٩ .....	١٣٩
٢ - مقتل بطرس غالي وآثره في الأدب القبطي .....	١٦٧
٣ - ثورة سنة ١٩١٩ وآثرها في الأدب القبطي .....	١٩١
البابُ السابع: مجتمع الأقباط وآثره في أدبهم .....	٢٠٦
البابُ الثامن: الحب الإلهي وآثره في الأدب القبطي .....	٢٢١
خاتمة .....	٢٣٣
بعض شعراء الأقباط	
" تادرس وهيبي " ١٨٦٠ - ١٩٣٤ .....	٢٣٧
إسكندر قزمان .....	٢٤٤
"نصر لوزا الأسيوطي " ١٨٨٧ .....	٢٥١
مختارات من شعره .....	٢٥٧
العلم والبلاد .....	٢٦٠

- ٢٦٢ ..... على سفح الأهرام سنة ١٩١٢
- ٢٦٥ ..... "فرنسيس العتر" ١٨٨٢
- ٢٦٩ ..... روفائيل نخله